المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مركز البحوث

بحوث المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول

المجلد الرابع

أشرفت على طباعته ونشره: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مركز البحوث

بحوث

المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول

المجلد الرابع

أشرفت على طباعته ونشره: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م

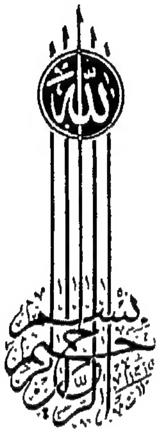
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

راجع وصحح التجارب الطباعية

د. محمود توفيق محمود
مركز البحوث

صالح حسين السمر
مركز البحوث

راجع الخرائط واعاد رسمها

نعمان محمد صيام
كلية العلوم الاجتماعية

المحتويات

الموضوع رقم الصفحة

بحوث فى انتشار الإسلام ٥

شرقى افريقيا : دراسة فى جغرافية الإسلام ٧
د. دولت صادق

مسالك انتشار الإسلام ٣١
د. يوسف ابو الحجاج

أثر الضوابط الجغرافيه فى انتشار الإسلام وتوزيع اقلياته ٤٩
د. سليمان خاطر

المسالك والدروب التى انتشر عليها الاسلام ٨٣
أمين التفورى

بحوث فى الجغرافيا التربوية ١١٥

الأرض فى القرآن ١١٧
د. فتحى عثمان

دور الجغرافيا فى تعضيد التضامن الإسلامي ٢٧٣
محمد الرابع الحسنى

دور المجموعة الإسلامية فى المؤتمر العالمى لتنميط الاسماء الجغرافية . . . ٢٨٧
د. عبدالهادي التازى

بحوث فى الجغرافيا السياسية ٢٩٩

تهويد فلسطين ٣٠١
د. محمد الفرا

الموضوع رقم الصفحة

ما طرأ على حدود فلسطين منذ الحرب العالمية الثانيه ٣٥٥
د. عبدالرحمن الشريف

التحشيد الفكرى والعسكرى الصهيونى تعبير عن الجيوبولتيك التطبيقية .. ٣٨٩
نافع قصاب

قضية فلسطين وابعادها السياسية والجغرافية ٤٠٧
بدر الحسن القاسمي

عروبة الاماكن والبقاع فى فلسطين قبل دخول بنى اسرائيل ٤٢٣
محمود العابدى

المشكلة الفلسطينية مشكلة دينيه عنصريه أم اقتصادية ٤٥٩
د. فوزى الاسدى

أصول المشكلة الأريتريه ومستقبلها ٤٩٣
د. محمد سعيد

مشكلة مسلمى الفلبين منذ الاحتلال الاسبانى حتى الوقت الحاضر ٥٤٧
د. محمد شتا

* * *

بحوث فى انتشار الاسلام

شرقي أفريقيا:
دراسة فى جغرافية الإسلام

دكتور / دولت صادق

إن موضوع انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ينبغي أن يحتل المكان الرئيسي في التاريخ الإفريقي، لأسباب عديدة من بينها: ارتباط العالم العربي بالقارة الإفريقية في عصور مختلفة من التاريخ، وامتزاج الحضارة العربية بالحضارات المتعددة للشعوب الإفريقية، مما جعل العالم العربي وإفريقيا بحكم التخوم الجغرافية، وسرعة الاندماج بين شعوبها، وتاريخها الحافل بالكفاح المشترك، أقرب إلى التضامن والتفاهم. ومع ذلك فإن إبراز طبيعة العلاقات العربية الإفريقية لاتزال تكتنفها صعوبات عديدة، من بينها فقدان الكثير من السجلات العربية، وغلبة المصادر الأجنبية التي كان قصدها التشويه المتعمد لتاريخ العرب في إفريقيا.

انتقلت المؤثرات العربية إلى الشعوب الإفريقية، وقد نتج عنها ظهور حضارة عربية إفريقية واضحة المعالم، بعد أن وجدت كثير من الشعوب الإفريقيه في الحضارة العربية والدين الإسلامي أساسا لبناء مستقبلها السياسي والاجتماعي، وتطبعت كثير من هذه الشعوب بالروح والثقافة العربية الإسلامية طوعا لا قسرا، وذلك قبل أن يعمل الاستعمار الأوربي على فرض نظامه ونفوذه.

ظهرت كثير من المعلومات الخاصة بإفريقيا في المصنفات العربية ابتداء من القرن التاسع الميلادي، ومن أبرز المصنفات التي كتبت عن شرق إفريقيا ما كتبه أبوالحسن المسعودي الذي تردد على شرق إفريقيا في الفترة ما بين ٩١٦ ـ ٩٢٦م، إذ كانت له أكثر من رحلة قام بها في تلك المنطقة، ولكن للأسف فإننا لا نملك من آثار المسعودي إلا كتابين: أحدهما كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»(١). وعلى الرغم من أن القرن العاشر الميلادي شهد تأسيس كثير من المدن والإمارات العربية والإسلامية في ساحل شرق إفريقيا فإن المسعودي لا يحدثنا عنها، وإنما اقتصر في وصفه على الزنوج.

وقد جاء بعد المسعودي الإصطخري، وأبوالقاسم محمد بن حوقل، والمقدسي الذى قدم لنا كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وهو من أعظم الجغرافيين العرب في القرن العاشر

الميلادي، وقد اقتصر في كتاباته على وصف الأقاليم الإسلاميه، ولم يتعرض لوصف الأقاليم التي يسكنها غير المسلمين، إلا أننا لا نجد في مصنفاته ما يمكن أن نضيفه إلى معلوماتنا عن شرق إفريقيا خلال هذه الفترة. وفي القرن الحادي عشر الميلادي، وقبل أن نصل إلى مصنفات الإدريسي، وهي من المصنفات العربية الهامة التي عنيت بإفريقيا، لا نجد سوى البيروني، ونلحظ في كتاباته اهتمامات واضحة بالساحل الشرقي لإفريقيا. وقد استفاد الإدريسي من جميع المعلومات التي أوردها المصنفون العرب والمسلمون، سواء من وصلت إلينا كتاباتهم أو من فقدت مدوناتهم، واعتمد عليها في وضع كتابه وخريطته المعروفة(٢).

وعلى الرغم من أهمية ما كتبه الإدريسي إلا أن المعلومات التي أوردها ليست وافية، هذا فضلا عن أنه أخطأ عندما أشار إلى مدينة براوة، فذكر أنها لاتزال على وثنيتها، إذ قال: إنها واقعة بطرف بلاد الكفرة. ولكن من المعروف أن الإسلام كان قد انتقل إليها في زمن أسبق بكثير من كتابات الإدريسي.

ويهمنا رحلات ابن بطوطة ، فهناك رحلة قام بها في عام ١٣٣١م من زيلع إلى مقديسو وممبسة وكلوة، ولعله يكون أول المصنفين العرب الذين حدثونا عن الإمارات الإسلامية الهامة في شرق إفريقيا(٣). وقد حدثنا عن مدينة ممبسة، وأنها شافعية المذهب وأن مساجدها مبنية من الخشب، كذلك وصف كلوة. وقد أشار إلى إسلام كثير من الزنوج، وأن هؤلاء كان يغلب عليهم الدين الإسلامي، وينتمون إلى المذهب الشافعي.

ومنذ النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى تجدب المصنفات العربية العامة التي تعرضت لإفريقيا. وقد أمدتنا هذه المصنفات بمعلومات عن بعض أجزاء القارة الإفريقية منذ القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وهي الفترة التي يمكن أن نسميها بالعهد الإسلامي الذي كان المسلمون خلاله على اتصال دون غيرهم بتلك المناطق التي كان لهم فيها النفوذ والسيادة عليها، والسيطرة على تجارتها. وفي الوقت الذي بدأت فيه المصنفات العربية في التلاشي تبدأ المصادر البرتغالية في الظهور، ثم تتوالى بعد ذلك المصادر الأوربية عن إفريقيا. وقد حاول بعض الكتاب الأوربيين تجاهل المؤثرات العربية، بل منهم من حاول

النيل من الحضاره الإسلامية في إفريقيا. وتجدر الإشارة إلى دور جرنفيل فريمان أحد المعنيين بتاريخ شرق إفريقيا قبل العصر البرتغالي، كذلك مجهوداب كل من ستيجاند Stigand، وبرنس Prins، وهتشنز Huchens، في دراسة وتطور الإمارات العربية والإسلامية في شرق إفريقيا(٤).

وقد نجحت مدن شرق إفريقيا نجاحا كبيرا، ووصلت إلى درجة كبيرة من التحضر والازدهار، ولكن افتقرت إلى التنظيمات العسكرية. وربما يرجع السبب إلى أنه قد أسسها تجار أو مهاجرون أو مضطهدون سياسيون أو دينيون، وهؤلاء جميعا كانوا مضطرين بحكم ذلك أن تكون علاقاتهم سليمة إلى حد كبير مع الأهالي الذين استقروا في أوطانهم. وما كاد القرن العاشر يولي حتى كانت هذه المدن قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية، إذ ساعدت الهجرات العربية المتوالية على طمس معالمها الفارسية، واستحالت إلى مدن عربية صرفة. وهذه المدن من الشمال إلى الجنوب هي: مقديسيو ـ براوة ـ سبوة ـ بات ـ لامو ـ زنجبار ـ كلوة. وفي خلال القرن العاشر الميلادي كان الإسلام قد انتشر في تلك المراكز، وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص.

ويمكننا أن نقسم المراحل الرئيسية التي مر بها تاريخ العرب في ساحل شرق إفريقيا إلى المراحل الآتية:

١ ـ المرحلة الأولى: وتتميز بظهور المراكز التجارية. وليست لدينا معلومات وافية عن حالة العرب في ساحل شرق إفريقيا في الفترة السابقة لظهور الإسلام، ولكن الأمر الذي لاشك فيه أن الصلات كانت قائمة لا تنقطع، إلى أن بدأ الإسلام يحدث انقلابا خطيرا في حالة العرب بوجه عام، وتاريخ الساحل الشرقي لإفريقيا بوجه خاص. ولم يكن للعرب قبل الإسلام اتصالات دائمة بشرق إفريقيا، وإنما كانت الصلات تقتصر على عمليات التبادل التجاري، وما يتبع ذلك في بعض الأحيان من استقرار مؤقت في المراكز التجارية. على أن الأمور قد تغيرت تماما بظهور الإسلام، إذ ظهر عامل آخر غير العامل التجاري، نتج عنه محاولة العرب الاستقرار الدائم، وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية، ولذلك شهد الساحل الشرقي لإفريقيا قيام الكثير من الإمارات والمدن العربية الإسلامية.

٢ ـ المرحلة الثانية: وتمتد من القرن السابع الميلادي إلى نهاية القرن الخامس عشر، وتتميز هذه المرحلة بسيطرة المسلمين على تجارة المحيط الهندي، كما شهدت هذه المرحلة أيضا استقرار العرب والمسلمين في ساحل شرق إفريقيا من الجزيرة العربية والخليج العربي وفارس والهند.

٣ ـ المرحلة الثالثة: وصول البرتغاليين إلى الساحل، وسيطرتهم على تجارة الميحط الهندي، وانتزاعهم هذه السيطرة من العرب والهنود.

٤ ـ المرحلة الرابعة: وتتميز بالثورات والحروب المتتالية التي قامت ضد البرتغاليين حتى خلص الساحل الشرقي لعرب عمان، وبذلك وضع الأساس لتكوين سلطنة زنجبار الحديثة.

إختار الله سبحانه الجزيرة العربية موطناً لبيته الكريم، ومبعثا للصفوة من رسله وأنبيائه، ومهبطا للأديان السماوية الثلاثة الكبرى: اليهودية، والمسيحية، والإسلام. وكان لذلك دلالته وحكمته من الناحية الجغرافية، فهذا الجزء يتوسط العالم، حيث يسهل الانتشار في كل اتجاه، وعنده تتقارب البحار. ومن هنا فقد كان على العابر أن يغير وسيلة النقل، وأن يقف عند الموانئ ليلتمس وساطة حداة الإبل وربابنة القوافل، فضلا عن أن سكان سواطئ شبه الجزيرة العربية كانوا أصحاب سفن ونقل بحري إلى ماوراء بحارهم، اشتغلوا بالتجارة ينقلون السلع بين أهل المشارق وأهل المغارب، وبين الجنوب وبحاره الدفيئة وسكان الشمال وبحاره المعتدلة أو الباردة، وكانت رحلات الشتاء والصيف التي ذكرها القرآن الكريم يحملون فيها المتاجر والسلع. ومع تبادل السلع ونقلها كان تفاعل الأفكار بل والمعاني والقيم الإنسانية على نحو انفرد به هذا الإقليم بين أقاليم الأرض جميعا. قال الله تعالى في محكم آياته:

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ)

(البقرة: ١٤٣)

إن بلاد العرب تعتبر في موقع مثالي، له منافذه التي تطل على كل اتجاه، وله مسالكه التي

تسمح بعبور كل شيء مادي أو معنوي، وله سكانه الذين عرفوا شعوب الأرض وماوراء البحار، وألفوا التجارة والتبادل، بل ألفوا العطاء والأخذ، وأحسوا دائما بأنهم أصحاب رسالة، لأنهم كانوا بحكم موقع وطنهم وطبيعته مؤهلين لأن يحملوا عبء تلك الرسالة. فلما أذن الله، وجاءت الرسالة المحمدية، وتوطدت أركانها في الجزيرة العربية، كان أهلها معدين لنشرها في كل اتجاه مع قوافل التجارة وسفن البحار وكتائب الفتح.

سارت كتائب الفتح تغزو أكبر دولتين وأعرقهما في العالم القديم: الفرس والروم، تزلزل أركانهما، وتمحو وجودهما، وتنشر العدالة والتسامح والرفق والمساواة في ظل الدين الجديد الذي عرض اختيارا بغير عنف ولا اكراه.

وسارت قوافل التجارة وسفن البحار التي تتبادل السلع، وتبشر بالدين الجديد، وتعرض فيه على الناس مثلا عليا، وتجارة ما يحملون، تجارة لن تبور ولا يخشون كسادها، تجارة تنجيهم من عذاب أليم، وتضمن لهم ربحا أكيدا، ذلك هو الإسلام.

ودخل الإسلام إفريقيا من الجزيرة العربيه المجاوره لها، من أرض الرسالة مباشرة، واتبع أكثر من مدخل وأهم هذه المداخل المدخل الشمالي الشرقي، والمدخل البحرى الشرقي، أو كما يطلق عليهما أحيانا تميزا لوسيلة المواصلات الأساسية: الإسلام البري، والإسلام البحري.

أما الإسلام البري فقد دخل من الشمال إلى مصر مع جيش الفتح العربي الذى غزا مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤٠م (٢٠ هـ)، استجابة لدعوة أهل الأرض من المسيحيين الذين عانوا من الإدارة الظالمة للبيزنطيين، والمعاملة المجحفة من إخوانهم في الدين، والتعذيب والتفريق بين أصحاب المذاهب المسيحية المختلفة، وما جعلهم يحقدون على حكم الرومان المسيحيين أمثالهم، ويودون الخلاص منه، ويرحبون بالعرب المسلمين المختلفين معهم دينا المتفقين معهم إنسانية، ويرون في الفتح العربى الإسلامي أمل الحياة العزيزة، والممارسة الحرة للشعائر الدينية دون ضغط أو إرهاب.

وبهذه المبادىء السامية وما تحمله من حرية وكرامة تابع الإسلام كفاحه ضد الرومان، واستطاع أن يمد ظلاله على مناطق لم يصل إليها نفوذ الرومان، وتتابعت الهجرات العربية، واندمجت في السكان، وأصبح المسلمون دعاة لدينهم، يستوي في هذا المهاجرون وأهل الأرض

ينشرونه عبر الصحراء إلى النطاق الرعوي، ويحاولون التوغل به في الغابة الأستوائية، ويتخذون طرسقهم تجاه منابع النيل، وأقاموا باسم الإسلام دولاً ومعالم وحياة جديدة، لها مقوماتها الحضارية المتكاملة المتميزة عن الأوضاع التقليدية السابقة. ومع أن هذا الوطن الإسلامي الكبير، وهو أكبر كتلة متجانسة في إفريقيا، لم يخضع لسيادة سياسة واحدة، إلا أن المصدر الفكري الأصيل لهذه الدول، وهو الإسلام، جعل من أجزاء هذا الوطن قطاعات من حضارة عالمية واحدة، تشعر بالانتاء إلى منبع روحي واحد هو الإسلام.

وفي إفريقيا استطاع السلام الإسلامي أن يحل محل السلام الروماني، وأخذت الامبراطورية الرومانية في التدهور تحت وطأة الانحلال الداخلي والضغط الخارجي، وخفتت مشاعل الحضارة في روما، وغرقت وراءها أوربا في ظلام ثقيل.

لم ينتشر الإسلام في شرق وشمال شرق إفريقيا بنفس السرعة، ولم تكن له نفس النتائج التي حققتها في مصر وشمال إفريقيا.

وبقدر وفرة المراجع والكتابات التي تحدثت عن الفتوح الإسلامية ومسيرتها الظافرة، سواء ما امتد منها شرقا في آسيا متتبعا الدولة الفارسية، وقاضيا عليها، وناشرا الإسلام في ربوعها، أو تلك الفتوحات التي امتدت غربا في إفريقيا الشمالية، ممتدة من مصر غربا إلى الميحط الأطلسي فأوربا، متعقبة الدولة الرومانية، قاضية على ظلمها، ومجيبة لدعوة أهلها، وناشرة راية الإسلام الذي سرعان ما استجاب له أهل الأرض، وانفتحت له قلوبهم وعقولهم، فاعتنقوه وتعلموا لغته، وأصبحت الدولة شرقا وغربا تدين بالإسلام، وتتكلم بلغة القرآن في سرعة أدهشت العالم، ووقف أمامها التاريخ، وهي البلاد التي كانت لها لغاتها العريقة، والتي استعصت على لغة الرومان، وقد خضت لهم زمنا طويلا، مما يشير إلى أن الإسلام غزا العقول والقلوب قبل أن يغزو الأرض ويفتح المدن، ويحمل السيف.

أقول: بقدر وفرة المراجع والكتابات عن هذه الفتوحات الظافرة، نجد قلة وندرة في المراجع والكتابات، بل تكاد تكون معدومة تلك الكتابات التي تؤرخ للإسلام الذي لم يسبقه أو يعقبه فتح للبلاد، ولم تعلن أرضه أرضا للجهاد، بل سار الإسلام إليها في صحبه التجار أصحاب القوافل والسفن، ومع الدعاة المجاهدين، حملوه فرادى وجماعات في فترات متقاربة أو

متباعدة، قد تصحب ظهور الإسلام نفسه، أو بعده بقليل أو كثير، يعززها ويدعمها معرفة سابقة وطيدة أو خفيفة بأصحاب تلك الأراضي عن طريق تجارة وتبادل سبق ظهور الإسلام بكثير أو قليل.

لم تترك تلك الجهود سوى كتابات قليلة متناثرة، نجدها في ثنايا كتب الرحالة المسلمين أو الغربيين، وقد نجدها في حوزة عائلات إسلامية، استوطنت تلك البلاد، وهي تعتز وتحرص على تلك الكتابات، ولكنه اعتزاز وحرص على التراث العائلي، الذي لا يخرج عن ملك العائلة الضيق المحدود إلى أفق التاريخ الواسع المترامي، إلى ملك البشرية أجمع، وملك التاريخ الإسلامي العريق. وإن كانت جهود تلك العائلات والجهود الفردية أو الجماعية تحتسب جهادا في سبيل نشر دين الله بنشرها وإلقاء الأضواء عليها، بجعلها نبراسا ومثلا لجهود رائعة، قدمت فى صمت وخفاء في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق.

ولاريب أن هذه الرحلات المنفردة كانت كما قلنا موجودة قبل الإسلام، فقد كانت هناك من الدلائل والمؤثرات ما يشير إلى أن العرب كانوا على صلة وثيقة بشرق إفريقيا وشمالها الشرقي الذي كان يمثل الضفة الغربية للبحر الأحمر، فهم جيران العرب لا يفصلهم عنهم سوى هذا الشريط البحري الضيق، بل إن الدلائل تشير إلى أن هناك من السفن العربية ماكان يدور حول الجزيرة، ويأتي من أقصى الشرق من الخليج العربي إلى الساحل الإفريقي، حاملا المتاجر والسلع إلى جانب الدعوات الروحية والدين.

وإلى جانب ذلك كانت إفريقيا قبل ظهور الإسلام من أول مصادر جلب الرقيق الأسود، وهو جزء من الرقيق الذي نزلت فيه الكثير من آيات القرآن الكريم، تحث على إطلاق سراحه وإعطائه حريته، وجعل ذلك من أحسن ما يتقرب به الإنسان إلى الله تعالى.

ومن هذا الوطن الإفريقي ظهر الكثير من أبطال العرب ذوي الأصول الإفريقية، أمثال عنترة الأسطورة العربية في الشجاعة، وظهر الكثير من المجاهدين العرب الأوائل، من أمثال بلال بن رباح رضي الله عنه. كل ذلك يدعم الصلة الكبيرة التي كانت بين الجزيرة العربية وذلك الشرق الإفريقى المجاور، مما كان له أبعد الأثر في تاريخ البلدين.

ولكن رغم هذه الصلات القديمة لم ينتشر الإسلام في شرق وشمال شرق إفريقيا بنفس

السرعة، ولم يكن له نفس النتائج التي حققها في مصر وسهال إفريقية، وحتى أكسوم تلك المملكة المسيحية الحبشية التي كانت كثيرا ما تغير على جنوب شبه الجزيرة العربية حتى ميلاد الرسول قد تركت في أمان عدة قرون أعقبت الإسلام. ولقد استفاد العرب االمسلمون في القرن السابع من ضعف هذه المملكة المسيحية المؤقت، فاستولوا على ميناء مصوع وجزر دهلك المجاورة. وتروي لنا كتابات العرب في القرن التاسع والعاشر على لسان اليعقوبي وابن حوقل أنه في هذه الفترة كانت الحبشة ومازالت تسيطر على معظم ساحل البحر الأحمر المقابل لليمن، ولقد امتد هذا التأثير حتى شواطئ خليج عدن، وقد تمكنت جماعة من التجار المسلمين من أن تستقر في الأجزاء الساحلية خاصة الموانئ، ولكنهم كانوا بدفعون الجزية لملك الحبشة. ولم يعتبر العالم الإسلامى الحبشة أرضا للجهاد، لما يربطها به من صلات روحية امتدت جذورها إلى أيام البعثة المحمدية حين ضاقت بالمسلمين الأرض، واستد بهم أذى الكفار، واحتاروا إلى اين يتوجهون؟ فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجره، ولم يجد أمامه غير الحبشة مهجرا لرجاله، فهي بلاد مجاورة، يحكمها النجاسي صديق العرب الذي يدين بالمسيحية الدين الكتابي. فلما هاجروا إليها تلقاهم النجاشي لقاء رحيا وأمنهم وآواهم وحماهم، بعد أن سألهم عن دينهم، ووجد فيه الملامح الأصيلة للأديان السماوية. ولما تعقبهم الكفار إلى أرضه بسط عليهم حمايته، ورد عليهم كيد الكفار، ولم ينس المسلمون له هذا الصنيع الذي أنقذ بعض المسلمين المجاهدين الأوائل، وشد من أزر الإسلام في أيامه الأولى، واعتبرت الحبشة صديقة الإسلام، ولم تعلن أرضا للجهاد.

ولكن رغم ذلك فقد كان ظهور الإسلام في الواقع نقطة تحول في تاريخ الحبشة إذ فكك وحدتها وتجانسها وارتباطها السابق بعالم البحر المتوسط ، مما ترتب عليه استبدالهم بتجارة العرب المسلمين في موانئ البحر المتوسط المصريين واليونانيين واليهود الذبن كانوا هناك من فبل.

ولم تقم أية متساحنات بين المسلمين والمسيحيين زهاء ستة أو سبعة قرون تقريبا، إذ لم يكن هناك ما يدعو لمثل ذلك، كما كان مع الصليبيين الذبن سكلوا تاريخ البحر المتوسط الأوسط . وربما كان سبب ذلك هو أن كنيسة الحبشة كانت تتبع الكنيسة المصرية والسورية التي تدين بالمذهب اليعقوبي، وبذلك استفادوا من التسوية التي عقدها القبط مع العرب في مصر. وقد

كان الأساقفة الأحباش خلال العصور الوسطى وحتى خلال الحروب الصليبية موجودين بالقاهرة، كما كان الآلاف من الحجيج الأحباش وكانوا يتوقفون للاحتفال بالصلاة والعبادة. والواقع أن صلاح الدين الذي يمثل العدو اللدود للصليبيين المسيحيين هو الذي أهدى كنيسة القدس للحبشة، لتكون قبلة المسيحيين ومركزهم الديني.

ولم يكن الخطر الحقيقي على الحبشة الوسطى ليأتي إليها من مسلمي الشمال، وإنما من وثنيي الجنوب، ولا نستطيع سرد تفاصيل ذلك الخطر الذي أحدق بهم، لعدم وقوفنا على تفاصيل الأزمة التي حدثت هناك، ولم يكن ثمة ما يشير إلى حدوث كارثة سوى رسالة خطها ملك الحبشة في أواخر القرن العاشر إلى أخيه الملك جورج ملك النوبة، يروى له فيها كارثة خطيرة حلت بالبلاد، فدمرتها وتركتها خاوية على عروشها، بعد أن تعرضت لغزوات من جانب دولة وثنية مجاورة. ومن المحتمل أن تكون هذه الدولة هي دولة «آجاو» في منطقة داموت على النيل الأزرق. وتعتبر فترة استرداد المملكة المسيحية في الحبشة أكبر فترة بطولية في تاريخ الحبشة في خلال قرنين ونصف، استطاعت هذه الأسرة البطركية أن تمد حدود الدولة السياسية والدينية شمالا لتشمل مقاطعات أمهرة - لاسا - جوجام - وداموت، وأصبحت أمهرة - وليست مقاطعة تيجرة الشمالية - مركزا لهذه المملكة. وكان هذا الامتداد الجنوبي الذى كان ردا على تهديدات الوثنيين هو الذي سمح بتوسع الإسلام من ساحل البحر الأحمر إلى الداخل على طول الحدود الشرقية للملكة الحبشية.

ويبدو أن تيار الهجرة العربية لم يتجاوز البحر الأحمر الذى كانت سواحله تكون جزءا من مملكة الحبشة إلا بعد ظهور الإسلام بقرون.

وحتى القرن العاشر لم تكن هناك إلا أسر إسلامية قليلة العدد تقيم فى مدن الحبشة الساحلية، إلا أنه فى نهاية القرن الثانى عشر أدى تأسيس دولة عربية إلى فصل بعض الأراضى الساحلية عن مملكة الحبشة.

ومنذ بداية القرن العاشر نمت عدة دول إسلامية ابتداء من ميناء زيلع وفى اتجاه الشمال مع طريق التجارة الطبيعى نهر هواش، متتبعة إلى حد كبير طريق الخط الحديدى الحديث إلى أديس أبابا. وكان يقوم بحكم هذه الدول سلالة صومالية الأصل تعمل فى تجارة الرقيق والعاج

والذهب مع الوثنيين والدول المسيحية. وكان من الطبيعى أن يمتد نشاط التبادل التجارى ليشمل سودان وادى النيل، وربما أوغندا أو شمال كينيا وكانت وظيفة هذه الممالك الرئيسية هى التجارة، وبذلك حلت فى القرون الوسطى محل نشاط مروى ثم أكسوم القديمة، كدول تجارية فى وسط إفريفيا. ولم يكن كل هذا يهدد مركز المملكة المسيحية هناك..

وحدث سنة ١٣٠٠ أن شق أحد الدعاة ويدعى أبا عبدالله محمدا، طريقه إلى بلاد الحبشة داعيا أهلها إلى الإسلام ولما تمكن من أن يجمع مائتى ألف شخص هجم بهم فى السنة التالية على حاكم أمهرة واشتبك معه فى معارك كبيرة. وقد اتخذ الملك سيف أرعد (١٣٤٢ ـ ١٣٧٠) تدابير صارمة فى مملكته ضد المسلمين، تقضى بإعدام كل من يأبى دخول المسيحية أو نفيه من البلاد.

وفى نهاية القرن نفسه عمت البلاد حالة قلق واضطراب لانشغالها بالحروب الداخلية مما مهد للقبائل العربية المختلفة التى استقرت على طول الساحل لأن يجعلوا من أنفسهم سادة على المنطقة الساحلية بأجمعها وطردوا الأحباس إلى الداخل(٥)

ولكن كل هذا لم يكن يهدد المملكة المسيحية هناك، وبدأت المملكة المسيحية الجديدة بعد أن استردت سلطتها ومركزها في المنطقة في أواخر القرن الثالث عشر، وبعد أن آلت إلى مجموعة الملوك الأول من أسرة سولومبيك بدأت التحرش بالمسلمين، ونجحت في خلال القرن الرابع عشر في أخذ الجزية منهم. وكان كل هذا في الوقت الذي لم يصل فيه العداء بين المسلمين والأحباش المسيحيين إلى حرب دينية سافرة. وفي القرن الخامس عشر قوي حكم الحبشة، وفكر سكان المنطقة كمسلمين لا كتجار في تنظيم الثورات في سبيل الانتصار أو الاستشهاد.

وكانت نتيجة الثورة الأولى زوال أكثر الدول الإسلامية وتحطيمها، مثل إيفات التي طورد حاكمها حتى زيلع حيث قتل عام ١٤٦٥، وسقط شمال إيفات تحت حكم الحبشة المباشر. وقد قيل: إن الملك بنيد ماريام (١٤٦٨ ـ ١٤٧٨) قضى الجزء الأكبر من حكمه في محاربة المسلمين المقيمين على الحدود القريبة من مملكته(٦).

إلا أن قادة المسلمين وأفراد الأسرة الملكية استطاعوا، بعد أن تراجعوا إلى اليمن، تجميع

ستاتهم، واسترداد بعض قواتهم، فعادوا إلى الجزئ الشرقي العصي من الساحل الصومالي، ليبدأوا في إنشاء أول دولة إسلامية بين الحبشة والأطراف الجنوبية أطلق عليها «دولة عدل»، معلنة الجهاد ضد الحبشة جهادا على أيدي قوة حقيقية منظمة.

وفي أوائل القرن السادس عشر كان الأتراك العثمانيون قد وصلوا إلى مصر، ومعهم الأسلحة النارية المختلفة، واستطاعوا أن يصلوا بها إلى موانئ البحر الأحمر في الجنوب وفي بلاد العرب أيضا، ووجدوا في «دوله عدل» مجمعا إسلاميا مترابطا، يستطيع استخدام هذه الأسلحة ضد الأحباش المسيحيين. وهذا ما فعله أحمد القرين أمير عدل المسلم المستقل الذي يروى عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة إيجو المسيحيين، وكان قد ترك موطنه، وهداه الله إلى الإسلام في عدل، فقد غزا أحمد القرين بلاد الحبشة من ١٥٢١ ـ ١٥٤٣، وانضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأحباش مع أتباعهم وأصبحوا مسلمين. وفضل بعض أهالي بعض المقاطعات أداء الجزية، إلا أن التحول الواسع النطاق إلى الإسلام يوحي بأن الحركة لقيت تأييدا من العامة، وقد طلب الزعماء المسيحيون الذين تحولوا إلى الإسلام من جيوشهم الاقتداء بهم ففعلوا، ومنهم كثير من الزعماء الذين كانوا في خدمة ملك الحبشة. وكادت دولة عدل بقيادة أحمد القرين تقضي على الدولة الحبشية لولا تدخل البرتغاليين في آخر لحظة ١٥٤٢، إذ استطاع الأحباش بمساعدة البرتغاليين إيقاف الغزو الإسلامى وقتل أحمد القرين نفسه ١٥٤٣.

ومع ذلك فقد استقرت دعائم الإسلام في تلك البلاد، ويقرر بعض المؤرخين ذلك الاستقرار إلى حالة القلق التي سادت الحبشة بقية القرن السادس عشر وما يليه، وكانت الكنائس المسيحية مشغولة بالتنازع فيما بينها انشغالا لم يمكنها من التفرغ للعدو المشترك، حتى أعلن بعض القواد صراحة: إنه من الخير أن يخضعوا للحاكم المسلم من أن يظلوا على مخالفة البرتغاليين.

وقد اختلطت الحركة الدينية بالحركة الوطنية، واتخذت خطوات واسعة، أدت إلى طرد البرتغاليين حوالي عام ١٦٣٢، وإخراج كل المسيحيين الأجانب من البلاد. وأصيبت الحبشة إذ ذاك بضرب من الفوضى وسوء النظام، وقد استغلت بعض قبائل الجلا هذه الفرصة، فشقت طريقها إلى قلب البلاد، حيث لاتزال أماكن استيطانها باقية إلى الآن.

ويبدو أن الإسلام أحرز تقدما في خلال هذه الفترة، إذ ذكر بعض رحالة القرن السابع عشر أن معتنقي الدين الإسلامي كانوا في ذلك الوقت منتشرين في جميع أنحاء الحبشة، وأنهم يؤلفون ثلث السكان. وفي القرن التالي زاد الإسلام انتشارا بفضل أفراد كانوا يعيشون في عزلة هنا وهناك، وساعد على ذلك ظهور أمراء مستقلين، كانوا كثيرى العطف على الإسلام، رغم أن كل أمراء الحبشة كانوا ـ وفقا لقوانين البلاد ـ من المسيحيين، وكذلك الطبقة الأرستقراطية، بل وبعض كبار المسلمين تظاهروا بالتحول إلى المسيحية جريا وراء مظاهر العظمة المادية التي يوفرها لهم اعتناق هذا الدين، ولكنهم رغم ذلك كانوا يستخدمون كل ما لهم من نفوذ في نشر الإسلام (٧).

ورغم ما كانت توفره المسيحية لمعتنقيها من التفوق المادي والجاه والمنصب إلا أن الإسلام كان يوفر لمعتنقيه من التفوق الأدبي والخلقي ما يهيئ لهم النجاح في حياتهم وفي نشر دينهم وجذب الناس إليه، حتى إن الاختيار في الحبشة كان يقع على الشخص المسلم لشغل المناصب التي تتطلب الأمانة والثقة والحيوية والنشاط والعلم.

إن الإسلام أحرز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تقدما كبيرا، وإن كان بطيئا، ساعد عليه انحطاط رجال الكنيسة، وما شجر بين زعماء الحبشة من منازعات. وبدأ نشاط التجار المسلمين واضحا في نشر الإسلام، حتى قيل: إنه اعتنق الإسلام في خلال المائة عام الأخيرة من هذا القرن كل قبايل الحباب القاطنة بين خطى عرض ١٦، و١٧ إلى الشمال الغربي من مصوع، وكانوا يحملون أسماء مسيحية إلا أن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان والإسلام. وساعد على انتشار الإسلام أن الإسلام لم يكن يعرف التعصب أو العداء للمسيحية، كما أشيع عنه أنه يورث طول العمر وحسن الحظ.

ولعل نور الإيمان الذي كان يشرق في وجوه المسلمين السود فيضفي عليها النضارة، كما أن النظافة التي تصاحب الإسلام، وتتجلى في طلب الطهارة دائما، والإكثار من الوضوء، ومظاهر الصلاة وما فيها من خشوع في القيام والركوع والسجود وقراءة القرآن بترتيل جميل، كل ذلك كان يلفت النظر في هذه البلاد، فيحيط الإسلام والمسلمين بهذه الهالات الطيبة والشائعات الساذجة، فالنظافة طريق الصحة، والإيمان يفتح أمام الإنسان طريق التفاؤل والأبواب المغلقة للنجاح.

وقد أصبح الدين الإسلامي الآن راسخا بعيد الغور في الحبشة،وأصبح المسلمون يملكون ناصية التجاره كلها، كما يملكون المهن الصغيرة بأنواعها في البلاد، ولهم أملاك واسعة، وهم يسيطرون على الكثير من المدن والأسواق الهامة، ولهم نفوذ قوي في الشعب.

ويرجع الفضل في ذلك إلى الدعاة المسلمين وحماسهم وإخلاصهم، وقد لخص أحد المبشرين المسيحيين ذلك، فقال: لو أن هناك أحمد قرين آخر يقوم وينشر راية النبي لصارت بلاد الحبشة مسلمة بأسرها.

ولكن حدثت نكسة في هذا النجاح عندما وقع الشقاق بين الحبشة والحكومة المصرية ١٨٧٥ ـ ١٨٦٢، وانعكست كراهة العدو الأجنبى المسلم على إخوانهم في الوطن، وتطورت الأمور إلى المناداة بالاقتصار على دين واحد هو المسيحية، وسادت وسائل القهر والتعميد الإجباري، ولكن ذلك لم يوهن عزم المسلمين أو إيمانهم، بل زادتهم تمسكا بالدين الإسلامى سرا وعلنا كما، قامت السيدات الحبشيات المسلمات بدور خطير في تلك الفترة الحرجة مما ساعد على تثبيت دعائم الدين الإسلامي.

وقد اغتنم ملك كافا ، الولاية الصغيرة التي كانت تعترف بالسيادة الحبشية، فرصة تهديد الايطاليين وأتباع المهدى للملك جون، وأعلن استقلاله وإسلامه، وظل إلى أن غزاه وأسره الملك منليك، وأعاد كافا تحت سيطرته.

ولكن كل وسائل القهر والقمع لم تمنع الدين الإسلامي من النمو والانتشار خلال القرن التاسع عشر في الحبشة، حتى لقد أسلمت قبائل بأجمعها كانت تدين بالمسيحية، ومازالت للآن تحمل أسماء مسيحية وقلوبا مسلمة، مثل قبيلة تاكلبة وغيرها، مما يرجع إلى جهود الدعاة المخلصين.

إن تاريخ الحضارة الإسلامية في الساحل الإفريقي الشرقي ازدهر في القرن الثالث عشر في الساحل الشرقي لإفريقيا لأنه وثيق الصلة بأرض الإسلام، وعلاقته بها كبيرة وعميقة، ولكن الحقائق المعروفة عن الوطن الأول لاستقرار العرب على الساحل الشرقي ضئيلة جدا، منها أحد الكتب التاريخية العربية، وجده البرتغاليون في مدينة كلوة، فيه أحاديث عن أول من هاجر من العرب إما نفيا أو هربا، وهم جماعة من الشيعة الزيديين نجحوا في الاستقرار في هذه

البلاد، وتبعهم جموع من أهل السنة قدموا من الشاطئ العربى للخليج الفارسي من موطن لا يبعد عن البحرين، وأنهم بنوا مدينة مقديشيو التي أصبحت فيا بعد سيدة على كل عرب الساحل، يسودها العرب المسلمون. ويحكي الكتاب أن هؤلاء العرب المسلمين اختلطوا بأهل البلاد الأصليين، ومنهم من توغل في الداخل، وتطبعوا بطباع السكان الأصليين وأخلاقهم.

وقد اتسعت مقديشيو المسلمة حول منتصف القرن العاشر، وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين عاما، إلى أن جاء مسلمون آخرون من جنوب الخليج ينسب زعيمهم إلى أحد ملوك شيراز، ورسوا على ساحل زنجبار هربا من اضطهاد الفرس أيضا وأنهم أسسوا مدينة كلوة التي أصبحت تنافس مقديشيو بمركزها المستقل.

وبهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية الإسلامية على طول الساحل الشرقي، من خليج عدن حتى مدار الجدي على حافة المنطقة التي كان جغرافيو العرب في العصور الوسطى يطلقون عليها اسم بر الزنج، ولابد أنه كانت هناك جهود كبيرة للدعوة إلى الإسلام، ولكن الكتابات عنها ـ كما قلنا ـ قليلة أو مختفية عند الأسر المسلمة، أما القصص التي تصحبها فكثيرة مثيرة، وكلها تتبلور في علاقات تجارية عريقة بين هذه البلاد والعرب المسلمين، وأن تعرف هؤلاء الزنج على الإسلام كان يفتح قلوب أهل البلاد للمسلمين، ويرغبهم في اعتناق الإسلام، والعمل بتعاليمه، والرغبة في التعرف على مواطن الإسلام في مكة والمدينة، بل والتفقه في الدين والتمسك بآدابه.

إن تاريخ الحضارة الإسلامية في الساحل الإفريقي الشرقي ازدهر في القرن الثالث عشر، وكان العرب ـ كما قلنا ـ يشاركون في التجارة الواسعة في المحيط الهندي، وأسسوا حوالي أربعين مدينة مشيدة بالأحجار، وبعيدة على الساحل الشرقي الإفريقي، كما أن هناك مسجدا في جزيرة زنجبار يرجع إليهم. وتشير الاكتشافات الحديثة في خرائب أحد القصور بمنطقة حصن كبوا في جزيرة كلوة إلى وجود آثار الفن الفارسي الذي ينسب إلى الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر.

وتروى آثار المنطقة أنه في منتصف القرن الثالث عشر وحتى وصول البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر كان يخيم على ساحل شرق إفريقيا هدوء وسلام شاملان، وقد استقرت

جماعات إسلامية متحضرة على طول الساحل الصومالي الكيني التنجانيفي، وأخذوا يشيدون بيوتهم من الكتل الصخرية كما استوردوا الفخار من سيام والخزف الصيني القديم ومعادن الصين، وقد صك سلاطين كلوة نقودهم النحاسية في هذه الفترة في دور سك النقود، ليمكن تدولها في أي مكان من إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

وكانت كلوة تعيش على تجارة أوديسيا وربما كاتنجا أيضا، وعرفت ماليندي وممبسة منذ القرن الثاني عشر بمناجمها الغنية بالذهب الذي كان يصدر إلى الهند، وكذلك مصانع الصلب لعمل السيوف وغيرها. وكان يوجد في مقديشيو مصنع للنسيج، ينتج الأقطان والملابس المصنوعة من وبر الجمال لتباع في أسواق مضر. وقد كان التقدم االمادي واضحا في القرن الثالث عسر، وتبع هذا أيضا التقدم في الناحية الثقافية والفنية التي انعكست على رخاء المنطقة، وقد امتد أثر المسلمين في المحيط الهندي على الجانب الآخر من مجال توسعهم.

سهد القرن الثالث عسر بداية توغل المسلمين في الهند وأندونيسيا توغلا كبيرا، كما شهد أيضا إسلام الهندوس وبناء حضارتهم في مدن الملايو وجاوة وسومطرة، ومن المحتمل أن تكون هذه العناصر اندمجت مع عناصر إسلامية أخرى في منطقة الساحل. وفي بداية القرن الثالث عشر كانت معظم تجارة المحيط الهندي تمر عبر الأراضي الإسلامية. وفي هذه الفترة ظهر الأثر الديني واضحا، فانعكس على المساجد والمقابر الإسلامية على الساحل الشرقي وبين الداخل الإفريقي من الشرق أيضا، ففي بيئة البانتو تعيش العناصر الصومالية ـ السواحلية التي عملت في التجارة بعد دخولها الإسلام، فتبادلوا التجارة برا مع الجالا الوثنيين في جنوب مملكة الحبشة، كما حدث اتصال بحري مع جماعات جنوب كلوة. وأيضا نرى آخر في مناطق الذهب على الساحل وفي روديسيا ومناجم النحاس في كاتنجا ولم يكن هناك أي اتصال يذكر بين ساحل زنجبار ومنطقة البحيرات التي كانت منطقة ازدحام سكاني في شرق إفريقية، وتشير الدلائل الأثرية إلى قيام ممالك منظمة ظهرت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر على الأقل، إذ لم تكشف الحفائر غرب أوغندا أو عند موقع السد الترابي الذي شيد في القرن الخامس عشر عن وجود أي أثر مهما كان ضئيلا فى المناطق البعيدة عن الساحل، والسبب في ذلك وجود الأخدود الإفريقي الذي يعمل على وجود فاصل كبير بين الساحل وبين منطقة البحيرات، يتمثل فى أراضي غير صالحة للزراعة متميزة بجفافها، وكانت تحتلها جماعات من الحاميين

النيلين وكانت لهم مثل وعادات تتعلق بمساعدة وحماية القوافل. وظل الحال كذلك حتى القرن الثانى عشر عندما تدفق البانتو من تنجانيقا إلى جنوب البحيرات للزراعة، وفى نفس الوقت فتحوا طريق التجارة بين الساحل وداخل افريقية.

وفي النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت مملكة أوغندا على سواحل بحيرة فكتوريا الشمالية العربية تستورد الأقشمة القطنية وسلعا أخرى من العالم الخارجي. وفى هذه الفترة كان الاحتلال البرتغالى قد سيطر على ساحل زنجبار ولم يكن لهذا الاحتلال آثار عميقة فى الساحل بل إنه انعدم تماما فى الداخل إذ كانت أهداف البرتغاليين على شواطئ موزمبيق وزنجبار وبمبا وممباسا ومجموعة جزر لامو. وقد اقتصرت أهدافهم الأساسية فى المنطقة على الحصول على ذهب الزمبيرى وقاعدة موزمبيق البحرية التي تتجر فيها السفن من شرق الهند إلى جوا رأسا. ولقد حدث أن تحولت تجارة الذهب فأخذت طريقها إلى أوربا وذلك بعد سنوات قليلة من الاحتلال البرتغالى هناك وأصبحت مدينة كلوة قليلة الأهمية واستقر العرب فى المناطق الواقعة إلى شمالها لتندمج مع البانتو السواحليين الذين كانوا على علاقات مع العرب والخليج العربي. وفى عام ١٥٩٣ سعى البرتغاليون للسيطرة على الساحل فبنوا الحصون التى فيها تلك القلعة للسيطرة على الساحل فبنوا الحصون المساة بحصن يسوع فى ممباسا حدث ذلك فى الوقت الذي خرجت الأجزاء الشمالية الشرقية من المحيط الهندي من قبضتهم وفى ١٦٢٢ طردوا من الخليج العربي، وفى منتصف ذلك القرن شهد الملاحون العمانيون هجوما على جنوب زنجبار، وفى ١٧٠٠ طردوا البرتغاليين من حصن يسوع وفى القرن الثامن عشر كان الساحل الشرقي لإفريقية شمال رأس ويلكادو قد اسنرد علاقاته واتصالاته بالعالم الخارجي، وخرج الساحل وزنجبار نهائيا من قبضة الاحتلال البرتغالي، وبذلك عادت العلاقات الثقافية والتجارية مع المراكز الإسلامية الرئيسية، وشهد القرن الثامن عشر مولد مدن وممالك سواحلية معظمها تحت الحكم العربي، وقد اندمجت هذه المالك تحت زعامة أئمة عمان. ومن هذه القواعد العربية بدأ التوغل الجدي من الساحل إلى داخل القارة.

ولكن تأثر أهل البلاد داخل القارة بالإسلام كان قليلا قلة ملحوظة، وحتى قبل الفتوحات البرتغالية تحولت قلة إلى الإسلام وكانت في الحدود الساحلية وكذلك بعد تدهور النفوذ البرتغالي في هذا الجزء من العالم.

وإلى أن جاء القرن العشرون كان من العسير أن تبذل جهود في نشر معارف الإسلام بين قبائل الجهات الداخلية فيا عدا الجلا والصومال، ولم يكن الإسلام قوة حقيقية في شرقي إفريقية، تصبغ أهل البلاد بصبغة الحضارة والمدنية. ومهما تكن القوة الروحية والمعنوية في الدين الإسلامي فإنها ظلت مستكنة وسار الإسلام في بطء في هذه البلاد بصورة أدهشت المؤرخين الذين أرجعوه إلى عدم قابلية الأهالي هناك للحضارة، بدليل أنهم اتصلوا زهاء خمسة قرون بشعب نصف متحضر، فلم يترك فيهم ذلك أقل أثر للصفات الحضارية التي كان يتصف بها جيرانهم، وأصبح الفارق بين إفريقيا الداخل والخارج كبيرا. أما أوغندا فإن نشاط التجار بها جاء بالثمرة المرجوة، ويرجع بعض المؤرخين ذلك إلى ما يتصف به أهل أوغندا من روح الحرية والعزة مما يتفق وتعاليم الإسلام، فوجدوا فيه ضالتهم، وأقبلوا عليه، وأسلم كثير منهم في عهد الملك موتزا. ولكن دخول إرساليات مسيحية سنة ١٨٧٥ جعلت النشاط الديني المسلم يتباطأ وزاد عدد المتنصرين. ورغم ذلك فمازال في أوغندا عدد كبير من المسلمين، يشغلون مراكز هامة، ويقال: إن عددا كبيرا من بلاد يوسوجا الواقعة في شمال أوغندا والتي تخضع للنفوذ البرتغالي قد دخل الإسلام سنة ١٩٠٦، وذكر أن عدد المسلمين بها بلغ ٢٠٠٫٠٠٠ من السكان البالغ عددهم أربعة ملايين.

وباستثناء أوغندا كان الإسلام حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر منحصرا في البلاد الساحلية وما يتاخمها، وقد سجل الإسلام نجاحا كبيرا بين قبائل الجلا والصومال. وقصة دخول الجلا في الإسلام يكتنفها الغموض، ولكن معظمهم الآن مسلمون في تعصب وحماس، وبعضهم مازال وثنيا. ويكثر المسلمون في السهول، ويقلون في الجبال، مما يوضح أثر الدعاة المسلمين والتجار الذين كانوا يجدون متسعا من الوقت لنشر الدين بما توفر لهم من إيمان وحب للدعوة ولباقة ومال وتمكن من اللغة، أما الصومال فقد كان القرب الشديد بينهم وبين موطن الإسلام في الجزيرة العربية سيجعل هذه البلاد مسرحا لنشاط الدعوة الإسلامية في أيامها الأولى، ولكن للأسف الأخبار قليلة، وقد ذكر ابن حوقل أن أهالي زيلع كانوا مسيحيين في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، وذكر أبوالفدا أنهم مسلمون في القرن الرابع عشر الميلادي.

وهناك الكثير من القصص التي تحوط بالدعاة الأوائل للإسلام في الصومال، ومنهم الشيخ إبراهيم أبو رزباي، الذي شق طريقه إلى مدينة هرر، وتحول على يديه الكثير إلى

الإسلام، ومازال ذكره موضع التكريم، كما أن هناك بالقرب من بربرة جبل يسمى جبل الأولياء، نسبة إلى هؤلاء الدعاة الأوائل الذين كانوا يعيشون في خلوة مقدسة، يدعون إلى الدين الإسلامي الحنيف. وقد ساد الإسلام شيئا فشيئا جميع أنحاء إفريقيا الشمالية الشرقية، ولكن تزايد نفوذ الإمبراطور متلتيك واحتلاله هرر عام ١٨٨٦ أدى إلى تحول عدد معين إلى المسيحية.

وهكذا نرى الدعوة الإسلامية في شرق إفريقيا تلقى نجاحا كبيرا أحيانا وتعثرا أحيانا أخرى، وقد يحدث ذلك لأسباب كثيرة، منها ما يرجع إلى أهل البلاد أنفسهم ومدى تقبلهم لدعوات الروح والمدنية، كما في قبائل الداخل من إفريقيا، وقد ترجع إلى أحداث تاريخية، كما رأينا في الحبشة، وقد ترجع إلى نشاط الدعاة أو تقاعسهم، وقد ترجع إلى النشاط التبشيري المسيحي الذي يمتاز بالسعار والخبث ، حتى إن أحد المبشرين المسيحيين اعترف لطبيبة مصرية عالمة من المهتمات بالشئون الإسلامية، ولم يكن يعرف دينها، أنهم يذيعون بيانات خاطئة عن فشل ألتبشير المسيحي فى إفريقيا ونجاح الدعوة الإسلامية، وذلك ذرا للرماد، وليطمئن المسلمون فلا ينشرون دعاتهم. ولكن علي أي حال ليس صحيحا ما يدعيه بعض الكتاب الغربيين من أن السبب في عدم نشر الدين الإسلامي بين قبائل الداخل في إفريقيا أن المسلمين يجلبون من هناك الرقيق، فليس في صالحهم نشر الدين بينهم، وليس صحيحا أن السبب في انتشار الدين أي دين هو النفوذ الأوروبي الذي منع الرقيق، وأعطى الحرية، فالعكس هو الصحيح، فالإسلام دين الحرية، والنفوذ الأوروبي عبودية.

وفي القرن التاسع عشر كانت الحضارة الأوربية قد استوت على سوقها، وتقدمت تقدما واسعا في الميدان العلمي والتكنولوجي، وسادت العالم صناعيا، والصناعة في حاجة إلى خامات وأسواق ومجالات لتوظيف رؤوس الأموال، وبلغ التكالب على القارة ذروته في أواخر القرن التاسع عشر، وأخذ صورته الدولية في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥، وكابدت القارة هذا السعار المحموم على الموارد، وانعكس ذلك على رسم الحدود السياسية لإفريقيا في ضوء معرفة محدودة ومطامع واسعة، دون مراعاة لأبسط قواعد التخطيط . ولا نكاد نجد في أية قارة اضطرابا في الحدود يشبه ما في إفريقيا.

وفي أوائل القرن العشرين كانت القارة كلها، إلا في أجزاء محدودة، قد أصبحت في قبضة الاستعمار.

وعندما بدأت الشعوب الإفريقية تفيق لنفسها، وتشعر بكيانها ، وتطالب بحريتها، وتصمم على نيل استقلالها، بدأت قبضة الاستعمار تتراخى مرغمة من إفريقيا. وفي سرعة لا نظير لها، وفي ثورات متتابعة، استقلت معظم أقطارها بحدودها السياسية المضطربة وما تحمل من مشكلات اقتصادية وقبائلية وثقافية، وأخذت الدول الاستعمارية القديمة والدول الطامعة الجديدة والقوى العالمية تبحث لنفسها عن وضع جديد في القارة، يمكنها من إعادة السيطرة عليها.

ونرى اليوم الدول الاستعمارية، وقد جاءت من جديد تتحدث في إشفاق مصطنع عن التخلف الإفريقي، وقد صنعته بأساليبها، وتنادي بالقضاء عليه في صورة جديدة، تسميها رسالة الرجل الأبيض، ويمكن أن نطلق عليها استعمارا جديدا واستعمارا مقنعا، ولكن بعض الدول الإفريقية تنبهت إلى هذا اللون الجديد من الاستعمار، وهي تحاول الاحتفاظ باستقلالها الذى حصلت عليه، فلا تخدعها هذه الصيحات الزائفة .

ونختتم البحث بقول هسلتين: «إن الإسلام حمل إلى إفريقيا الكرامة والمساواة لمن اعتنقوه، وأدى امتزاج السلالات إلى انعدام الحاجز اللوني... وأنتج هذا الامتزاج شعوبا لها منزلتها كالشعوب السودانية وشعوب شرق إفريقيا، قامت دون شك بدور كبير في بناء إفريقيا الحديثة. وقد حمل الأوربيون المسيحية إلى إفريقيا حملها المبشرون الكاثوليك من البرتغاليين والفرنسيين وغيرهم، ثم جاء البروتستانت بعد ذلك. ومع هجرة الأوربيين قامت الفرقة بين الحاكمين والمحكومين على أساس عنصري، ومارس الأوربيون التفرقة العنصرية، وحملوا معهم دينا يبشر بالإخاء بينا احتفظوا لأنفسهم بحقوق شخصية، كانوا يبشرون بالمساواة بين البشر أمام الله ويمارسون أشد أنواع التفرقة، وكان المبشرون من جنس غير جنس رعايا الكنيسة، وكانوا على ارتباط بالإدارة الاستعمارية»(٨).

ويتابع هسلتين دراسة لهذا الموقف ، ويبين أثر الفروق بين المذاهب المسيحية الدينية على بلبلة أذهان الإفريقيين، وكيف أنه في ظل الإسلام كانت الفرص متاحة لأي إفريقي لأن يصبح من الهيئة الحاكمة، بخلاف ما حدث في ظل الاستعمار المسيحى(٩)؟ ومما يجدر ذكره أن العلاقات العربية الإفريقية كان لها أثر كبير في نشر الإسلام في إفريقيا، وإدخال الحضارة إلى شعوبها. ويعتقد كثير من الباحثين أنه لو أتيح وقت أطول أمام تيارات الإسلام والعروبة لكان

مصير إفريقيا اليوم مصيرا آخر، إذ إن الاستعمار الأوربي عمل على إضعاف المقومات العربية والإسلامية في المناطق التي يسيطر عليها. حقيقة إن القرن التاسع عشر شهد حركات إحياء اعتمدت على إنعاش الثقافة العربية ونشر الإسلام بين القبائل الوثنية، إلا أن ذلك القرن أيضا كان عصر الصدام بين القوى الإسلامية من ناحية والاستعمار الأوربي من ناحية أخرى، ولكن القوى الإسلامية افتقرت إلى القوة المادية التي تعينها على مواصلة هذا الصراع، وكانت النتيجة الحتمية هي استسلام المسلمين ونشر الاستعمار نفوذه بين الشعوب الإفريقية.

* * *

الحواشى

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ ص : ٨٩

(٢) انظر كتاب

Freeman-Grenuille , The Medieval of History of the Coast of Tanganika , Berlin 1962.

(٣) ابن بطوطة فى دائرة المعارف الإسلامية.

4 – Pins A., The Swahili Speaking peoples of Zenzibar and the East African Coast (Arab-Shiraz and Swahili) London 1961 and Freeman Grenuille, The East African Coast, Selected Documents from the First to Earlier 19 th Century. London 1962.

(٥) المتفق عليه تاريخيا أن العرب كانوا أول من توغلوا فى هضاب الحبشة لمسافات بعيدة وقد اتخذوا من مجارى بعض الأنهار وسيلتهم إلى ذلك غير أن مما يؤسف له أن معظم سجلات العرب قد مستها يد الضياع أو على الأقل لم تصل إلى أيدينا باستثناء بعض المصنفات العامة والخاصة التي تعرضت للمالك المسيحية وللممالك الإسلامية.

(٦) انظر لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ـ ترجمة عجاج نويهض، وتعليق شكيب أرسلان ـ المجلد الأول. عبدالمجيد عابدين ـ بين الحبشة والعرب من ص: ٨١ ـ ٩٢. يوسف أحمد ـ الإسلام في الحبشة ص: ٢٩.

(٧) لقد كان الغموض يكتنف الحبشة لقرون عديدة، إذ لا تكاد تطالع أحدا من الرحالة العرب أو المسلمين كتب عن التوغل في هذه البلاد. ولعل هذا هو السبب في أن جغرافيي العرب لم يتعرضوا لذكر شئ له قيمة عن بلاد الحبشة. على أنه بتقدم الزمن نجد بعض المصنفات تشير إلى أقاليم الحبشة ومدنها، وإن كانت تفتقر في أحيان كثيرة إلى الدقة والصحة. حتى إذا وصلنا إلى القرنين: الثالث عشر، والرابع عسر الميلاديين نرى ذكرا لأسماء بعض القبائل والأقاليم الحبشية، مثل أمهرة وسهرت، ودامـــوت.

8- Heseltine, M. Remarking Africa, 1961, P. P. 148- 149.

9- Ibid.

المصـــادر

١ ـ الدكتور عبدالعزيز كامل ـ نحو تخطيط علمي لدراساتنا الإفريقية ـ الموسم الثقافي ١٩٦٢. الجمعية الجغرافية ـ القاهرة.

٢ ـ توماس أرنولد ـ الدعوة إلى الإسلام، نقله للعربية حسن إبراهيم ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة ١٩٤٧.

٣ ـ روستو ـ مراحل النمو الاقتصادي ـ نقله إلى العربية برهان دهاني ـ المكتبة الأهلية ـ بيروت ١٩٦٠.

٤ ـ محمد أسد ـ الطريق إلى مكة ـ نقله إلى العربية ـ عفيفي البعكيكي ـ دار العلم للملايين. بيروت ١٩٥٦.

٥ ـ موجز تاريخ إفريقية ـ ترجمة الدكتورة دولت أحمد صادق ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦ ـ المشرق العربي بين الماضي والحاضر ـ دراسة في الجغرافيا الحضارية. للأستاذ الدكتور سليمان حزين ـ المجلة العربية الجغرافية ـ ١٩٦٨.

(7) Worthington G. B. Connaissance Scienhihique de L'Afrique, Berger. Levrault, Paris 1960.

(8) Huzayyin, S. A. , Arabia and the Far East, Soc. Roy. de Creog. d'Egypte, Le Caire, 1942.

(9) Heseltine N. Remaking Amica, 1961.

(10) Coupland , East Africa and Is invaders, Oxford, 1938.

(11) Spencer, Trimingham, Islam in East Africa, Oxford, 1964.

مسالك انتشار الإسلام

دكتور / يوسف ابو الحجاج

حتميات جغرافية بالية :

لا مناص من الاعتراف في البدء بأنني أطرق هنا موضوعا واسعا، لا يتيسر الإلمام بكل أطرافه في بحث أو حتى فى عدة بحوث.

فالعالم الإسلامي دنيا فسيحة الأرجاء، حتى لو قصرنا هذا التعريف على الوحدات السياسية التي يؤلف المسلمون أكثر من نصف سكانها بإجماع التقديرات.

فهو يمتد نحو ١٤٠ درجة طولية: من درجة ١٢٠ الشرقية، شرقي أندونيسيا حتى درجة ١٨ الغربية حيث سواحل السنغال التي هي أقصى أفطار العالم الإسلامي في الإتجاه الغربي.

وهو يمتد نحو ٧٠ درجة عرضية: من أعالي نهر الفولجا عند درجة عرض ٦٠ الشمالية حتى درجة عرض ٦ جنوب خط الاستواء حيث جزيرة زنجبار.

وتلك مساحة هائلة، أكبر مثلا من مساحة كل القارة الإفريقية، وأكبر من مساحة قارتي أوربا وأمريكا الجنوبية مجتمعتين، فهي تبلغ نحو اثني عشر مليونا من الأميال المربعة، ولعلها تصل إلى نحو أربعة عشر مليونا إذا أضفنا إليها المساحة التي تشغلها الأقليات المسلمة في الدول غير الإسلامية.

وفي هذه المساحة يعيش نحو ٨٠٠ مليون مسلم أو يزيدون، مما يجعل الإسلام يحتل المركز الثاني بعد المسيحية من حيث عدد معتنقي الأديان السماوية⁽١⁾.

ويزيد من صعوبة الأمر في هذا البحث، أن يكون الباحث جغرافيا قد اختار «الظروف الجغرافية» محورا لبحثه، فأصبح من المفروض والمتوقع أن يبرز أثر العوامل الجغرافية في تحديد معالم خريطة الإسلام، وأن يتفنن في التدليل على قوة هذه العوامل وفي أعماق نفسه ميل جياش إلى إبراز أهمية تخصصه، أقول: إن ذلك يزيد من صعوبة الأمر بالنسبة لي في هذا البحث، لأن إطالة التأمل في شأن هذه الظروف الجغرافية، والإمعان في تحليلها، قد أقنعني بنتيجة ـ أستأذن في أن أقفز إليها في صدر البحث ـ ألا وهى: أن هذه الظروف لم تلعب في

الحقيقة إلا دورا ثانويا باهتا، وأن انتشار الإسلام إنما تم في الأغلب الأعم رغم أنف الظروف الجغرافية.

وقد كانت بواكير هذا الاستنتاج آراء قرأناها أو درسناها ضمن منهج الجغرافيا الاجتماعية، ونحن طلاب ناشئون، تبهرنا «الحتميات» الجغرافية التي تؤكد دور المكان أي البيئة الطبيعية، وتمعن في هذا التوكيد، إلى الحد الذي يستفز التفكير في الشك فيها، والرغبة في تمحيصها.

حتمية من هذه الحتميات التي لا تصمد في الواقع أمام التمحيص من القول بأن خريطة الإسلام ترتبط إلى حد كبير بالمناطق الجافة، أى بالجهات الصحراوية. ويشفع أصحاب هذه الحتمية دعواهم بخريطة توضح حدود المناطق الجافة، (أي التي يقل مجموع مطرها السنوي عن ٢٥ سنتيمترا) موقعه على خريطة الإسلام.

والخريطة بهذا التصوير قد تغري القارئ فعلا بقبول هذه الحتمية المحبوكة، ولكن قدرا يسيرا من التمحيص ينبئ فورا أن مثل هذه الخريطة لا تعني خريطة الإسلام بالمعنى الجوهري للكلمة، ذلك أن العبرة في تحديد المقصود بالإسلام في هذا المجال هي بعدد المسلمين، وتوزيع هذا العدد في تلك المساحة الكبيرة التي نسلم بالطبع بأن نسبة الصحراء ترتفع فيها عما عداها من أقاليم المناخ. والتركيز على عدد المسلمين وتوزيعهم يبرز على الفور أن الجزء الأكبر من المسلمين إنما يعيشون اليوم في أقطار مطيرة، لا في أقطار جافة أو شبه جافة. فالواقع المستقى من الإحصائيات ـ هو أن نسبة مسلمي الجهات المطيرة تصل إلى نحو٦٦٪ من جملة سكان العالم الإسلامي، وتتركز هذه النسبة العالية في أندونيسيا الاستوائية، وفي آسيا الموسمية، وفي إقليم البحر المتوسط ، وفي إفريقيا خارج الصحراء، وفى بعض أجزاء اليمن المطيرة.

ويرتبط بهذه الحتمية رأي آخر يبديه بعض الكتاب، ولا يقل سطحية عن سابقه، ألا وهو تعليل هؤلاء البعض لتراجع الإسلام عن الشواطئ الأوربية للبحر المتوسط . فهم يقولون: إن الإسلام الذي ظهر في بيئة صحراوية تغلب عليها البداوة ينظرون للزراعة نظرة احتقار، ولما كانت هذه الشواطئ الأوربية من المناطق التي تسود فيها الزراعة والكثير منها زراعة في مناطق جبلية، فإن المسلمين فيها كان نصيبهم الفشل، وبذلك تراجع الإسلام إلى الشواطئ الإفريقية لذلك البحر، حيث الزراعة ـ إن وجدت ـ لا تحتاج إلى مجهود كبير، وحيث تمتد

الصحراء حتى الساحل في بعض الجهات، ووراءه - غير بعيد منه - في جهات أخرى، مما يعني بيئة قريبة من بيئة مهد الإسلام.

ومن الغريب أن يتواتر هذا الرأي في كتب الجغرافية الدينية في إلحاح يلفت النظر، رغم أنه لا يصمد أمام أي تمحيص ولو كان سريعا. فالحقيقة أن العرب في شبه الجزيرة العربية أهل واحات وزراعة، كما هم أهل ارتحال وبداوة، وزراعة المدرجات الجبلية معروفة منذ القدم في اليمن وعسير، والإسلام نشر لواءه راسخا ومكينا في وداي النيل رغم أنه بيئة زراعية بكل معاني الكلمة، والزراعة فيه تحتاج إلى الكثير من الجهد والمشقة. كما توطد الإسلام في الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ، أي في بلاد الشام، حيث لا تختلف ظروف الزراعة فى جوهرها عنها في الشواطئ الأوربية. وفوق ذلك كله فقد ثبت أن الزراعة في تلك الشواطئ الأوربية قد أضمحلت بعد خروج المسلمين، (وقد ارتفع شأنها بعد ذلك في العصر الحديث بعد الثورة الزراعية والصناعية التي شهدتها أوربا، ولكن هذا موضوع آخر). أما الأسباب الحقيقية لتراجع الإسلام من تلك البلاد فلا ترتبط بهذه الحتمية الجغرافيه السطحية التي تنتهي إلى احتقار الإسلام المزعوم للزراعة، ولكن لها أسسها التاريخية والسياسية التي لا تمت بأي صلة لما يزعم هؤلاء الزاعمون.

وحتمية ثالثة ذات طابع نصفه جغرافي ونصفه تاريخي: هي أن انتشار الإسلام لم يكن إلا نتيجة لتذبذب في المناخ، شأنه في ذلك كشأن الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة، كالهجرات الأكادية والكنعانية والآرامية. وهو زعم غير صحيح، لأن هذه الهجرات كانت هجرات عامة، يشترك فيها الرجال والنساء والأطفال، انتقلوا بحيوانهم ومتاعهم، بينما الفتح الإسلامى لم يشترك فيه غالبا إلا الرجال القادرون على الجهاد. وهذا الزعم غير صحيح أيضا في ضوء ما قررته بعض الدراسات الحديثة من أن الجفاف كان قد حل في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام بقرن من الزمان، كما أن الأمطار قبل حلول هذا الجفاف لم تكن على كل حال بالأمطار الغزيرة بحيث تسمح بزيادة كبيرة في السكان، وبالتالي لم يكن هناك سبب يبرر الهجرة بعد حلول الجفاف هروبا من وطأته، مع فرض الصحة في توقيت هذا الجفاف. وفوق ذلك فإن العرب المسلمين لم يستوطنوا البلاد المفتوحة على أي نطاق واسع، ولم يحدث مثل هذا

الاستيطان إلا بعد الفتح بوقت غير قصير. ولسنا إذن إزاء هجرة نسأت عن ضيق الموارد في شبه الجزيرة، والرغبة في احتلال أقطار جديدة بغرض الاستيطان.

تلك هي بعض الحتميات الجغرافية التي وردت في كتير من كتب الجغرافية الدينية، ولكن هذا ليس هو الموضوع الأصيل لهذا البحث، وإنما أورد هنا تقيما لمدى أتر الظروف الجغرافية في عملية انتشار الإسلام. ما هو النمط الذي اتخذته هذه العملية؟ وهل كان لهذه الظروف فعلا ذلك الأتر الذي نجد إبرازا له حتى فيا يكتبه الجغرافيون المسلمون اليوم؟

في الجزيرة العربية:

لنبدأ بمهد الإسلام، بشبه الجزيرة العربية، فهنا منطقة هائلة المساحة، تتنوع فيها الأقاليم الطبيعية، فهي ليست مجرد بادية واسعة الأرجاء، سهلة التضاريس، كما قد توحي بذلك الخرائط العامة، ولكنها تتوزع بين السهول، وبين الهضاب والجبال الوعرة ممثلة في الغرب والجنوب، وفيها البحار الرملية الهائلة، والحرات البركانية المتضرسة. وفيها إلى جانب هذا التباين في ظروف السطح قدر من التباين في الظروف المناخية، وكان فيها وقت ظهور الإسلام ذلك التنافر والتناحر بين السكان، والتعدد في المعتقدات والاتجاهات. ومع كل ذلك فقد كتب للإسلام أن يكتسح هذه المنطقة الفسيحة التى تصل مساحتها إلى مليون ميل مربع بحلول العام العاشر للهجرة، وبذلك اكتسبت شبه الجزيرة وحدة دينية وسياسية لأول مرة، نم أخذت على عاتقها حمل الدعوة إلى ما جاورها من أقطار.

وهكذا بدأت الفتوح الإسلامية المعروفة. والذي ينبغي أن نبرزه أن المسلمين الأوائل قد انتقلوا بهذه الفتوح إلى بيئات جغرافية مختلفة وجديدة عليهم، ولكن النصر كان حليفهم في كل حال. ومن الصحيح أن من بين هذه الأقطار ما كان أرضا تمتاز باستواء السطح، أي بالخلو من العقبات الجبلية الكأداء، ومثل ذلك السهل العراقي، وإن كان هذا السهل لا يخلو من عقبات جغرافية من نوع آخر، تتمتل في كثرة ما به من مستنقعات أو أهوار، وكترة ما به من فروع للأنهار وقنوات للري. ولم يكن انتصار المسلمين في موقعة «القادسية» متلا بالأمر الذي يمكن أن يسند فيه الفضل أو جزء من الفضل إلى الظروف الجغرافية، فقد كانت القادسية يومذاك يحف بها من ناحية الشرق نهر الفرات، وهو نهر كبير لابد من عبوره، ويحف بها من

جانب ميمنة جيش المسلمين مستنقع كبير لا يسهل اجتيازه، وإنما كان نجاح جيش سعد بن أبي وقاص في عبور الفرات والانطلاق شرقا حتى نهر دجلة أمرا يحسب ضد الظروف الجغرافية ولا يحسب نتيجة لها. وكان الأمر كذلك، وبصورة أشد جلاء، في المرحلة التالية حين أصبح نهر دجلة هو الفاصل بين المسلمين والفرس، حين خاطب سعد بن أبي وقاص جنده قائلا: «إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، ويخلصون إليكم إذا شاؤوا في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم». وكان أن عبر جيشه دجله، واستولى على بقية المدائن، وبسط المسلمون نفوذهم على المنطقة الواقعة شرقي النهر حتى بلغوا سفوح جبال زاجروس.

في بلاد الشام :

وكانت الظروف الجغرافية أشد عسرا في الشام. فهنا مناطق جبلية وعرة معقدة التضاريس تخترقها أودية عميقة، ومناخها غير المناخ الذي ألفه العرب في شبه الجزيرة، فهذا مناخ إقليم البحر المتوسط بخصائصه المعينة، ومركبه المحصولي المختلف، ونمط زراعته الخاص. وكان من وراء الروم في هذا القطر البحر المتوسط أو بحر الروم الذي كان لهم فيه أسطول كبير، يصلهم بموارد العتاد والتموين من بلادهم، ولنذكر أيضا أن هؤلاء الروم كانوا أكثر عددا، وأحسن عتادا من المسلمين. ورغم كل ذلك كتب النصر لجيوش المسلمين.

والواقع أن التحليل الجغرافي لموقعة اليرموك يظهر كيف أن ذلك النصر المبين الذي تحقق في تلك المعركة إنما تم رغم الظروف الجغرافية، وبكل جلاء ووضوح. فاليرموك رافد شرقي لنهر الأردن، ينبع من مرتفع في حوران، ويشق لنفسه خانقا ضيقا شديد التعرج في هضبة كلسية يغطيها البازلت، وقبل التقائه بنهر الأردن بنحو ٣٠ كيلومترا يدور في شكل ثنية نهرية، تلتف حول منطقة سهلية ليس لها سوى باب واحد من الجنوب. والمعروف عند الجغرافيين أنه في كل ثنية نهرية يشتد النحت النهري في جانبها الخارجي، بحيث يصبح هذا الجانب شديد الانحدار، على حين يتركز الترسيب وينبسط السطح في الجانب الآخر. وقد عسكر الروم عند حافة الجانب الخارجي ذي الجرف المنحدر نحو النهر، أي نحو الجنوب، فكانوا بذلك في موقع يسهل عليهم منه أن يرموا جيش المسلمين المعسكر في الجنوب، في قلب تلك الثنية النهرية،

ويسهل عليهم الهبوط من ذلك المنحدر، ولكن يشق على المسلمين. ومع ذلك فقد كتب النصر المؤزر للمسلمين، إذ ألهم الله المجاهدين أن تدور جمهرة جيشهم من وراء الروم حتى أحاطوا بهم بحيث يتعذر عليهم التقهقر نحو الشمال، واندفع المسلمون نحوهم فلم يكن أمامه إلا أن يتجهوا نحو خانق اليرموك العميق، نحو جرف الثنية النهرية المنحدر، وحاولت خيولهم الإفلات من رقبة الثنية، أي بهابها، وألهم المسلمون أن يتركوهم يفعلون ذلك، أى أن يفسحوا لهم مجال الفرار، وبذلك تشتت فرسانهم في الفلاة، وعند ذلك انقض العرب على مشاة الروم، فهوى أكثرهم في خانق اليرموك.

هذا إذن مثل لظروف جغرافية كانت مواتية لأعداء المسلمين، لا العكس، مثل للقوة الجبارة التى منحتها للمسلمين عقيدتهم المتوقدة.

(إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(آل عمران: ١٦٠)

في إيران وأفغانستان :

وسنجد الصورة أكثر جلاء وأعظم بهاء في ظروف إيران وأفغانستان ، وفي ظروف بلاد ما وراء النهر. فإيران وأفغانستان تمتاز كلتاهما بوعورة شديدة في السطح، وحدة بالغة في المناخ، والفتح الإسلامي الذي تم فيها بسرعة مذهلة، إنما تم إذن رغم هذه الظروف.

فإيران تضم طائفة من السلاسل الجبلية الوعرة، منها جبال البرز التي تمتد نحو ٨٠٠ ك. م، وتكثر بها الخوانق العميقة والتي قد يصل ارتفاعها إلى نحو ٦٠٠٠ متر فوق سطحالبحر، ومنها جبال زاجروس التي عبرها المسلمون، والتي تمثل حاجزا جبليا هائلا يتألف في الواقع من عدة سلاسل متعاقبة، ويصل عرضها إلى ١٥٠ ـ ٣٠٠ ك م، وتمتد من حدود الأناضول في الشمال حتى منطقة مكران وحدود باكستان، أي ما يزيد على ٢٠٠٠ ك م. وهي في جانبها المطل على العراق تزخر بالخوانق العميقة والسفوح الصخرية الوعرة. ثم هناك المرتفعات الشرقية على الحدود مع أفغانستان. وبين كل هذه الجبال يقع قلب إيران الذي يتألف من هضبة شديدة الجفاف، تتكون من العديد من الأحواض المتفرقة التي يغلب أن يتوسط الواحد منها مستنقع ملحي.

ولا تقل ظروف أفغانستان صعوبة وقسوة، فهناك جبال هندكوس والسلاسل المتفرعة منها، وهي تلي جبال الهيمالايا في الارتفاع، وقد يصل ارتفاع قممها إلى أكثر من ٨٠٠٠ متر فوق سطح البحر، وتشتهر بإقفارها ووحشتها ووعورة ممراتها، وهناك جبال سليمان التي تؤلف في معظم أجزائها الحدود بين أفغانستان وباكستان، ويخترقها ممر خيبر السهير. وهناك هضبة البامير التي تتوزع اليوم بين أفغانستان وباكستان والصين، والتي تسمى «سقف العالم» لسدة ارتفاعها. وإلى جانب السهول الخصيبة التي يتركز فيها السكان، مثل وادي «كابول»، ووادي «هرى رود»، ووادي «هلمند»، تتمثل في أفغانستان الهضاب المقفرة والسهول الصحراوية شديدة الجفاف، مثل صحراء سيستان التي تسمى «صحراء الموت» لسدة جفافها ومشقة عبورها، والتي قال عنها أحد الرحالة الأوربيين: «لم أشهد في حياتي مكانا أكثر إقفارا من هذه البادية، لا شيء فيها على قيد الحياة، لا دار ولا نافخ نار، ولا عودا من الخشب، ولا حتى عظمة جافة تدل على كائن حي فارق الحياة».

هكذا فإن جيوش المسلمين التي فتحت فارس وأفغانستان قادمة من العراق إنما واجهت ظروفا جغرافية معاكسة بكل المقاييس، خاصة وأن ذلك كان أول عهد المسلمين بحرب الجبال. والواقع أنه بعد أن عبر جيش سعد بن أبي وقاص نهر دجلة، ووصل إلى سفوح جبال زاجروس، ساور سيدنا عمر بن الخطاب شيء من الخوف إن عبر المسلمون هذه الجبال، فقال رضي الله عنه: «وددت لو أن بيننا وبين العجم سدا، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد».

ولكن الله تعالى شاء غير ما شاء عمر. والذي حدث هو أن الفرس حشدوا جيوشهم في تلك الجبال، وبخاصة في وادي نهر ديالي الذي يهبط نحو العراق عند حصن منيع هو حصن جلولاء، على طريق القوافل بين العراق وكرمنشاه، وأخذ الفرس ينقضون على العرب من هذا الموقع المنيع، وكان قتال شديد رميا بالنبل وطعنا بالرماح حتى تقصفت، كما جاء في فتوح البلدان، ولكن المعركة انتهت بانتصار المسلمين. ووقف لهم الفرس مرة أخرى في قلب جبال زاجروس، وأشد أجزائها وعورة، وفي موقع أكثر منعة من جلولاء، هو (نهاوند). وهنا التقى العرب بالطبيعة الإيرانية الخالصة، طبيعة جبال شاهقة تزخر بالخوانق السحيقة، وتسودها ظروف مناخية جد مختلفة عما ألفوه في بلادهم، ولكن الله تعالى قيض النصر للمسلمين فى هذه الموقعة

التي سموا انتصارهم فيها «فتح الفتوح» لعظم أهميتها. كذلك كتب لهم النصر في اختراقهم هذه الجبال في الجنوب عن طريق وادي نهر قارون نحو الأهواز، وانتهى الأمر، بأن تم فتح فارس للمسلمين.

ومن إيران تقدم المجاهدون إلى أفغانستان، وعبر ظروف جغرافية بالغة الصعوبة، فوصلوا إلى قلب أفغانستان في عهد سيدنا عثمان بن عفان، حيث استولوا على كابل وهرات وبلخ، واستكمل فتح القطرين بعد حوالي ٣٠ عاما فقط من الهجرة، وإن كانت المناطق الواقعة في جنوب جبال هندكوش لم يصلها الإسلام إلا بعد ذلك بنحو قرنين من الزمان.

في بلاد ما وراء النهر :

وقد يطول بنا الأمر لو حاولنا مزيدا من التفصيل في وصف المسرح الجغرافي الطبيعي لملحمة الفتح الإسلامي لإيران وأفغانستان، أو لانتشار الإسلام في إقليم ما وراء النهر، نهر جيحون «أموداريا» الذي يكون اليوم خط الحدود بين أفغانستان والاتحاد السوفيتي مسافة طويلة.

وهو إقليم فسيح يمتد من بحر قزوين ونهر الفولجا في الغرب إلى حدود منغوليا والصين الغربية في الشرق، ويضم بذلك التركستان بقسميها: الغربي الذي يضم اليوم الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي، والشرقي الذي يشمل بوجه خاص ولاية سيكيانج في الصين، وهي مساحة هائلة تكاد تبلغ ثلاثة أمثال مساحة إيران وأفغانستان وباكستان (الغربية) مجتمعة. وعلى الرغم من بعد هذا الإقليم بعدا شديدا عن مهد الإسلام (نحو ثلاثة آلاف كيلو مترا)، وعلى الرغم من صعوبة ظروفه الطبيعية، فإنه قد شهد الفتح الإسلامى في وقت مبكر من ظهور الإسلام، مما مهد السبيل لانتشار الدين الحنيف بين الناس حتى إنه ماكاد القرن الثاني للهجرة أن ينتهي حتى اكتسب إقليم ماوراء النهر طابعا إسلاميا غاية في الوضوح.

لا مراء إذن في أننا إزاء معجزات سماوية لا ظروف جغرافية، إنما هو حماس الجهاد الصادق في سبيل الله، هو الذي حقق للمجاهدين هذا الإبداع الذي أبدعوه في فن الحرب والقتال، غير هيابين ولا وجلين، وعبر السهل وفوق الجبل، وفي القيظ وفي الزمهرير، وفي التربة الغبراء

وفي الأرض الخضراء على حد سواء. ولا مندوحة إذن من أن نرفض قولا كالقول مثلا بأن الإسلام وقف عند الغابة الاستوائية في إفريقية، أو حالت دونه ودن بلاد «برما» الجبال الشاهقة الواقعة في غربيها، أى جبال «أركان يوما»، أو أنه لم يتغلغل في كل أنحاء الحبشة بسبب وعورة سطحها أو غير هذا وذاك من أقوال تفوح منها رائحة الحتميات الجغرافية، تلك الحتميات التي إذا جازت في معرض الحديث عن النشاط البشري بمعناه العادي العام، فإنها تقصر حتما عن تقديم العلة الصحيحة في انتشار الإسلام هنا وتوقفه عن الانتشار هناك، وإنما تلتمس العلة كل العلة، في الإرادة الإلهية وحدها دون غيرها من أسباب.

(فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن
يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا
يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ) (الأنعام: ١٢٥)

لا إكراه في الدين :

بلى ، ولم تكن الفتوح الإسلامية تعني فرض الإسلام على شعوب جديدة، كما فعلت روسيا في أوربا الشرقية حين فرضت عليها الشيوعية، فلا إكراه في الدين. وإنما كان دورها دور البلاغ الذي جاء اعتناق الدين من بعده بزمن لم يكن قصيرا في كل الأحوال. بل إنه حتى في الشرق الأوسط العربي نفسه لم تصبح غالبية السكان من المسلمين إلا بعد ظهور الإسلام بأكثر من قرنين من الزمان.

وعلى الرغم من أن الكثيرين ممن كتبوا في الجغرافية الدينية من بين الغربيين لا يفطنون إلى حقيقة الأسلوب الذي انتشر به الإسلام، فيتخبطون في هذا المجال أشد التخبط ، فإن منهم من يقترب من هذه الحقيقة أشد الاقتراب، ومن هؤلاء مثلا الدكتور «دافيد صوفر» مؤلف كتاب «جغرافية الأديان»، الذي كان أستاذ الجغرافيا بجامعة «سيراكيوز» في الولايات المتحدة، والذى قام في السنين الحديثة بعدد من الدراسات في الجغرافية الحضاريه للهند وباكستان وسيلون.

فهو يوضح في معرض كلامه عن توزيع الديانات وطرق انتسارها كيف أن هناك فارقا واضحا بين وسائل انتسار المسيحية ووسائل انتسار الإسلام، إذ يقول: «إن انتسار المسيحية قد اعتمد اعتمادا أساسيا على منظمات التبسير، الذي يعتبر نساطا رئيسيا من أنسطة الكنيسة، والذي يمتاز بالدأب والإلحاح، وبأنه يخضع لتنظيم مركزي محكم». كما أنه يوضح دور السيطرة الاستعمارية الأوربية في القرن التاسع عشر في إتاحة الفرصة للتبسير المسيحي لممارسة نساطه في المستعمرات على نحو لم يسبق له مثيل.

أما بالنسبة للإسلام فإن المؤلف يبرز أن العامل الأول في انتساره كان الاتصال العادي بين المسلمين وغير المسلمين، أو ما يسميه (Contact Conversion)، بمعنى التحويل للعقيدة عن طريق الاتصال والاختلاط. وفي ذلك يقول الدكتور صوفر: «في الإسلام لم يكن للتنظيم التبسيري دور سائع، وإنما الذي كان يحدث هو أن معتنقي هذا الدين يحاولون نشر عقيدتهم كأفراد، وذلك بالقدوة الحسنة والانتقال... وقد كسب الإسلام مناطق فسيحة كثيفة السكان بهذه المخالطة الفردية. بهذه الوسيلة انتشر بحرا إلى الأقطار التي تحف بالمحيط الهندي: استقرت أعداد صغيرة من التجار المسلمين في الموانئ التجارية على السواحل غير الإسلامية، وتزاوجوا مع أهل هذه الأقطار، ومضى الزمن، ووسعوا مجال نشاطهم التجاري ومجال الإسلام في الداخل. ومعظم المسلمين في أندونيسيا والملايو وجنوب الفلبين، بالإضافة إلى المجموعات الأصغر في جنوب الهند وسيلان، وفي جزر المالديف، إنما هم من نتاج هذه العملية، عملية التحويل للعقيده بالمخالطة».

وهو يبرز في مواضع أخرى دور أهل الورع والتقوى من المسلمين في نشر الدين في البنغال وجاوة وغيرهما، كما أنه ينبه إلى الخطأ الذي يقع فيه بعض المؤلفين، وهو أن الجهاد يعني الدعوة للإسلام بحد السيف، «بمعنى الخيار بين الإسلام أو القتل»، موضحا أن القرآن نص بصراحة على ألا إكراه في الدين[٢].

ولا أعتزم هنا أن أستعرض ما قاله أمثال هذا الأستاذ من المؤلفين غير المسلمين الذين بعدوا عن التعصب الأعمى وتشويه الحقائق، كالأستاذ «هستون سمث» في كتابه «ديانات الإنسان» حيث يحاول مخلصا شرح الإسلام ونمط انتشاره بين العالمين، أو الأستاذ «بيير دفونتين» في كتابه «الجغرافيا والدين»، أو الأستاذ «فرناو» في كتابه «مسيرة المسلمين» أو غير

هؤلاء من الباحثين. ولكنني أود أن أختم هذا البحث بإبراز ملامح ثلاثة أخرى في نمط انتشار الإسلام، وهي ملامح لم تجد ما تستحقه من إبراز وتوكيد عند الجغرافيين، مسلمين وغير مسلمين.

أولا ـ حملة الدعوة عرب وغير عرب :

من هذه الملامح أن نشر الإسلام لم يكن حكرا للعرب ، فقد أسهم في نشره أقوام عديدة من المسلمين الجدد، أسهم الفرس في نقله إلى أفغانستان، وأسهم الفرس والأفغان في نقله إلى بلاد ما وراء النهر، وحمل أهل تركستان أنفسهم راية الدعوة، بل إن منهم من اشتركوا في عملية الفتح، سواء كانوا من أهل بخارى أو خوارزم، أو غيرهم ممن اشتركوا مثلا في جيش قتيبة بن مسلم. وبعد أن تم إسلام الأتراك الغربيين تبنوا حركة الجهاد بين جيرانهم من العناصر التركية الشرقية. وبعد أن أسلم هؤلاء أتيح لهم فيما بعد أن يحملوا الإسلام بدورهم إلى بلاد الأناضول. وتتكرر القصة بعد ذلك فيحمل أهل الأناضول الإسلام إلى البلقان حتى الدانوب، كما تتكرر في إفريقيا وفي الشرق الأقصى. الكل يتسابقون في حمل راية الدين، في «سباق تتابع» رائع إن صح التمثيل.

وما أكثر الحتميات الجغرافية التي تسقط عند إبراز هذه الحقيقة الأصيلة في نمط انتشار الإسلام، ما أسخف الربط مثلا بين البيئة الجغرافية للجزيرة العربية وبين خريطة الإسلام، ذلك الربط السطحي الذي ينطوي على افتراض ساذج وخبيث في الوقت نفسه، وهو أن رسم تلك الخريطة كان من صنع المسلمين العرب وحدهم، مع تجاهل مقصود لدور سائر المسلمين من فرس وأفغان وترك وبربر وسودان وغير هؤلاء وهؤلاء من دعاة، ابتغوا وجه الله ونشر نور الدين بين العالمين.

ثانيا : للناس كافة :

والملمح الثاني هو أن الإسلام حيث ساد في إفريقيا أو في آسيا إنما انتشر بين شعوب شتى في سلالاتها، وفي لغاتها، وفي تقاليدها وعاداتها، فضلا عن معتقداتها.

فإيران مثلا تجمع بين الفرس والأكراد والبالوخيين والأرمن. وفي الشمال، في جبال زاجروس، جماعات تتكلم أشكالا من اللغة التركية مثل الأذربيجانيين والإيرانيين والتركمان والقاشقي، ثم هناك الآسوريون الذين يتكلمون الآرامية ثم البراهوي وغيرهم. وفي أفغانستان لا تقل الصورة تعقيدا عن ذلك، فهناك البشتون (٦٠٪) والتاجيك والأوزبك والهزارة والتركمان والقرخيز والبلوتشي أو البلوخي وغيرهم. ويكفي أن نذكر أن أفغانستان اليوم بها نحو ٢٠ لغة. ومثل ذلك يقال عن إقليم ما وراء النهر وعن الهند وأندونيسيا، كما يقال عن أقطار إفريقيا. وقد وجد الإسلام طريقه بين كل هذه الشعوب المختلفة، لم تقف دونه حائل من سلالة أو لغة أو تقاليد موروثة أو تراث حضاري قديم، وانصهرت جميعها في بوتقة الإسلام والحضارة الإسلامية. وذلك في كل نظرة علمية حقة عنصر أساسي من عناصر نمط انتشار الإسلام، لا مندوحة لأي باحث منصف من تقديره حق قدره وإعطائه نصيبه من الاهتمام، وبغض النظر عن اصطدامه «بالظروف الجغرافية».

ثالثا : اقتناع لا انبهار :

أما الملمح الثالث الذي نرى أنه جدير بأن تسلط عليه أضواء الباحثين، فهو أن اعتناق الإسلام إنما نتيجة الاقتناع ووليد المقارنة، لا نتيجة للانبهار بشيء جديد. ومن الخطأ أن نعتقد ـ كما يريد بعض المؤلفين لحاجة في أنفسهم ـ أن الإسلام حين وصل إلى إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى مثلا وجد قوما من البسطاء البدائيين، يعيشون في عزلة لا يدرون من أمر الدنيا من حولهم شيئا، يذكرهم، وأنهم كانوا بذلك «لقمة» ميسورة للإسلام، فأهل إفريقيا الغربية كانت لهم ممالك ونظم حكم قبل العهد الإسلامي مثل مملكة «الماندنجو» الكبيرة التي كانت تمتد في سيراليون وما والاها شرقا، ومثل مملكة «السونفاي» التي كانت أول من أسلم من أهل النطاق السوداني (في فجر القرن الخامس الهجري). وكانت هذه الجهات على اتصال بإقليم البحر المتوسط وما وراءه، منذ دخول الإبل إلى الصحراء الكبرى. وكانت المسيحية قد وصلت إلى سواحل شمال إفريقيا، وعرف عنها هؤلاء السود، ومع ذلك فإنه لم تجد أي استجابة في نفوسهم. وكان للفرس حضارتهم القديمة، وأفغانستان كانت مهدا لحضارة قديمة أيضا عاصرت الحضارة الفرعونية، حيث كانت أفغانستان تسمى «أريانا» وكلتاهما عرفتا العديد من الثقافات الأجنبية: الثقافة الإغريقية بعد الإسكندر، والثقافة الهندية قبل الميلاد أيضا، ثم

الثقافة الصينية ومعها عقيدتها البوذية. والإسلام هنا دخل إذن القلوب والعقول عن طواعية واقتناع، وفي ضوء مقارنة بينه وبين معتقدات أخرى متنوعة، استبدل فيها الناس الذي هو خير بالذي هو أدنى، ولم يكن نجاحه أبدا وليد مجرد الانبهار بالجديد، كما أنه بالقطع لم يكن وليد سيطرة سياسية أو رهبة عسكرية. ومثل ذلك يقال عن آسيا الوسطى، أي بلاد ماوراء النهر، فقد تعرض هذا الإقليم قبل الإسلام لتيارات ثقافية واردة من إيران أو من الصين، وسادت بذلك الزردستية والبوذية، كما عرفت المسيحية عن طريق المبشرين بها في ذلك الحين، وسرعان ما أدرك الناس الفارق بين مبادئ الإسلام الحنيف وبين تلك الزردستية التي أحلت الزواج بالمحارم، وجعلت المرأة في منزلة الرقيق، أو بينه وبين البوذية أو بينه وبين المسيحية. ولم يلبث أهل الإقليم - والذين اعتبروا مواطنين في الدولة الإسلامية تمنحهم كل الثقة، وتوليهم الوظائف، ولا تفرق بينهم وبين العرب في ذلك - لم يلبثوا أن حملوا راية الدعوة في حماس لا يقل عن حماس غيرهم من الدعاة، سواء كان هؤلاء الدعاة من الولاة والموظفين، أو من الأسر العربية التي استوطنت الإقليم واختلطت بأهل البلاد، أو من الفقهاء والمتصوفين العرب.

ونحن إذن - كتابا ومفكرين - مطالبون بألا نبالغ في وصف الكفار قبل الإسلام بضيق الأفق وضحولة الثقافة، ناهيك بالبدائية، والأجدى أن نبرز ما كانوا قد بلغوه من تقدم في المجال الحضاري، وبالتالي ما بلغوه من مقدرة على التفهم وحسن الإدراك، والمقدرة على التمييز بين الطيب والخبيث.

ولكن لعلي هنا قد بعدت عن مجال تخصصي المحدود، وتطرقت إلى ميدان الدعوة والدعاة، فلأعد إلى بيتي الذي ألم به، ولأخاطب زملائي من الجغرافيين، مختتما بقولي: إننا مطالبون بأن نبرز حقيقة لا مراء فيها، هي ان الظروف الجغرافية - رغم اصالة دورها في التحكم في نشاط البشر - يتضاءل قدرها كل التضاؤل في تفسير خريطة الأسلام. بل إننا مطالبون - على العكس - بأن نبرز كيف أن هذا الدين الحنيف يشع ضياؤه حيث يشع رغم الظروف الجغرافية.

الحواشي

(١) وإن كان هذا الترتيب حديث العهد نسبيا، فلم يتحقق المركز الأول للمسيحية إلا بعد توسع أوربا في العالمين الجديد والقديم، وخاصة بعد الثورة الصناعية التي ارتبط بها ثورة سكانية في أوربا، أي زيادة في عدد المسيحيين، زيادة طبيعية في المقام الأول، وليست وليدة انتشار المسيحية بين الناس.

(٢) يترجم الأستاذ صوفر هذا المعنى كالآتي: Let there be no compulsion in religion.

* * *

المصـــادر

١ ـ البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، القاهرة ١٣١٨ هـ .

٢ ـ جمال حمدان ، العالم الإسلامي المعاصر، القاهرة ١٩٧١ .

٣ ـ حسن أحمد محمود، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، دار النهضة العربية، ١٩٦٨.

٤ ـ عباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية ، القاهره ١٩٧٠.

٥ ـ محمد أحمد حسونه ، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية ، القاهره ١٩٦٠.

٦ ـ يوسف أبو الحجاج ، العالم الإسلامي: مكانته في الاقتصاد العالمي وارتباطها بالأطماع الاستعماريه، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس، المجلد الخامس ١٩٥٩ ص ٥٩ ـ ١١٧.

7 - David Sepher, Geography of Religions, 1967.

8 - Deffontaine , P. Geographie et Religion, Paris, 1948.

9 - Fernau , W., Molems on the Marsh, London, 1955.

10 - Sazard, H. W., Atlas of Islam History , N. Y. 1951.

11 - Pierre Rondot, l'Islam et les Musulmans d'Aujourd'bui, Paris, 1960.

12 - Xavier de Planhol, Le Monde Islamique, Paris, 1957.

اثر الضوابط الجغرافية فى انتشار الإسلام وتوزيع أقلياته

دكتور / سليمان خاطر

«تحديد وتعريف» :

تحتل القارة الإفريقية مكانة بين قارات العالم من حيث مساحتها، وعدد سكانها، وثرواتها الطبيعية، وإمكانياتها الاقتصادية، بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي. فتعد إفريقيا ثانية قارات العالم مساحة، إذ تزيد مساحتها على ٢٢٪ من مساحة اليابس، فتبلغ ٢٩٫٣ مليون ك. م مربع (١١٫٧ مليون مربع)، وهي بذلك تعادل مساحة القارتين الجنوبيتين الأخريين: أستراليا، وأمريكا الجنوبية(١). ويقتسم مساحة القارة عدد من الوحدات السياسية الإسلامية وغير الإسلامية(٢)، تشغل الدول الإسلامية ـ عام ١٩٧٣ ـ (إفريقيا الإسلامية) ٦٥٫٥٪ من مساحتها، وهذه تعادل ٦٠٪ من مساحة الدول التي تكون العالم الإسلامي(٣)، وتحتل مجموعة دول إفريقيا الإسلامية جزءا من الكتلة الإسلامية المتصلة بالبنيان عبر قارتي إفريقيا وآسيا ـ التي تشغل الغالبية العظمي من العالم الإسلامي ـ ممتدة في العالم القديم من المحيط الإطلنطي غربا إلى باكستان شرقا. ومن ثم تمتد إفريقيا الإسلامية في النصف الشمالي من القارة من المحيط الإطلنطي غربا إلى البحر الأحمر شرقا ومن البحر المتوسط شمالا حتى الحدود الجنوبية للدول الإسلامية والشمالية للدول غير الإسلامية في إفريقيا بما يطلق عليه خط حدود أرض الإسلام في القارة سنة ١٩٧٣م.

إفريقيا هي القارة التي تلي آسيا مباشرة في كثرة السكان المسلمين. ففي عام ١٩٥٠م بلغ سكان القارة ١٩٨ مليون نسمة، من بينهم ٤٢ مليون مسلم حسب تقدير «وسترمان»(٤) (D. Westerman)، يشكلون ٢١٫٢٪ من جملة سكان القارة، بينما تشير الإحصاءات أن بها نحوا من ٦٠ مليونا من المسلمين، يمثلون ٣٠٫٣٪ من جملة سكان القارة الذين وصلوا إلى ٢٤٠ مليونا عام ١٩٦٠، من بينهم ١١٥ مليون مسلم، يمثلون ٤٥٪ من جملة سكانها، وإلى ٢٤٥ مليونا عام ١٩٦٦، في حين قدر أن بها ١٥٥ مليونا من المسلمين عام ١٩٦٨، يمثلون ٥٧٪ من سكانها(٥). وتقدر الأمم المتحدة أن سكان إفريقيا وصلوا إلى ٣٠٣ مليون نسمة (تقريبا) عام ١٩٧٣، يشكلون ٨٪ من مجموع سكان العالم، وتقدر المصادر أن من بينهم ٢٣٩ مليون مسلم، يشكلون ٦٠٫٥٪ من سكان القارة، ويمثلون ٢٦٫٥٪ من جملة مسلمي العالم(٦). ومن ثم

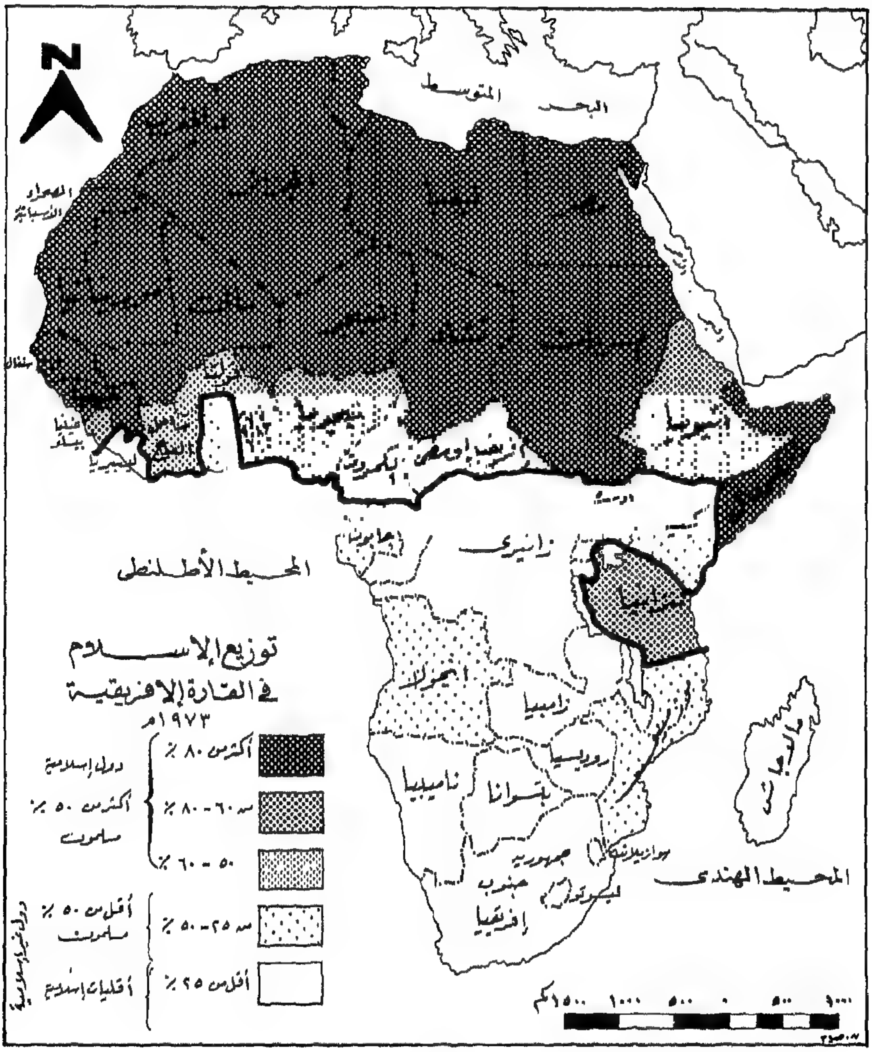
N
البحر المتوسط
المغرب
الصحراء الأسبانية
ليبيا
مصر
السنغال
غينيا بيساو
ليبيريا
أثيوبيا
زائيري
الجابون
تنزانيا
أنجولا
زامبيا
روديسيا
ناميبيا
بتسوانا
جمهورية جنوب إفريقيا
سوازيلاند
ليسوتو
ملاجاشي
المحيط الأطلنطي
المحيط الهندي
توزيع الإسلام في القارة الإفريقية ١٩٧٣م
أكثر من ٨٠ ٪
من ٦٠ - ٨٠ ٪
٥٠ - ٦٠ ٪
دول إسلامية أكثر من ٥٠ ٪ مسلمون
من ٢٥ - ٥٠ ٪
أقل من ٢٥ ٪
أقل من ٥٠ ٪ مسلمون
أقليات إسلامية
دول غير إسلامية
١٥٠٠كم ١٠٠٠ ٥٠٠ ٠ ٥٠٠ ١٠٠٠

شكل (١)

يتضح أن هناك زيادة مطردة في أعداد المسلمين بالقارة ونسبتهم من جملة سكانها مع زيادة عدد السكان. أما عن التوزيع فيشبه نمط توزيع السكان في إفريقيا معظم القارات الأخرى، إذ يتركز معظم السكان على الأطراف، ثم يقل في الداخل. والصورة الواضحه هي عدد السكان في الوحدات السياسية، فإفريقيا هي قارة الدول الصغيرة بل القزمية، ويتضح ذلك جليا إذا استعرضنا عدد السكان في كل وحده مقارنا بالمساحة داخل إطار حدودها السياسية.

مداخل الإسلام ومسالك انتشاره في إفريقيا :

قبل دراسة الأقليات الإسلامية في إفريقيا لابد من إلقاء نظرة سريعة على المداخل التي عبرها الإسلام وطرق انتشاره التي سلكها إلى داخل القارة حتى وصل إلى الحدود الحالية، وهنا لابد من الرجوع إلى العمق الزماني الذي يصل إلى أكثر من أربعة عشر قرنا، وإلى المجال المكاني الذي يتخطى القارة ليربطها بمهد الإسلام الأول في الجزيرة العربية. فلقد نشأت الصلات بين شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا منذ قبل الإسلام، وقامت معظم تلك العلاقات على تبادل التجارة(٧). وهناك أكثر من دليل على قدم الإسلام في غانا بغرب إفريقيا في زمن مبكر قبل دور المرابطين (القرن ١١م)، من بينها الصلة التجارية القديمة بين بلاد السودان والبحر المتوسط ، واحتكار التجار المسلمين لها(٨).

دخل الإسلام القارة الإفريقية قبل أن يعرف العالم الغربي أو الشرقي كيف يدخل هذه القارة، وقام الإسلام فيها بدوره الحضاري في أقطارها المختلفه الموقع. وأن الديانة الكبرى اليوم السائدة في إفريقيا هي «الإسلام»(٩) ومع ذلك فإن إفريقيا المسلمة لاتزال مجهولة لدى العالم العربي والإسلامي(١٠)، وبخاصة من الناحية الإحصائية البحتة، ومن ناحية التوزيع والانتشار. وهكذا دخل الإسلام في عصوره الأولى هذه القارة الجبارة، فهو أول دين يدخلها، والعرب المسلمون أول الأقوام التي فتحتها وحملت إليها الحضارة الإنسانية(١١).

هذا عن الجانب الزماني، أما عن المجال المكاني فمن الجزيرة العربية القلب والنواة المركزية للإشعاع في العالم خرجت محاور إشعاع الإسلام الرئيسيه في كل الاتجاهات إلى العالم، والتي بلغت ثمانية، منها ثلاثة إلى إفريقيا(١٢)، ولكل منها محاور فرعية ثانوية، وبالتالي تملأ الفراغات البينية، وتسد الثغرات الجانبية.

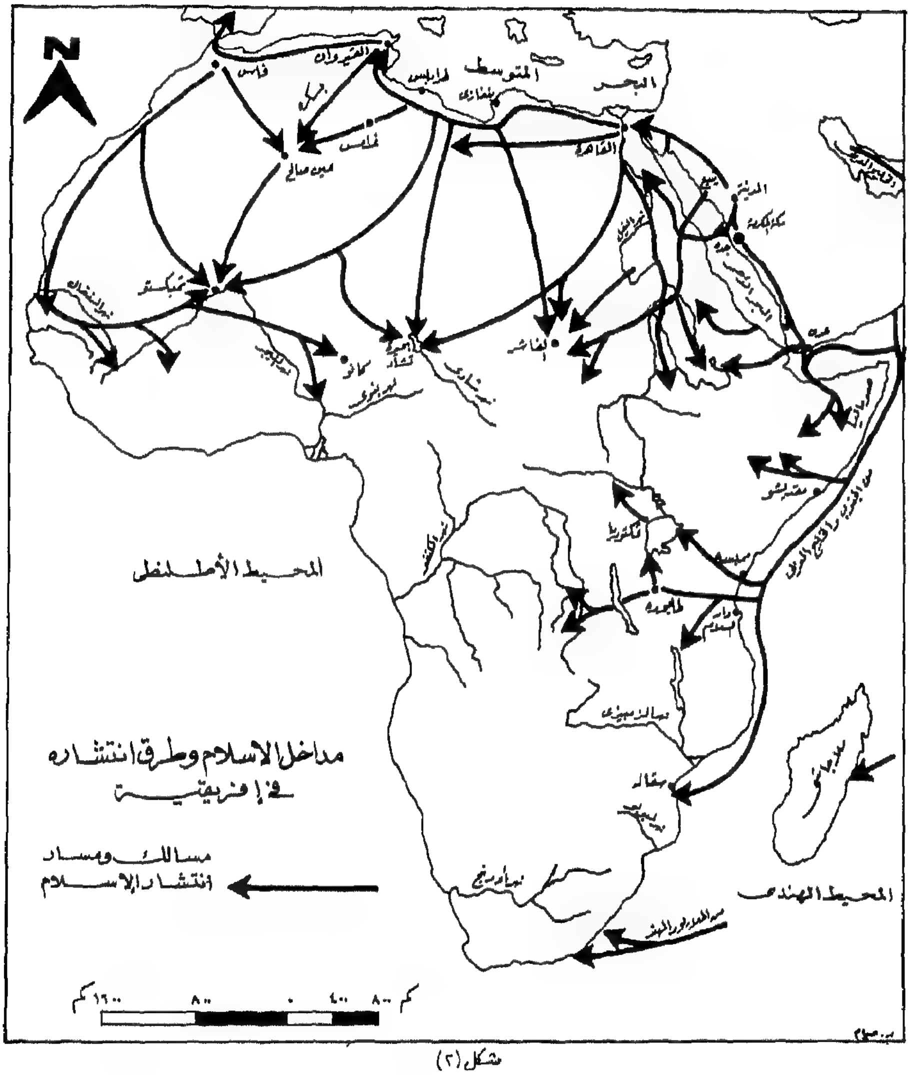
N
فاس
القيروان
طرابلس
بنغازي
البحر المتوسط
القاهرة
غدامس
عين صالح
تمبكتو
نهر السنغال
كانو
بحيرة تشاد
نهر بنوي
نهر شاري
الفاشر
نهر النيل
ينبع
المدينة
مكة المكرمة
جدة
البحر الأحمر
الصومال
مقديشو
ممباسه
كلوة
دار السلام
نهر الكونغو
نهر الزمبيزي
سفالة
مدغشقر
نهر أورنج
المحيط الأطلنطي
المحيط الهندي
مداخل الاسلام وطرق انتشاره في إفريقية
مسالك ومسار انتشار الإسلام
كم ٨٠٠ ٤٠٠ ٠ ٨٠٠ ١٦٠٠ كم

شكل (٢)

لقد كان دخول الإسلام لإفريقيا ـ من الجزيرة العربية ـ على طول جهة تمتد من ساحل البحر المتوسط شمالا حتى خط عرض ٢٠° جنوبا في موزمبيق الحالية، كما ارتبط هذا الامتداد بعوامل جغرافية عديدة(١٣). ولقد نفذ من هذه الجهة إلى قلب القارة عبر مداخل ثلاثة، سلكها العرب في هجراتهم إليها، منها مدخل بري يتمثل في شبه جزيرة سيناء(١٤)، تلك الصلة البرية الوحيدة بين شبه الجزيرة العربية والقارة، ومدخلان بحريان: أحدهما عبر البحر الأحمر وباب المندب أقرب نقطتين بين شاطئيها، والثاني الساحل الشرقي الإفريقي عبر المحيط الهندي.

ولم تتوقف حركة الإسلام في إفريقيا عند هذه المداخل، كما لم ينحسر زحفه منذ دخوله حتى الآن. ولذا يمكن القول بأن إفريقيا لازالت من المناطق التي يتقدم فيها الإسلام، بل هي في الواقع أهم مجالات انتشار الإسلام رغم ما يلقى فيها من عقبات.

وقد أخذ الإسلام في انتشاره داخل القارة طرقا ومسالك مختلفة، تبدأ من المداخل الثلاثة السالفة، ويمكن تتبعها في داخل القارة زمنيا(١٥) ومكانيا(١٦) وجغرافيا. نوجزها جميعا فيما يلي:

أخذ الإسلام ـ زمنيا ـ ينتشر في إفريقيا منذ القرن السابع الميلادي، فقد دخل مصر ثم المغرب مع الفتح العربي، ثم انتشر انتشارا عظيما منذ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري). وقد ذكر «ترمنجهام» بأن انتشار الإسلام في القارة الإفريقيه تميز بأربع فترات زمنية أو مراحل تاريخية متتابعة(١٧) تمثل مدى عمق انتشاره في القارة، كما أنها تمثل مراحل مختلفة من الإسلام في حياة شعوب القارة.

أما مكانيا وجغرافيا فيمكن تتبع طرق الانتشار في القارة إذا قسمت إلى مناطق تعد محاور انتشار الإسلام فيها.

ـ **شمال شرق إفريقيا أو حوض وادي النيل:** وهو ما يسمى بالمحور النيلي، الذي يبدأ من مصر ـ أهم المناطق المؤثرة في انتشار الإسلام في القارة ـ عبر الصحراء الشرقية إلى بلاد النوبة، ومنها إلى الجنوب، حيث غطى السودان الشمالي، لينفذ إلى قلب السودان، حيث اندفع التيار الإسلامي نحو الغرب إلى كردفان ودار فور في غربي السودان، ومنها إلى ما جاورها غربا في سودان السافانا حتى منطقة بحيرة تشاد، حيث النطاق الرعوي الكبير المتصل بغرب إفريقيا.

ولقد استفاد الإسلام من موقع سودان وادي النيل في إفريقيا الإسلامية، فهو بحكم امتداده السياسي إلى خط عرض ٥ر٣° شمالا يملك ـ عمليا ـ أكبر عمق إسلامي في قلب القارة. ولازالت الرحلة بين غرب إفريقيا والأراضي المقدسة بالحجاز عن طريقه من الظاهرات الرئيسية لحركة السكان في القارة حتى الوقت الحاضر(١٨).

لكن وقف المد الجنوبي للإسلام عن التقدم عند بحر العرب، ولم يصل إلى المنابع الاستوائية من هذا الاتجاه الشمالي الجنوبي، ويرجع ذلك إلى عامل جغرافي يتمثل في وجود المستنقعات في منطقة السدود ـ في السودان الجنوبي ـ التي حالت دون انتشاره.

ـ شمال غرب إفريقيا : وهو ما يطلق عليه المحور الساحلي أو المحور الغربي، الذي يبدأ من مصر إلى المغرب على طول ساحل البحر المتوسط ، حتى وصل إلى المغرب ومنها إلى غرب القارة، ليغطي كل شمال إفريقيا بالإسلام في غضون القرن العاشر الميلادي.

فمن المغرب ـ التي كان لها دور كبير في نشر الإسلام بإفريقيا وخاصة انتشار الإسلام في الصحراء وفي حوض السنغال ـ اتخذ الإسلام خطوط انتشار رئيسية، كان أهمها نحو الجنوب في الصحراء وما وراءها جنوبا في غرب إفريقيا، حتى بلغ أطراف الغابة في غرب ووسط القارة. واتخذ الإسلام في اختراقه وتوغله القارة أكثر من طريق، من بينها: من طرابلس جنوبا إلى بحيرة تشاد، ومن جنوب تونس إلى «كانو» وتشاد، ومن جنوب الجزائر إلى بلاد «الهوسا» وشمال نيجيريا، ومن جنوب مراكش إلى مصب نهر السنغال وثنية النيجر حيث قامت مدينة «تمبكتو»(١٩). فالإسلام لم يقف عند حدود الصحراء الكبرى، وإنما تعداها إلى إقامة عشر دول إسلامية خلف هذه الصحراء في وقت مبكر(٢٠). وهنا نجد أن طرق التجارة التي تبدأ من إفريقيا الشمالية متجهة صوب الجنوب عبر واحات الصحراء إلى المدن الكبرى في النطاق السوداني قد لعبت دورا كبير في نشر الإسلام من مراكزه في شمال إفريقيا إلى غرب القارة(٢١).

ولقد استدار المحور الغربي من المغرب جنوبا مع ساحل المحيط الإطلنطي على حواف الصحراء الكبرى (ق/١٠ ـ ١١م) ليصل إلى حوض السنغال وسافانا السودان الغربي ابتداء من القرن ١١ ـ ١٣م، حتى تغلغل في حوض نهر النيجر وبلاد غربي إفريقيا. وكان هذا

أهم الطرق، إذ به تم الإسلام دورته عكس عقارب الساعة على طول محور السافانا الرئيسي ليلتقي في النهاية بالمحور النيلي السابق عند بحيرة تشاد حوالي القرن ١٣م.

وبهذا كان للمؤثرات الإسلامية في غرب إفريقيا أربع اتجاهات رئيسية: اتجاه شمالي يربطه بالمغرب، واتجاه شرقي يربطه بالسودان، واتجاه شمالي شرقي يربطه بمصر، ثم اتجاه جنوبي شرقي يربطه بشرق إفريقيا.

ـ شرق ووسط إفريقيا : وهو محور شرق إفريقيا ابتداء من القرن الإفريقي ـ بل السودان ـ شمالا حتى مدينة «الرأس» جنوبا . وهنا ثمة فترتان لانتشار الإسلام(٢٢): الأولى هي فترة قيام مجتمع إسلامي إفريقي جديد على الساحل والجزر المقابلة في شكل المراكز التجارية في المدن، والثانية فترة انتشار الإسلام من الساحل وتلك الجزر إلى الداخل. كما نشأت في وداي النيل مراكز للتجارة كان لها شأن عظيم في نشر الإسلام في شرق إفريقيا على الخصوص عبر الطرق التجارية التي تصل وادي النيل بشرق القارة. ويذكر «يوسف فضل» أن الإسلام دخل إلى السودان من الشرق، وأن المسلمين استطاعوا دخول السودان عبر ثلاثة طرق رئيسية(٢٣).

لقد عبر عرب الجنوب إلى شرق السودان والقرن الإفريقي والصومال، ثم منه إلى زنجبار (ساحل الزنج)، ومنه جنوبا على طول الساحل الشرقى الإفريقي في الزمبيزي ومدغشقر منذ القرن العاشر الميلادي، ولم يتقدم جنوبا بعد هذا إلا حديثا في القرن الماضى (١٩م) على أيدى الهنود المسلمين المهجرين إلى جنوب القارة، حيث وصلوا به إلى مدينة «الرأس». وعندما وفد البرتغاليون إلى شرق إفريقيا في أواخر القرن ١٥م وجدوا المسلمين متمركزين في المدن الساحلية وفي كل مكان من الساحل، وفي الداخل من الساحل الشرقي للقارة(٢٤)، ثم ازداد نشاطهم التجاري واتسع بين الساحل والداخل في القرن ١٧م، وبخاصة في القرن ١٩م.

وتجدر الإشارة إلى أن مراكز شرق إفريقيا ـ بعامة ـ كانت على صلة بالمراكز الحضارية الإسلامية في غرب إفريقيا عن طريق وسط القارة(٢٥). وقد ضعف هذا المد الإسلامي بعد سيطرة الاستعمار البريطاني على شرق إفريقيا.

والخلاصة : أننا نجد أن المحورين النيلي والغربي يرسمان قوسا كبيرا يحيط بالصحراء

الكبرى بعد أن انتشر الإسلام في غرب إفريقيا، ولكن هذا الامتداد وقف عند حدود العقبات الجغرافية الطبيعية كمنطقة السدود في جنوب السودان ونطاق الغابات في وسط وغرب القارة، وهذه وقفت في وجه استمرار امتداد طريق ومسالك الإسلام في القارة تجاه جنوبها. أما المحور الشرقي فقد امتد من الساحل ليصل إلى قلب القارة دون أن تواجهه عقبات طبيعية جغرافية تعوق تقدمه، ولذا التقى مع المحاور السالفة لكن لم يمتد إلى جنوب القارة في داخلها، وإنما على ساحلها الشرقي. ومن ثم ظل جنوب القارة يحيط به مجموعة من العقبات الطبيعية الجغرافية والتاريخية والسياسية، حالت دون تقدم طرق انتشار الإسلام إلى جنوب القارة.

الأقليات الإسلامية في إفريقيا :

توجد الغالبية العظمى من المسلمين في قارات العالم القديم (آسيا، إفريقيا، أوربا)، وبخاصة قارتي آسيا وإفريقيا، حيث تشمل الأولى وحدها نحو ٧٠٪ (تقريبا) من عدد المسلمين في العالم، بينما تضم الثانية أكثر من ربع مسلمي العالم، وذلك حسب تقدير عام ١٩٧٣م.

ويقدر بأن عدد المسلمين قد تضاعف في إفريقيا في مدى عشرين عاما (بين عام ١٩٣١، ١٩٥١م)، وجزء كبير من هذا النمو يرجع بلا شك إلى الزيادة الطبيعية للسكان، ولكن هذا وحده لا يمكن أن يفسره كله، فهي طفرة لا تفسرها الزيادة الطبيعية وحدها.

كما يقدر عدد المسلمين في إفريقيا ـ في الوقت الحاضر ـ بأكثر من ضعف عدد سكان الدول العربية في مجموعهم (تقريبا)، وهذا يجعل إفريقيا أكثر القارات نسبة في عدد مسلميها إلى جملة سكانها، وإن كانت أعداده المطلقة لا تزيد عن منطقة كإندونيسيا مثلا(٢٦). لكننا نجد أن الكثرة العددية لاتزال للإسلام، وأن القارة إسلامية. أفلا يحق لنا أن نطلق عليها القارة المسلمة..؟؟ وأن المستقبل للإسلام في هذه القارة...؟؟ ومن ثم تقرر في مؤتمر «مقديشيو» أن إفريقيا القارة المسلمة(٢٧).

مساحة الدول الإسلامية : لدراسة الأقليات الإسلامية بالقارة الإفريقية لابد أولا أن نحدد رقعة الإسلام بها، ونقصد به تحديد أرض الإسلام مساحة وموقعها من القارة وتوزيع

الدول داخل حدودها وأعدادها وتغيرهـا على مدى فترة من الزمـن ـ في ضوء التـواريخ الإحصائية المستخدمة للدول الإسلامية وأعداد المسلمين بها ـ وأيضا إلقاء نظرة إلى توسع الإسلام جنوب الصحراء.

وذلك لنستخلص منها موقع الأقليات الإسلامية وأعدادهم ونسبتهم إلى جملـة سكان الدول التي يقيمون فيها ومن مجموع مسلمي القارة.

إن الدول الإسلامية في إفريقيا تشكل كتلة متصلة البنيان في النصف الشمالي من القارة، كما تعد الدول الإسلامية في إفريقيا سطحا حضاريا عظيم الامتداد فوق هذه الكتلة من اليابس، يشمل الكثير من الوحدات السياسية التي يدين معظم سكانها أو بعضهم بالدين الإسلامي، كما تغطي ٦٥٫٥٪ من جملة مساحة القارة (تقدير عام ١٩٧٣م). وبمراجعة حدود أرض الإسلام في القارة نجد أن الحد الجنوبي أو بمعنى آخر الجبهة القارية لأرض الإسلام في إفريقيا هي المجال الرئيسي المتبقي الذي ينتشر فيه الإسلام. ولذا يمكن القول بأن «كتلة الإسلام» في إفريقيا تتحرك نحو الجنوب، ومن هذه الزاوية تبدو حيوية إفريقية المدارية (جنوب الصحراء) بالنسبة للإسلام.

وهناك عوامل كثيرة طبيعية وبشرية وتاريخية واقتصادية ساعدت على اتصال أجزاء الكتلة الإسلامية الإفريقية بعضها ببعض، فالنيل عامل ربط بين أقصى شمال القارة وقلبها الاستوائي، وبلاد المغرب تتصل بغرب إفريقيا منذ القدم عبر الصحراء ونقط الواحات^(٢٨).

وتجمع المصادر في هذا الشأن على أنه من النمط التوزيعي للدول الإسلامية وخط تحديد أرض الإسلام بالقارة، ويمكننا أن نميز بين نطاقين زمنيين للإسلام: الأول نطاق الإسـلام القديم، وهو يتفق تقريبا مع دول العالم العربي، والثاني يشمل الإسلام جنوب الصحراء أو الإسلام المداري، كما يطلق عليه البعض، نطاق السافانا، وهو لازال يتوسع في هذا الاتجاه. بل إن إفريقيا هي القارة الوحيدة التي يزحف فيها الإسلام اليوم بعد أن فقد أرضا في أوربا، وتوقف أو كاد في آسيا. وهو بهذا يستبدل بعروض شمالية عليا عروضا جنوبية سفلى في حركة انتقال طفيفة غير منظورة^(٢٩)، فالإسلام جبهة زاحفة في إفريقيا لا يعرفها في أية قارة أخرى، كما لا يمارسها أي دين آخر سواه في الوقت الحالي أو في أي مكان، وهو كفيل أن يجعل منها «قارة الإسلام» بالضرورة، لأن الإسلام لا يصل إلى نسبتها (٦٠٫٥٪) في أية قارة سواها.

أبعد من هذا، تعد إفريفيا أكثر من أية قارة أخرى جبهة زيادة في أعداده، وزحف في رقعته، واحتياطي توسعه في المستقبل. ويشير كل الكتاب والمبشرين الغربيين قبل سواهم إلى أن دين المستقبل في قارة المستقبل إنما هو الإسلام(٣٠).

ويؤكد «عبدالعزيز كامل» أن نطاق السافانا ـ جنوب الصحراء ـ في إفريقيا هو دائما نطاق الكسب للإسلام، ليعوض الفقدان أو النقص في مناطق أخرى من العالم، حيث يتزايد المسلمون فيه بطريقتين: الزيادة الطبيعية، وبمعتنقين جدد للإسلام(٣١). ولم يقتصر الدخول في الإسلام على الوثنيين، بل هناك موجة عارمة ورجعة كبيرة من أولئك الذين نصرهم رجال التبشير ورسل الاستعمار(٣٢). ويؤكد «ماك كاي» (V. Mckay) فيقول: «.... وهنا نقدم الإيضاحات والأسباب على نجاح الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، لأن التحول من الوثنية إلى الإسلام أمر سهل وميسور، ... فليس من السهل أن يتبع المرء تعاليم الإسلام كلها مباشرة، لكن كل ما نرجوه هو أن يرسل الطفل إلى مدرسة القرآن...»(٣٣).

إن العناصر العربية التي تدفقت إلى غرب إفريقيا إنما جاءت من بلاد المغرب منطلقة إلى مصب السنغال، ثم متجهة صوب الشرق عبر نطاق السافانا، فد كانت بيئة السافانا هذه على حد تعبير «ترمنجهام» بيئة تسهل الهجرات وتتيح الاحتكاك الثقافي، وتمهد لتكوين الوحدات الاجتماعية والسياسية(٣٤) أما الصواف(٣٥) فيذكر أن النطاق جنوب الصحراء هو المكسب الحقيقي لاكتساب أعداد متزايدة وسريعة للمسلمين في القارة، وضرب لذلك مثلين، وهما: فولتا العليا، وجمهورية سيراليون، حيث كانت نسبة المسلمين قبل استقلالها (سنة ١٩٦٠م) لا تزيد عن ٢٥٪ فقط ، لكن ارتفعت فيهما في الوقت الحاضر (سنة ١٩٧٣م) إلى ٥٦٪ للأولى، وقفزت إلى ٦٥٪ في الثانية.

ويؤيد خلاصة الآراء السالفة تتبع أعداد الدول الإسلامية ومواقعها من إفريقيا لتبيان كثرتها العددية المطردة في إفريقيا المدارية جنوب الصحراء. فبالنظر إلى جدول (١) نجد أن عدد الدول الإسلامية سنة ١٩٦١م بلغ ٢٢ دولة، ارتفع إلى ٢٦ دولة عام ١٩٧٣م، أي بزيادة خمس وحدات سياسية، هي: بنين ـ توجو ـ ساحل العاج ـ إفريقيا الوسطى ـ الكمرون(٣٦). هذا بالإضافة إلى الحبشة (+ إريتريا)، وتنزانيا (تنجانيقا + زنجبار + بمبا) التي أحصيت سنة ١٩٧٣م ضمن الدول الإسلامية مع أوضاعها السياسية الحالية، بعد أن كانت دولا غير

إسلامية. والملاحظ أن هذه الدول الإسلاميه المضافة كلها تقع جنوب الصحـراء في إقليم السافانا، وإفريقيا المدارية.

تحديد الدول الإسلامية وتوزيعها: لاشك أن هناك معايير موضوعة تستخدم عند التطبيق لتحديد إطلاق التسمية على الوحـدة السياسية ما إذا كانـت إسـلامية أو غـير إسلامية(٣٧). وهناك معياران وضعا لتحديد الدول الإسلامية، تستخدمها للتطبيق على القارة الإفريقية، وهما:

«المعيار الأول»: وهو «المعيار الرسمي»: وهي الدول التي ينص في دساتيرها على أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي لأهل البلاد. وهذا المعيار لاجدال فيه من أن الدولة في هذا النسأن وتحت هذا المعيار دولة إسلامية، غالبية مسملـة بالطبـع، وأقلية أو لا شيء من الديانات الأخرى.

وبتطبيق هذا المعيار على الدول والوحدات السياسية في القارة الإفريقية نجد أن نسبة ضئيلة من الدول الإفريقية هي التى تدخل تحت مضمار هذا المعيار. وهي فقط مجموعة دول العالم العربي في شمال وشمال سرق إفريقية (جمهرية مصر العربية ـ الجمهورية العـربية الليبية ـ جمهـورية تونس ـ جمهـورية الجزائـر ـ المملكة المغـربية ـ جمهـورية السـودان الديمقراطية)، بالإضافة إلى عدد ضئيل من الدول الأخرى: (موريتانيا ـ الصومال) التي ينص في دساتيرها الرسمية على أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي أو الرئيسي للدولة. وفي كل هذه الوحدات نجد أن نسبة المسلمين فيها لا تزيد على ٥٠٪ من مجموع سكانها فحسب، بل تصل هذه النسبة إلى أكثر من ٩٠٪ في كل هذه الوحدات السياسية فيما عدا السودان (٨٥٪ عام ١٩٧٣م).

«أما المعيار الثاني»: فهو «المعيار العددي أو الإحصائي»: وهـو أوفـق معيار لتحديد الدول الإسلامية. ويتطلب العمل لتطبيق هذا المعيار الحصول على عدد من البيانات الإحصائية، تتلخص في: كم عدد المسلمين في كل دولة على حدة مقارنا بعدد السكان الكلي في نفس سنة التقدير أو الإحصاء ونسبتهم من الدولة؟؟ وضع جدول نسبي بالأرقام لتصنيف

الدول الإسلامية وغير الإسلامية، هذا بالإضافة إلى إجراء مقارنة بين هذا الجدول الحالي بجداول أخرى سالفة حسب الأرقام الممكن الحصول عليها والموثوق بها. وأخيرا استخلاص الأقليات الإسلامية عددا وموقعا في القارة. وكان خلاصة هذه الدراسة بتطبيق هذا المعيار والإجابة على كل الأسئلة السالفة كلها الجداول (١)، (٢)، (٣) بما فيها من أرقام بحتة ونسب مئوية ومصادر.

وهناك ملاحظة يجدر أخذها بعين الاعتبار عند تطبيق المعيار العددي على الدول الإفريقية، وهي أنه على الرغم من النقص الكبير الذي نجده في المصادر الإحصائية الخاصة بالدول الإسلامية، إلا أن في دراسة كهذه تعتمد في الأساس على الحقائق العلمية الدقيقة والأرقام الصحيحة الموثوق بها من مصادرها وصدق نوايا ناشريها، نجد أن هناك مراجع ومصادر عديدة تحاول الإجابة على هذه الأسئلة. لكن الأرقام المتاحة كثيرا ما تختلف أحيانا إلى حد التضارب(٣٨).

كما أن من الواجب العلمي هنا أن نقرر أنه بقدر ما تجنح التقديرات الغربية إلى التقليل من حجم الإسلام، بقدر ما تندفع بعض الكتابات العربية إلى التضخم، ولذا اختلف المصدران في تقدير عدد المسلمين نتيجة اختلاف وجهات النظر في تقدير عدد المسلمين في الدول والأقاليم المختلفة. إننا نفتقر كل الافتقار إلى البيانات التي تخول لنا صدق الحكم في هذا الموضوع، لأن التقديرات التي وضعت عن عدد المسلمين في إفريقيا بما في ذلك أحدثها عهدا قدرت أعداد المسلمين تقديرات متباينة. وهناك جانب كبير من الشك يحيط بكل تقدير، لأن كثيرا من الأقطار التي يكثر فيها المسلمون لم يعمل لها إحصاء ديني قط ، ولهذا فإنه يعوزنا فيها الإحصاء الدقيق، وحتى المصادر العربية الإسلامية تذكر «أن العالم الإسلامي يعتمد في مصادره عن نفسه على أعمال غير المسلمين وعلى كثير من المصادر الأولية»(٣٩).

وترجع عدم دقة الإحصاءات في إفريقيا إلى الأسباب التالية :

أ ـ معظم هذه الدول ـ إن لم يكن كلها ـ دول نامية ، وليس لها إحصاءات حيوية.

ب ـ معظم الدول الحديثة لا تتضمن جداولها الإحصائية أو تعداداتها السكانية التركيب الديني.

جـ ـ تعمدت القوى الاستعماريه عدم إعطاء معلومات صحيحة مضبوطة عن مستعمراتها، ولذا جاءت كل أرقامها التقديرية المقبولة بعد الاستقلال فقط لا تقبل المقارنة بما سبقها، سواء بالنسبة للدولة ذاتها أو لأن العديد من الوحدات السياسية الحالية كان مندمجا في إطار وحدات استعمارية كبيرة.

د ـ يميل المستعمرون الأوربيون إلى خفض عدد المسلمين في الأقطار التي لايزال لهم نفوذ فيها. وهم معروفون بموقفهم بالنسبة للإسلام وبخاصة في إفريقيا قارة المستعمرات.

هـ ـ إطلاق حرية العقيدة الدينية تجعل الإحصاءات لا تعطى بالنسبة للمعتقدات الدينية عامة والمسلمين على وجه الخصوص. وأخيرا نجد أنه في كثير من الدول اضطرابات يعمد معها المسلمون إلى إخفاء أو عدم الإعلان عن عقائدهم وشعائرهم الدينية لظروف تضطرهم إلى ذلك داخل دولهم لدواعى الأمن.

ونتيجة لكل هذه الأسباب السالفة يصبح مدى الاختلاف (Range of Variation) كبيرا وبخاصة إذا قورنت الأرقام الحالية بالتقديرات السالفة المبكرة.

لذا اعتمد الباحث في تطبيق المعيار الإحصائي على ما أتيح من أرقام منشورة مع الأخذ في الاعتبار أمورا عديدة، وبخاصة الأرقام التي صدرت بعد استقلال القارة، حيث ظهر عدد كبير من الدول في الخريطة السياسية للقارة والتي كانت أجزاء من وحدات سياسية استعمارية كبيرة، حتى نسهل المقارنة فيما بينها. وهنا اعتمد الباحث على تقديرات سنوات ١٩٦١م، ١٩٦٨م، ١٩٧٣م، وفي حالة السنتين الأخيرتين اعتمد على المصادر مباشرة. أما بالنسبة للتاريخ الأول فقد أخذ متوسط العديد من الجداول للوصول إلى أرقام أقرب إلى الحقيقة ومقبولة محاولا التوفيق فيما بينها واستخدام أقربها إلى المنطق، لأن هناك بعض الافتراضات بعيدة عن الحقيقة والواقع(٤٠).

تحديد الأقليات الإسلامية وتوزيعها :

اتفق الكثيرون عند تطبيق المعيار العددي على الوحدات السياسية في إفريقيا، من حيث عدد المسلمين ونسبتهم من المجموع الكلي للسكان على اعتبار كل دولة يزيد عدد المسلمين فيها على ٥٠٪ من مجموع عدد سكانها «دولة إسلامية»، بصرف النظر عما إذا كان دستور هذه

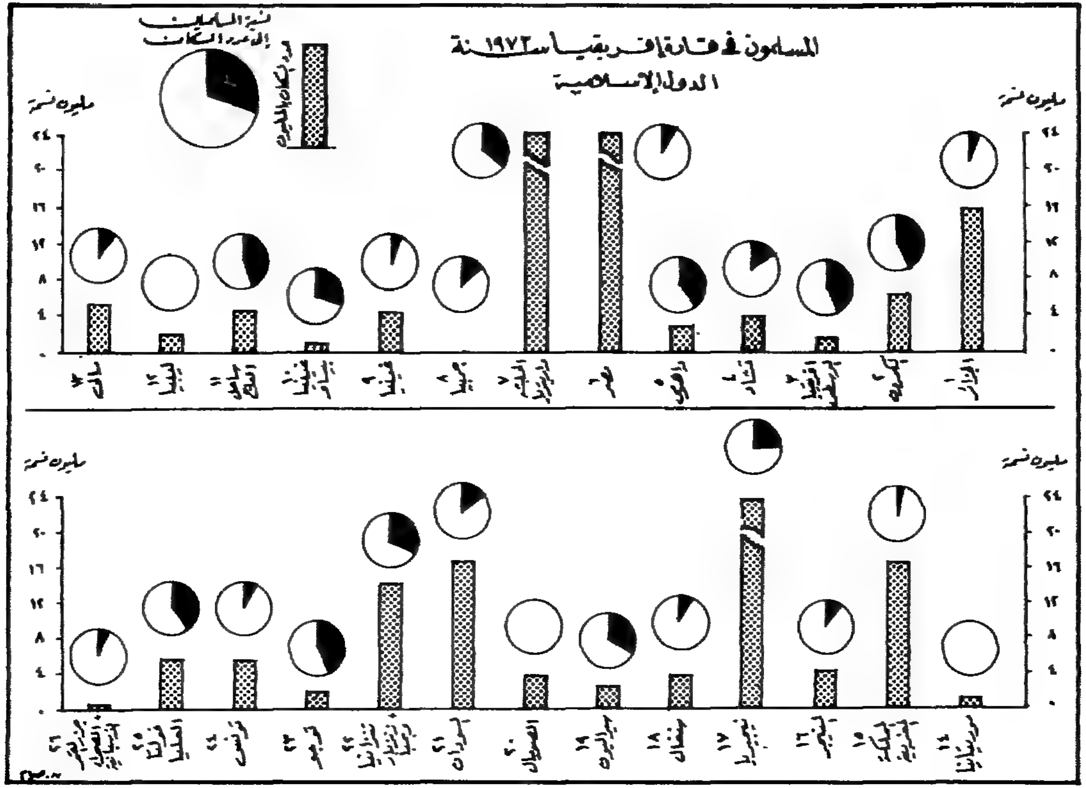
المسلمون في قارة إفريقيا سنة ١٩٧٢
الدول الإسلامية
نسبة المسلمين إلى عدد السكان
عدد السكان بالمليون
مليون نسمة
٠
٤
٨
١٢
١٦
٢٠
٢٤
١ الجزائر
٢ الكمرون
٣ افريقيا الوسطى
٤ تشاد
٥ داهومي
٦ مصر
٧ الحبشة وارتيريا
٨ جامبيا
٩ غينيا
١٠ غينيا بيساو
١١ ساحل العاج
١٢ ليبيا
١٣ مالي
١٤ موريتانيا
١٥ المملكة المغربية
١٦ النيجر
١٧ نيجيريا
١٨ سنغال
١٩ سيراليون
٢٠ الصومال
٢١ السودان
٢٢ تنزانيا + زنجبار وتنجانيقا
٢٣ توجو
٢٤ تونس
٢٥ فولتا العليا
٢٦ جزر الكناري + الصحراء الإسبانية

شكل (٢)

الدولة يقرر دين الدولة الرسمي أو لا يقره، أما إذا لم يتجاوز عدد المسلمين هذه مثل هذه النسبة في سكان الدولة، فالمسلمون في هذه الحالة «أقلية دينية» في مثل هذه الدولة، وتعتبر «دولة غير إسلامية» حتى ولو كانت هذه الأقلية الإسلامية كبيرة من حيث النسبة مثل الجابون (٤٥٪ مسلمون)، ومالاوي (٣٥٪)، وأوغندة (٣٦٪) طبقا لتقديرات ١٩٧٣م، (جدول (٣)).

لكن أضاف الباحث عند التطبيق أن الدولة تعتبر إسلامية إذا زادت نسبة المسلمين بها على ٥٥٪ من جملة سكانها (باعتبار أن هناك احتمالا للخطأ بمقدار + أو - ٥٪). فحتى إذا نقصت نسبة الخطأ المحتمل كلها من التقدير هبطت نسبة المسلمين في الدولة إلى حد النسبة العامة وهي ٥٠٪. وبتطبيق ذلك وجد أن هناك ٢٦ دولة إسلامية و ٢٠ دولة غير إسلامية، أو بمعنى آخر دول بها أقليات إسلاميه ظهرت في جدول (٣).

- ومهما يكن من أمر فإن تقدير عدد السكان والمساحات في الدول الإفريقية المختلفة، والتي ظهرت أرقامها في جدول (٣)، يوضح الدول الإسلامية وغير الإسلامية في إفريقيا، على أساس تقديرات الأمم المتحده عام ١٩٧٣م. أما عن تقدير عدد المسلمين من سكان هذه الدول فهي من مصدر واحد⁽٤١⁾، ولنفس العام (١٩٧٣)، لكن النسب المئوية الأخرى للمسلمين في الدول التي ظهرت في الجدول (٢)، فهي من مصادر مختلفة وضعت أسفله، أخذت بشيء من الحذر والتحفظ في الاعتماد عليها، في بعض الدول الإفريقية في غربي ووسط القارة وجنوبها، مع مراعاة المبالغة من ناحيه، والتقديرات المغرضة من ناحية أخرى.

وبناء على المعيار العددي وتقديرات عام ١٩٧٣م يمكن تقسيم القارة إلى ثلاث مجموعات، وهي:

- **المجموعة الأولى**: وهي الوحدات التي يطلق عليها - طبقا للمعيار العددي - دولا إسلامية، حيث تزيد نسبة المسلمين فيها على ٥٠٪ من مجموع سكانها، بل تصل هذه النسبة في عدد كبير منها إلى أكثر من ٨٠٪ من مجموع السكان⁽٤٢⁾. ويتضح أن هناك ٢٦ وحدة سياسية إفريقية تعد دولا إسلامية، منها ٢٥ دولة مستقلة، بالإضافة إلى وحدتين سياسيتين صغيرتين غير مستقلين، وهذه الأخيرة تساهم بنسب ضئيلة جدا في العدد الكلي لسكان الدول الإسلامية في إفريقيا، وبالتالي في عدد أو نسبة المسلمين بها.

في القارة الإفريقية ـ عام ١٩٧٣م ـ ٢٦ دولة إسلامية، تبلغ مساحتها ١٨ر٧ مليون ك. م مربع، أي ما يعادل ٦٥ر٥٪ من مساحة القارة، وعدد سكانها ٢٦٨ مليون نسمة، من بينهم ٢١٥ر٧ مليونا من المسلمين، أي بنسبة ٨٠ر٥٪ من جملة عدد سكانها، يمثلون ٥٥٪ من مجموع سكان إفريقيا، ونحو ٩٠٪ من مجموع عدد المسلمين في القارة، وحوالي ٢٤٪ من مجموع عدد المسلمين في العالم.

ويلاحظ من الجدول (٣) أيضا أن حجم السكان في معظم هذه الدول صغير بشكل محسوس، إذ لا يزيد عدد السكان في أية دولة من هذه الدول على ١٥ مليون نسمة فيما عدا مصر، ونيجيريا، والحبشة (+ أريتريا)، والمملكة المغربية، والسودان، وأن النسبة العامة للمسلمين في هذه المجموعة الأخيرة يزيد على ٨٠٪ من مجموع سكانها، وإن كانت نسبة المسلمين تزيد على ٩٠٪ في كل الدول العربية الإفريقية (فيما عدا السودان) وكذلك الصومال وموريتانيا، بالإضافة إلى غينيا، مالي، النيجر، والسنغال.

أما عن الوحدات السياسية الإسلامية غير المستقلة بالقارة فتتمثل في إريتريا التي ضمتها الحبشة إلى أراضيها، وأصبحت إقليما من الحبشة، وهي إقليم يسود فيه المسلمون تماما. وعلى هذا ارتفع عدد المسلمين بالحبشة عن ذي قبل، كما ارتفعت نسبتهم داخل الدولة، وظهرت إحصاءاتها في الوقت الحاضر بنسبة ٦٤٪ للمسلمين عام ١٩٧٣م من مجموع السكان، مقارنا بـ ٤٩٪ عام ١٩٦٨ و ٣٠٪ عام ١٩٦١م. وبذلك أصبحت دولة إسلامية الآن بعد أن كانت تحصى مع الدول غير الإسلامية من قبل، وذلك بفضل ضم أريتريا إلى إحصاءاتها. وقد كتب «جون جنتر» (Gunther, J.) «أن الفكرة السائدة بأن الحبشة دولة مسيحية في حاجة إلى تعديل وتصحيح، إذ إن نصف مجموع السكان يعتنقون الإسلام أو الوثنية... ثم يعود ويقرر بأن المسلمين في إثيوبيا قوة كبيرة، فمقاطعة هرر ـ التي نشأ فيها الإمبراطور ـ مقاطعة إسلامية، وقبائل «الجالا» التي تشغل جنوب الحبشة وغربها نصفها من المسلمين. بينما تنتشر في جميع أنحاء الحبشة جنوب المجمعات الزراعية التي يملكها المسلمون(٤٣)... أما «ترمنجهام» فقد ذكر أن المسلمين يشكلون ٣٠٪ من مجموع السكان في الحبشة، وتبلغ نسبتهم أكثر من ٥٠٪ إذا أضيفت إليها أريتريا(٤٤). فإذا كان هذا ما قرره بعض الكتاب عام ١٩٥٥م، فما بالنا بإضافة أريتريا ـ وكلها مسلمون ـ إلى نسبتها المئوية في الوقت الحالي؟

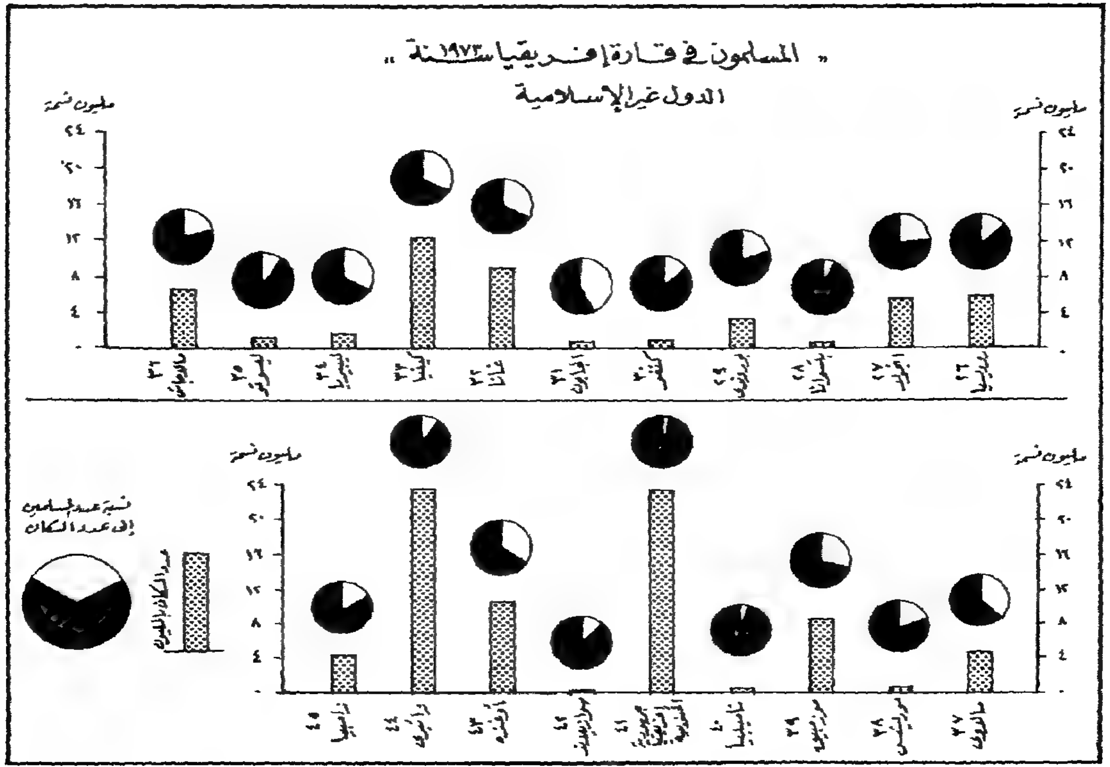
" المسلمون في قارة إفريقيا سنة ١٩٧٣ "
الدول غير الإسلامية
مليون نسمة
٢٤
٢٠
١٦
١٢
٨
٤
٠
٢٦ روديسيا
٢٧ انجولا
٢٨ بتسوانا
٢٩ بوروندي
٣٠ كنغو
٣١ الجابون
٣٢ غانا
٣٣ كينيا
٣٤ ليبيريا
٣٥ ليسوتو
٣٦ مالاجاش
٣٧ مالاوي
٣٨ موريشس
٣٩ موزمبيق
٤٠ ناميبيا
٤١ جمهورية إفريقيا الجنوبية
٤٢ سوازيلاند
٤٣ أوغنده
٤٤ زائيري
٤٥ زامبيا
عدد السكان بالمليون
نسبة عدد المسلمين إلى عدد السكان

شكل (٤)

أما الصحراء الإسبانية فقد تم تقسيمها بين المغرب وموريتانيا، وعدد سكانها ٧٦ ألف نسمة، منهم ٧٣ ألف نسمة من المسلمين، أي بنسبة ٩٥٪ (عام ١٩٧٣م) من مجموع السكان.

ـ **المجموعة الثانية** : هي الوحدات السياسية غير الإسلامية أو دول الأقليات الإسلامية. وفيها يقل عدد المسلمين عن ٥٠٪ من مجموع السكان. ويمكن أن نقسم دول هذه المجموعة إلى مجموعتين فرعيتين: أطلق على أولها «دول غير إسلامية» يتراوح نسبة عدد المسلمين بها ما بين ٢٥ ـ ٥٠٪ من جملة عدد سكانها، وهذه عددها ثمانية، في حين أطلق على الثانية «دول غير إسلامية» ذات أقليات إسلامية صغيرة، وهي التي تقل نسبة المسلمين بها عن ٢٥٪ من عدد سكانها، وهذه بلغ عددها ١٢ دولة.

ففي القارة الإفريقية ٢٠ وحدة سياسية غير إسلامية عام ١٩٧٣م ـ طبقا للمعيار الإحصائي أو العددي ـ تبلغ مساحتها ١٠ر٦ مليون ك. م مربع، أي ما يعادل ٣٤ر٥٪ من مساحة القارة، وعدد سكانها ١٢٧ر٥ مليون نسمة، من بينهم ٢٣ر٤ مليونا من المسلمين، أي بنسبة ١٨٪ من جملة عدد سكانها. ويمثلون أقليات إسلامية كبيرة أو صغيرة في هذه الدول، ويشكلون في مجموعهم نحو ٦٪ من مجموع سكان إفريقيا، و ١٠٪ من مجموع عدد المسلمين في القارة، وحوالي ٢ر٥٪ من مجموع عدد المسلمين في العالم. ومن ثم نجد أن النسبة المئوية لمسلمي القارة من جملة سكانها ٦٠ر٥٪ (٣٩ر٥٪ لغير المسلمين)(٤٥).

وهنا نجد كثيرا من الوحدات السياسية التي تشمل أقليات إسلامية، يشكل بعضها نسبة كبيرة من مجموع سكان هذه الدول (الجابون، مالاوي، أوغنده)، إنما لا يصل إلى ٥٠٪ من مجموع السكان(٤٦)، كما يلاحظ من دراسة الجدول أيضا أن سكان عدد كبير من هذه الدول صغير للغاية (بتسوانا ـ الجابون ـ ناميبيا ـ سوازيلاند)، وبالتالي لا يتجاوز عدد المسلمين بها مليونين في ١٥ دولة منها، ويصل العدد إلى أكثر من ٢ مليون مسلم في خمس دول فقط، كما يلاحظ أن كلها دول مستقلة، فيما عدا أربعة منها مازالت تحت الحكم أو الوصايات الأجنبية.

التغاير العددي والنسبي للدول الإسلامية والمسلمين في إفريقيا:

تبين من الدراسة العددية للدول الإسلامية ونسبة المسلمين بالدول الإفريقية أنه حدث تغير فيها على مدى فترة ١٢ عاما (١٩٦١ ـ ١٩٧٣م) طبقا للجدولين (١)، (٢)..... واتضح مايلي:

الدول الإسلامية وغير الإسلامية في إفريقيا (تقدير سنة ١٩٧٣م)

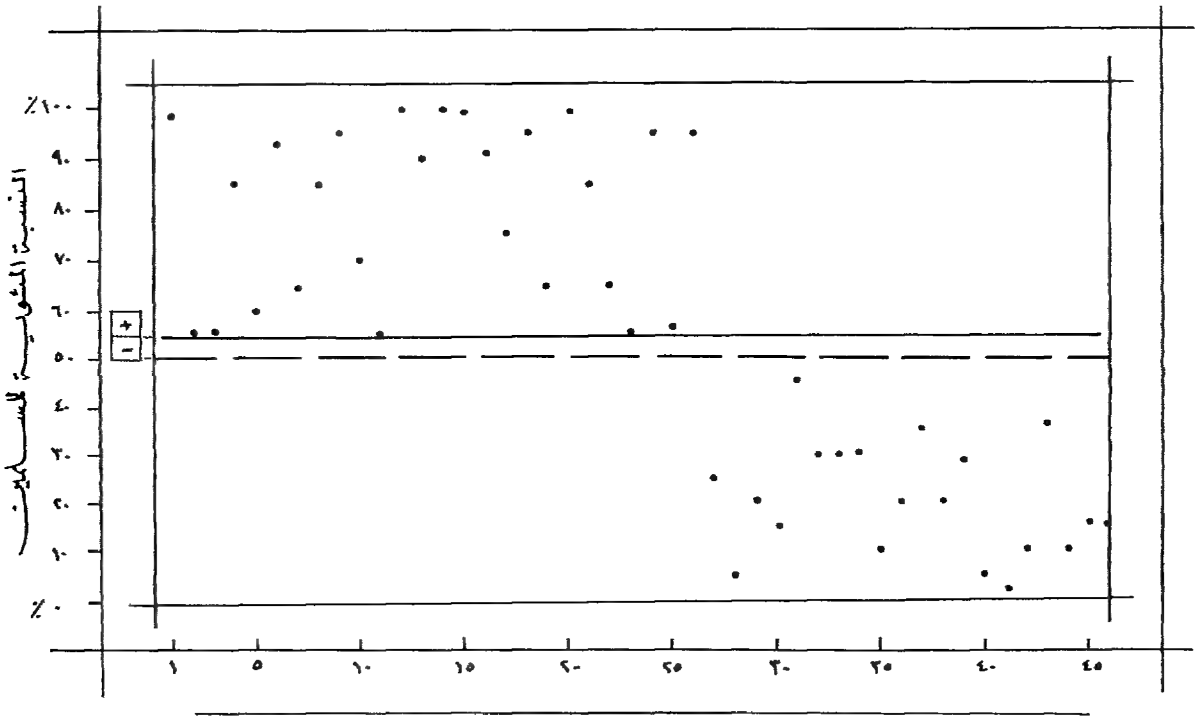

ملحوظة : ١- أرقام الدول طبقاً للترتيب الوارد في جدول (٢) وشكل (٣)،(٤) ٢- الخطأ الحرج في النسبة المئوية (+ ، - ٥ ٪) . [Standard Deviation]

شكل (٥)

- ارتفع عدد الدول الإسلامية في القارة من ٢٢ عاما ١٩٦١م إلى ٢٦ عام ١٩٧٣م - طبقا للمعيار الإحصائي -، في حين انخفض عدد الدول غير الإسلامية من ٢٨ عام ١٩٦١م إلى ٢٠ في عام ١٩٧٣م.

- إجمالي عدد المسلمين في القارة في زيادة مطردة وأيضا نسبتهم من جملة سكانها، فقد بلغ إجمالي عدد المسلمين بالقارة ١١٥ر٧ مليون عام ١٩٦٣م، مقابل ١٥٤ر٤ مليون عام ١٩٦٨م، ارتفع إلى ٢٣٩ر١ مليون في عام ١٩٧٣م، في حين بلغت نسبة المسلمين من جملة سكان الفارة ٤٥ر٤٪، ٥٧٪، ٦٠ر٥ للسنوات ١٩٦٣م، ١٩٦٨م، ١٩٧٣م على التوالي.

- من الدراسة التفصيلية لنسبة المسلمين على مستوى الدول من إجمالي عدد سكانها (جدول (٢)) أمكن تقسيمهم إلى مجموعات اتضح منها مايلي:

أ - دول بلغت نسبة المسلمين بها أكثر من ٨٠٪، واستمرت في هذا الارتفاع حتى ١٩٧٣م (مصر - ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب)، لكن يلاحظ أن الجزائر هي أكبر نسبة في التغير ما بين ١٩٦١، ١٩٧٣ (+ ١٧٪)، ويرجع ذلك إلى هجرة الأجانب المستعمرين من غير المسلمين من هذه الدولة بعد الاستقلال مباسرة، وقد اتضح هذا جليا من تغير نسبة المسلمين في المدن بسمال إفريقيا بعامة والجزائر بخاصة بعد الاستقلال، إذ ارتفعت من أقل ٢٪ إلى أكثر من ٩٠٪ من سكان المدن(٤٧).

ب - هناك دول كانت نسبة المسلمين بها مرتفعة، واسنمرت في الزيادة حتى الآن. وكانت هذه بنسبة مرتفعة (السودان، ونيجيريا)، وأخرى كانت غير إسلامية في عامي ١٩٦١م، ١٩٦٨م أصبح بعضها إسلاميا عام ١٩٧٣م بحكم ارتفاع نسبة المسلمين، مثل سيراليون (+ ٤٢٪)، أما بقية الدول فقد ارتفعت فيها نسبة المسلمين، لكن ظلت أقل من ٥٠٪ في عام ١٩٧٣م، ولذا ظلت دولا غير إسلامية، كما هي: (كينيا - أوغندة). أما غانا وماولاي ورو‌ديسيا فكانت غير إسلامية (- ٥٠٪)، لكن ظهرت نسبة التغير فيها بالسالب، إذ انخفضت في غانا إلى ٢٠٪ وفي مالاوي ٥٪، وفي روديسيا ١٩٪، وإن كان هذا النقص لم يؤثر في بقائها دولا غير إسلامية، لأنها رغم هذه الخسارة ظلت كما هي غير إسلامية بأقل من ٥٠٪ من مجموع سكانها.

جـ ـ دول كانت ضمن وحدات سياسية استعمارية كبيرة قبل التقسيم والاستقلال (إفريقيا الغربية الفرنسية) ظهرت بعد التقسيم دولا إسلامية، وظلت على إسلاميتها حتى عام ١٩٧٣، ولكنها كسبت الكثير في زيادة نسبة المسلمين في هذه الفترة.

د ـ دول كانت ضمن وحدات سياسية استعمارية كبيرة قبل التقسيم والاستقلال (إفريقيا الاستوائية الفرنسية) وكانت غير إسلامية عام ١٩٦١م، ثم كسبت الكثير فأصبحت إسلامية عام ١٩٧٣م، بحكم أن نسبة المسلمين بها بلغت ٥٥٪ فأكثر من جملة سكانها (داهومى ـ توجو ـ ساحل العاج ـ إفريقيا الوسطى ـ الكمرون). وهذه هي مناطق المكسب الجديده وانتشار الإسلام عددا ومساحة في إفريقيا جنوب الصحراء. يضاف إلى هذه المجموعة الحبشة (بما فيها أريتريا) وتنزانيا (تنجانيقا + زنجبار + ممبسا) على أنهما كانتا غير إسلاميتين، وأصبحتا وحدات سياسيه عام ١٩٧٣م، بحكم أوضاعها السياسية الحالية وضم مناطق إسلامية لكل منهما.

والخلاصة : أنه اتضح من دراسة الجداول ككل أن الإسلام كسب في كل الدول الإفريقية بعامة، ويسير باطراد بدليل ظهور نسبة التغير كلها بالإيجاب، ولم تظهر بالسالب إلا في حالات قليلة. ومن ثم يمكن أن نقرر أن الإسلام آخذ في الكثرة عددا، والانتشار مساحة في القارة الإفريقية، وأن هذه الزيادة لا يمكن إرجاعها إلى الزيادة الطبيعية فقط في السكان، ولكن أيضا إلى زيادة عدد المسلمين بالدول، وهذا على حساب النقص في نسبة غير المسلمين بها على مستوى القارة بعامة والدول بخاصة.

نظرة إلى المستقبل :

لقد ذهب بعض الباحثين إلى القول ـ بعد دراسة عرض توزيعات الأديان في إفريقيا ـ بأن مصير القارة كلها يتوقف على نتيجة اللقاء بين زحف الإسلام من الشمال والشرق والمسيحية من الجنوب. ولعل الدراسة السالفة لتوزيع الإسلام في القارة الإفريقية قد بينت لنا سعة انتشاره بها إلى أبعد الحدود، فقد تحرك الإسلام نحو قلب القارة، واخترق نطاق الغابات، كما انتشر على طول الساحل في غربي القارة، ودخل مع بعض المهاجرين إلى الكنغو. أما في شرق القارة فقد نفذ الإسلام إلى جنوب السودان وهضبة البحيرات، وتدفق إلى قلب هضبة

الحبشة، وتخطى ساحل شرق القارة إلى المناطق الداخلية إلى كينيا وتنزانيا. ودخل الإسلام جنوب القارة مع المهاجرين المسلمين من سكان الهند، ولازال ينتشر حتى اليوم إلى آفاق جديدة.

وقد حاول الجغرافيون المسلمون وصف العالم الإسلامي وتحديده في القرن العاشر الميلادي. وقد اتسعت رقعة الإسلام كثيرا منذ هذا القرن، وانتشر في مناطق كثيرة لم يكن يعرفها الجغرافيون المسلمون في القرون الوسطى. كما حاول بعض الجغرافيين في العالم الغربي التقليل من شأن العالم الإسلامي أثناء الحرب العالمية الثانية، ووصفه بأنه نطاق صحراوي فقير في موارده الطبيعية، وسكانه متخلفون، ولا خطر منهم على جيوش الحلفاء المحاربة(٤٨). ولعل دراسة وجوه النشاط الاقتصادي المختلفة في العالم الإسلامي ـ وخاصة في سنوات العصر الحديث ـ تثبت عكس ذلك.

وبعد الحرب العالمية الثانية حصلت كل الدول الإسلامية في شمال غرب إفريقيا وجمهورية السودان على استقلالها، ثم حدثت موجة الاستقلال على المسلمين جنوب الصحراء تجاه الجنوب في إفريقيا، حيث حصلت معظم الدول الإسلامية على استقلالها خلال العقد السابق (بعد عام ١٩٦٠م). وهذا هو نطاق السافانا الإفريقي الذي يمتد عرضيا في القارة إلى الجنوب من الدول الإفريقية الإسلامية (المجموعة الأولى)، وهو النطاق الذي أخذ الإسلام ينتشر فيه انتشارا حضاريا خلال صلات الشمال الإسلامي بالمجتمعات الوثنية في الدول الحديثة الاستقلال في غرب إفريقيا ووسطها. ولاشك أن الإسلام في القارة يكسب المزيد من أفراد هذا النطاق باطراد، الأمر الذي يعوض ما يخسره العالم الإسلامي كميا في نطاقات أخرى من العالم أو في بعض الدول الإفريقية، ففي كل دول النطاق الأوسط من إفريقيا من الصومال شرقا إلى السنغال غربا بالإضافة إلى الدول العربية في الشمال، توجد حياة إسلامية تجمع بين كل شعوب القارة، رغم اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ولونهم. ومن الطبيعي بعد الاستقلال أن تحاول هذه الدول الإسلامية في تقوية علاقاتها، وتزيد من روابطها.

ولا يفوتنا هنا أن نقدر عدد المسلمين بالقارة الإفريقية في نهاية القرن الحالي (عام ٢٠٠٠). فالمسلمون ٢٣٩ مليون نسمة (عام ١٩٧٣م)، يمثلون ٦٠ر٥٪ من جملة سكان القارة. وبناء على معدلات الزيادة الطبيعية لسكان العالم فيما بين ١٩٥٠ ـ ١٩٦١م البالغة ١ر٨٪،

وبافتراض أن المسلمين سيتزايدون بنفس المعدل، رغم أن معدل الزيادة السنوي في آسيا وإفريقيا حيث يوجد أكبر نسبة من السكان المسلمين في العالم يرتفع عن المعدل العالمي ككل(٤١)، سيصبح عدد المسلمين في إفريقيا ٣٥٥ مليون نسمة عام ٢٠٠٠م، يمثلون ٦٣٪ تقريبا من جملة سكان القارة في ذلك الوقت، والحقيقة الهامة التي لا يمكن أن نغفل عنها هي أن الإسلام له رصيد كبير في إفريقيا.

فالإسلام في إفريقيا قوة كبرى في هذه الفارة الناهضة، قارة المستقبل، ليس فقط من حيث العدد - كما سبق - بل من حيث أثر المسلمين البالغ في النشاط الثقافي والاقتصادي والاجتماعي في شعوب القارة.

جدول (١) نسبة التغاير للدول الإسلامية والمسلمين في إفريقيا

١٩٦١(١)			١٩٦٨(٢)			١٩٧٣(٣)		
عدد الدول	عدد المسلمين بها (مليون نسمة)	٪ من جملة سكانها (تقريبا)	عدد الدول	عدد المسلمين بها (مليون سمة)	٪ من جملة سكانها (تقريبا)	عدد الدول	عدد المسلمين بها (مليون سمه)	٪ من حملة سكانها تقريبـا
٢٢ ـ إسلامية ٢٨ ـ غير إسلامية	٩٩٫٦ ١٦٫١	٧٦رـ ١٢رـ	١٧ ـ إسلامية ١٩ ـ غير إسلامية	١٢١٫٦ ٣١٫٣	٧٣رـ ٣٠رـ	٢٦ ـ إسلامية ٢٠ ـ غير إسلامية	٢١٥٫٧ ٢٣٫٤	٨٠ر٥ ١٨رـ
إجمالى عدد المسلمين بالقــارة	ـ ١١٥٫٧ = (مليون نسمة)	٤٥٫٤٪ من جملة سكان القارة	إجمالى عدد المسـلمين بالقــارة	١٥٢٫٩ ـ + ١٫٥(*) ١٥٤٫٤ (مليون سمة)	٥٧رـ٪ س جملة سكان القارة	إحمالى عدد المسلمين بالقـارة	٢٣٩٫١ = (مليون سمة)	٦٠ر٥٪ س جملة سكاں القارة

المصدر : الجدول من المصادر التالية :

ـ حسن إبراهيم حسن ، (١٩٦٤) ، جدول ص ص ٢١١ ـ ٢١٢

(1) Proctor, J H , (1965), Table, pp 192 - 193. and &

After: - Ready Information About Africa (Mission Information Centre, St. Edward's College, London, 1962). 2 - Ready Information About Africa and Africa AND Africa Report, Vol 8,

ـ (استخرجت أرقام ١٩٦١ من متوسط الجداول بالمصدرين) .... (March, 1963), P 14 .

(٢) تقويم العالم الإسلامي، (١٩٧٠)، ص ص ٢٧ ـ ٣٨ .

(3) World Muslim Gazitteer , 1975 Edition, & - U N Demongraphic Yearbook, 1973, N Y., 1974.

(*) ذكر المصدر أنه يجب أن نضيف ١٫٥ مليون مسلم يمثلون أقليات إسلامية صغيرة في دول إفريقية أخرى غير إسلامية، وهي ١٣ وحدة سياسية، معظمها دول غير مستقلة لم ترد في الجدول.

جدول (٢)

نسبة التغاير للمسلمين ببعض دول إفريقيا

م	الدولــة		النسبة المئوية للمسلمين من جملة السكان			نسبة التغاير ٪	
			١٩٦١	١٩٦٨	١٩٧٣	+	(ـ)
١	مصـر	(١)	٩٢	٩٢	٩٣	١	٠٠
٢	ليبيـا		٩٥	٩٥	٩٩٫٥	٤	٠٠
٣	تونـس		٩١	٩٣	٩٥	٤	٠٠
٤	الجزائر		٨١	٩٢	٩٨	١٧	٠٠
٥	المغـرب		٩٤	٩٤	٩٩	٥	٠٠
٦	السودان	(٢)/م	٧٤	٨٢	٨٥	١١	٠٠
٧	نيجير يا		٦٢	٥٢	٧٥	١٣	٠٠
٨	سيراليون	(٣)/ب	٢٣	٢٠	٦٥	٤٢	٠٠
٩	غانـا		٥٠	٦	٣٠	٠٠	٢٠
١٠	كينيا		٧	٢٢	٣٠	٢٢	٠٠
١١	أوغندة		١	١٢	٣٦	٣٥	٠٠
١٢	موريتانيا	(٣)	٩٩	٩٠	١٠٠	١	٠٠
١٣	مالـي		٧٤	٦٥	٩٠	٢٦	٠٠
١٤	النيجر		٨٠	٦٨	٩١	١١	٠٠
١٥	السنغال		٧٣	٦٠	٩٥	٢٢	٠٠
١٦	فولتا العليا		٥١	٤٠	٥٦	٥	٠٠
١٧	تشـاد		٦٩	٦٠	٨٥	١٦	٠٠
١٨	داهومي		١١	١٥	٦٠	٤٩	٠٠
١٩	توجـو	(٤)/م	٤	١٠	٥٥	٥١	٠٠
٢٠	ساحل العاج		٢١	٣٥	٥٥	٣٤	٠٠
٢١	إفريقيا الوسطى		٧	٢٠	٥٥	٤٨	٠٠
٢٢	الكمرون		٣٦	٣٥	٥٥	١٤	٠٠
٢٣	الجابون	(٤)/ب	٢٤	لم ترد في الجداول	٤٥	٢١	٠٠
٢٤	مالاوي		لم ترد في الجداول	٤٠	٣٥	٠٠	٥
٢٥	ليبير يا		١٧	٢٦	٣٠	١٣	٠٠
٢٦	الحبشه + أريتريا	(٥)	٣٠	٤٩	٦٤	٣٤	٠٠
	تنجانيقا		٢٠ ٢٣-	٤٠	٦٥	٤٣	٠٠
٢٧	تنزانيا + زنجبار		٩٩				
٢٨	روديسيا	(٦)	٣٤	لم ترد في الجداول	١٥٠	٠٠	١٩

المصدر : الجدول من مصادر الجدول السابق مع تعديلات.

جدول (٣) «المسلمون واللا مسلمون في دول إفريقيا»
(تقدير سنة ١٩٧٣)

م	الدولة	المساحة (ألف) (ك.م)	السكان ألف نسمة	تاريخ تقدير الأمم المتحدة	المسلمون ألف نسمة	النسبة المئوية	تاريخ عضوية الأمم المتحدة
	(١)الدول الإسلامية المستقلة						
١	الجزائر	١٫٥٠٠	١٥٫٧٠٠	١٩٧٣	١٥٫٣٨٦	٩٨٪	١٩٦٢
٢	الكمرون	٤٧٧	٦٫٠٠٠	١٩٧٣	٣٫٣٦٥	٥٥	١٩٦٠
٣	جمهورية إفريقيا الوسطى	٦١٨	١٫٦٤٠	١٩٧٣	٩٠٧	٥٥	١٩٦٠
٤	تشاد	١٫٢٨١	٣٫٩٩٩	١٩٧٣	٣٫٤٠٠	٨٥	١٩٦٠
٥	داهومي	١١٥	٢٫٩٠٩	١٩٧٣	١٫٧٤٦	٦٠	١٩٦٠
٧	جمهورية مصر العربية	١٫٠٠٠	٣٥٫٩٠٠	١٩٧٣	٢٣٫٣٨٧	٩٣	١٩٤٥
٧	الحبشة + أريتريا	١٫٢٢١	٢٦٫٥٩٨	١٩٧٣	١٧٫٢٨٩	٦٤	١٩٤٥
٨	جمبيا	١٠	٣٨٤	تقدير الحكومة ١٩٧٣	٣٢٧	٨٥	١٩٦٥
٩	غينيا	٢٤٦	٤٫٢٥٩	١٩٧٣	٤٫٠٤٧	٩٥	١٩٥٨
١٠	غينيا بساو	٣٦	٨١٠	١٩٧٢	٥٦٧	٧٠	١٩٧٤
١١	ساحل العاج	٣٢٢	٤٫٥١٥	١٩٧٣	٢٫٤٨٤	٥٥	١٩٦٠
١٢	ليبيا	١٫٧٥٩	٢٫١٧٨	١٩٧٣	٢٫١٧٨	١٠٠	١٩٥٥
١٣	مالي	١٫٣٤٠	٥٫٣٩١	١٩٧٣	٤٫٨٥٣	٩٠	١٩٦٠
١٤	موريتانيا	١٫٠٣٠	١٫٢٢٧	١٩٧٣	١٫٢٢٧	١٠٠	١٩٦١
١٥	المملكة المغربية	٤٤٦	١٦٫٩٩٥	١٩٧٣	١٦٫٨٢٦	٩٩	١٩٥٦
١٦	النيجر	١٫٢٧٢	٤٫٣٣٥	١٩٧٣	٣٫٩٦٣	٩١	١٩٦٠
١٧	نيجيريا	٩٢٧	٧٩٫٧٥٩	تعداد سنة ١٩٧٣	٥٩٫٨٢٠	٧٥	١٩٦٠
١٨	سنغال	١٩٦	٤٫٠٢٠	١٩٧٣	٣٫٨١٩	٩٥	١٩٦٠
١٩	سيراليون	٧٣	٢٫٧٦٩	١٩٧٣	١٫٨٠٠	٦٥	١٩٦١
٢٠	جمهورية الصومال الديمقراطية	٧٠٢	٣٫٩٥٠	تقدير الحكومة ١٩٧٣	٣٫٩٥٠	١٠٠	١٩٦٠
٢١	السودان	٢٫٥١٥	١٦٫٩١١	تعداد سنة ١٩٧٣	١٤٫٣٧٥	٨٥	١٩٥٦
٢٢	جمهورية تنزانيا الاتحادية (زنزبار عسا)	٩٤٣	١٤٫٣٨٠	١٩٧٣	٩٫٣٤٧	٦٥	١٩٦١
٢٣	توجو	٥٧	٢٫١٢٠	١٩٧٣	١٫١٦٦	٥٥	١٩٦٠
٢٤	تونس	١٦٥	٥٫٥٢١	١٩٧٣	٥٫٢٤٥	٩٥	١٩٥٦
٢٥	فولتا العليا	٢٧٥	٥٫٥١٤	١٩٧٣	٣٫٨٧٩	٥٦	١٩٦٠
	(٢) الدول الإسلامية تحت حكم غير إسلامي)						
٢٦	جزر القمر	٢	٢٩٠	ـ	٢٨٦	٩٥	تحت الفرنسي
	ـ الصحراء الإسبانية	٢٧٤	٧٦	ـ	٧٣	٩٥	تحت الإسباني
ـ	أريتريا	١١٩	٣٫٠٠٠	ـ	٢٫٢٥٠	٧٥	تحت أثيوبيا
	جملة الدول الإسلامية	١٨٫٧٢٠	٢٦٨٫٢٨٨	ـ	٢١٥٫٧٠٧	٨٠٫٥٪	

ملاحظة : قسمت الصحراء الإسبانية بين المغرب وموريتانيا.

تابع / جدول (٣) . .....

م	الدولة	المساحة ألف كم٢	السكان ألف	تاريخ تقدير الأمم المتحدة نسمة	المسلمون ألف نسمة	النسبة المئوية	تاريخ عضوية الأمم المتحدة
	(٣) الدول غير الإسلاميه						
٢٧	أبجولا	١٫٢٥١	٥٫٨٠٠	١٩٧٣	١٫٤٥٠	٢٥	(برتغالية)
٢٨	بتسوانا	٥٧١	٦٧٠	١٩٧٣	٣٤	٥	١٩٦٦
٢٩	بوروندي	٢٨	٣٫٦٠٠	١٩٧٣	٧٢٠	٢٠	١٩٦٢
٣٠	كمعو	٣٤٢	١٫٠٠٠	١٩٧٣	١٥٠	١٥	١٩٦٠
٣١	الجابون	٢٦٦	٥٢٠	١٩٧٣	١٣٤	٤٥	١٩٦٠
٣٢	عانا	٢٣٩	٩٫٣٦٠	١٩٧٣	٢٫٨٠٨	٣٠	١٩٦٠
٣٣	كينيا	٥٨٥	١٢٫٤٨٠	١٩٧٣	٣٫٦٨٢	٣٠	١٩٦٣
٣٤	ليبيريا	١١٢	١٫٦٦٠	١٩٧٣	٤٩٨	٣٠	١٨٤٧
٣٥	ليسوتو	٣٠	١٫٢٠٠	١٩٧٣	١٢٠	١٠	١٩٦٦
٣٦	مالاجاشي	٥٩٣	٦٫٧٥٠	١٩٧٣	١٫٣٥٠	٢٠	١٩٦٠
٣٧	مالاوي	٩٤	٤٫٧٩٠	١٩٧٣	١٫٦١٧	٣٥	١٩٦٤
٣٨	مورشس	٢	٨٣٠	١٩٧٣	١٤١	٢٠	بريطانية
٣٩	موزمبيق	٧٧٤	٨٫٨٢٠	١٩٧٣	٢٫٢٠٥	٢٩	برتغالية
٤٠	زامبيا	٨٢٧	٦٧٠	١٩٧٣	٣٤	٥	١٩٦٠
٤١	جنوب إفريقيا	١٫٢٣٨	١٩٧٣	٤٧٤	٢	١٩٧١	
٤٢	سوازيلاند	١٧	٤٦٠	١٩٧٣	٤٦	١٠	بريطانية
٤٣	أوعنده	٢٤٤	١٠٫٨١٠	١٩٧٣	٣٦	١٩٦٢	
٤٤	زائيري	١٫٣٤٥	٢٣٫٨٣٦	١٩٧٣	٢٫٣٨٤	١٠	١٩٥٩
٤٥	رامبيا	٦٥٥	٤٫٦٤٠	١٩٧٣	٦٩٦	١٥	١٩٦٤
٤٦	روديسيا	٣٩١	٥٫٩٠٠	١٩٧٣	٨٨٥	١٥	بريطانية
جمله	الدول عىر الإسلاميه	١٠٫٥٩٨	١٢٧٫٥١٦	-	٢٣٫٤٦٩	٪١٨	

إجمالـــي :

	في العالم	فى إفريقيا	النسبة المئوية من العالم
- جمله المسلمن في الدول الإسلاميه	٦٧٥٫٣٨٧٫٠٠٠	٢١٥٫٧٠٧٫٠٠٠	٪٣٢
- جمله المسلمىن في الدول عىر الإسلاميه	٢٢٩٫٦٦٠٫٠٠٠	٢٣٫٤٦٩٫٠٠٠	٪١٠
- جمله المسلمىن	٩٠٤٫٩٤٧٫٠٠٠	٢٣٩٫١٧٦٫٠٠٠	٪٣٦٫٤

- النسبه المئوية لمسلمى القاره من جمله سكانها ٦٠٫٥٪ (٣٩٫٥٪ لغير المسلمين)
- النسبه المئوية لمساحة إفريقيا الإسلاميه من جملة مساحة القارة ٦٥٫٥٪ (٣٤٫٥٪ للدول غير الإسلامية)

- World Muslim Gazetteer , 1975 , Edition

-U N. Demographic Yearbook, 1979, N. Y., 1974

الحواشــي

(1) Jarrett, H. R., (1970), P. 7.

(٢) بلغ عدد الدول ٤٦ (٢٦ إسلامية + ٢٠ غير إسلامية)، بدون الجزر الصغيرة المحيطة بالقارة فيا عدا مالاجاش.

(٣) مساحة العالم الإسلامي ٢ر٣١ مليون ك. م مربع (١٢ ميل مربع)، إفريقيا الإسلامية ٧ر١٨ مليون ك. م مربع.

(٤) عن / دائرة المعارف الإسلامية / مجلد ٢ ، ص ٦٤٩ .

(٥) جدول (١) ـ عن/ تقويم العالم الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(6) World Muslim Gazetteer, 1975.

(٧) عبدالرحمن زكي ، (١٩٦٥)، ص ٧٦ .

(٨) إبراهيم طرخان ، (١٩٧٠) ، ص ٤٣ .

(٩) هو الاسم الذي يطلقه المسلمون في كل قطر على عقيدتهم، ومعنى هذه الكلمة هو الخضوع أو الاستسلام لله، وقد وردت في القرآن ثماني مرات. عن/ دائرة المعارف الإسلامية، ص ص ١٤٩.

(١٠) محمد الصواف ، (١٩٧٥) ، ص ٣٧ .

(١١) غزيت إفريقيا ثلاث غزوات : سنة ٣٤ هـ ، سنة ٤٥ هـ ، والثالثة سنة ٥٠ هـ على يد عقبة بن نافع، الذي دفع بالإسلام إلى غرب القارة وأوروبا ـ عن/ الصواف، (١٩٧٥)، ص ٤٠.

(١٢) انظر : جمال حمدان ، (١٩٧١) ، ص ٥٢ ـ ٥٨ .

(١٣) محمود أبو العلا ، (١٩٦٨)، ص ص ٣١ ـ ٣٣، عبدالعزيز كامل، (١٩٦٦م)، ص ص ٩٥ ـ ٩٧.

(١٤) انظر: أحمد فخري، تاريخ شبه جزيرة سيناء، ص ٦٧، من/ موسوعة سيناء التي أصدرها المجلس الأعلى للعولم في عام ١٩٦٠، القاهرة، وبها أربع عشرة دراسة عن شبه الجزيرة.

(15) Trimingham, J. S. in : Lewis, I. M., (ed.), (1960), PP. 127-130.

(١٦) راجع ما يلي : عبدالعزيز كامل، (١٩٦٩)، ص ص ٩٩ ـ ١٠٢.، عبدالرحمن زكي، (١٩٦٥)، ص ص ٦ ـ ١٧، حسين إبراهيم، (١٩٦٤)، ص ص ٩ ـ ١٥، جمال حمدان، (١٩٧١)، ص ص ٥٤ ـ ٥٥، ترمنجهام، ترجمة النواري، (١٩٧٣)، ص ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(17) Trimingham, op. cit.

(١٨) عبدالعزيز كامل ، (١٩٦٦) ، ص ١٠٠ .

(19) Bovill, E. W., The Golden Trade of The Moors, O. U. P., 1961, P. 234.

عن / ـ عبدالعزيز كامل ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .
ـ عبدالرحمن زكي ، (١٩٦٥) ، ص ١٧ .

(٢٠) عبده بدوي ، (١٩٧٠) ، ص ٨ .

(٢١) انظر : حسن إبراهيم ، (١٩٦٤) ، ص ٩ .

(٢٢) ترمنجهام : ترجمة النواوي ، (١٩٧٣) ، ص ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(23) Yusuf Fadl, in : Lewis, I. M., (1960), PP. 145-146 .

(24) Davidson, B., Old Africa Rediscovered, London, 1961, p. 63.
عن / عبدالعزيز كامل ، (١٩٦٦) ، ص ١٠٢ .

(25) World Muslim Gazetteer, 1975, P. 25 .

(٢٦) انظر : جدول (٣) .

(27) (Africa, The Muslim Centinent.) Dvidson, Op. Cit., P. 165.

(٢٨) انظر: خريطة «لابلاش» (La Blach) الشهيرة عن طرق القوافل وموانئ الصحراء في العالم العربي.
عن / جمال حمدان ، جغرافية المدن، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٣٠٨ .

(٢٩) جمال حمدان ، (١٩٦٦) ، ص ٢٦٨ .

(٣٠) جمال حمدان ، (١٩٧١) ، ص ص ١٧ ـ ١٨ .

(31) Kamel, A. A., (1965), P. 142 .

(٣٢) محمد الصواف ، (١٩٧٥) ، ص ٤٥ .

(33) V. McKay, in : Proctor, J. Marns, (Ed.), 1965, P, 161.

(34) Fage, J. D., (1955), PP. 10-16.

(٣٥) محمد الصواف ، (١٩٧٥) ، ص ٤٥ .

(٣٦) انظر : الجداول / ١ ـ ٢ ـ ٣ / .

(٣٧) تقويم العالم الإسلامي ، ص ص ٢٠ ـ ٢٦ .

(38) World Muslim Gazetteer, 1975, P. 7.

مثال عن التضارب وعدم الثقة بالأرقام: قدر عدد المسلمين في العالم في بداية القرن العشرين سنة ١٩٠٧ بـ ٣٠٠ مليون نسمة، وهو نفس الرقم الذي قدروا به في منتصف القرن. كما لو أن السكان ظلوا ثابتي العدد دون زيادة لفترة ٥٠ عاماً، في حين أن «الهاشمي» قد قدرهم في كتابه بـ ٥٥٠ مليون نسمة سنة ١٩٥٧، وليس من المعقول أن يزداد المسلمون ٢٥٠ مليون نسمة في فترة ٧ سنوات بالنسبة إلى تقدير عددهم هذا.

(٤٠) انظر : الجداول (١) ، (٢) ، (٣) .

(41) World Muslim Gazetteer, 1975 .

(٤٢) يوضحها جدول (٣) ، فقرة (١) ، (٢) .

(43) Gunther, J. (1955), P. 150 & P. 249 .

(44) Trimingham, S., (1952), P. 15 .

(٤٥) انظر جدول (٣) .

(٤٦) جدول (٣) ، (الدول : الجابون ، مالاوي ، أوغنده) .

(٤٧) انظر : سليمان خاطر ، مدن شمال إفريقيا ، دراسة تحليلية.
ـ مجلة البحوث والدراسات العربية ـ معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، العدد الثامن.

(48) Bowman, I., (1944), PP. 164-165 .

(49) Demographic Yearbook, 1962, Table 2, P. 124 .

المصـادر

أولا : المصـادر العـربية :

١ ـ إبراهيم علي طرخان: إمبراطوية غانة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠، الفصل الثاني، ص ص ٤١ ـ ٥٠، «غانة الإسلامية».

٢ ـ إبراهيم علي طرخان : دولة مالي الإسلامية، القاهرة ١٩٦٩ .

٣ ـ جمال حمـدان: إفريقيا الجديدة، القاهرة ، ١٩٦٦.

٤ ـ جمال حمدان : العالم الإسلامي المعاصر، القاهرة ،١٩٧١ .

٥ ـ جمعية الدراسات الإسلامية : تقويم العالم الإسلامي ، القاهرة ١٩٧٠.

٦ ـ حامد عمار: علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية، (رسالة غير مطبوعة).

٧ ـ حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، القاهرة ١٩٦٤، (الطبعة الثانية).

٨ ـ حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعربية فيما يلي الصحراء الكبرى وشرقي القارة الإفريقية وغربها، القاهرة ١٩٥٧.

٩ ـ حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، القاهرة ،١٩٦٣، (الجزء الأول ـ الطبعة الثانية).

١٠ ـ «دائرة المعارف الإسلامية»: الترجمة العربية عن الأصل الإنجليزي، نقلها إلى العربية: (محمد ثابت الفندي ـ أحمد الشنتناوي ـ إبراهيم زكي خورشيد ـ عبدالحميد يونس).

(The Encyclopedia of Islam, Leiden, 1960)

(Vol, I & II, London, 1969, (Luzac & Co.)

(Vol. III, Paris, 1971.)

١١ ـ زاهر رياض : الإسلام في إثيوبيا ، القاهرة ، ١٩٦٤.

١٢ ـ سبنسر ترمنجهام : الإسلام في شرق إفريقيا ، ترجمة وتعليق: محمد عاطف النواوي، القاهرة، ١٩٧٣.

١٣ ـ سليمان خاطر : مدن شمال إفريقيا ، دراسة تحليلية . مجلة البحوث والدراسات العربية ـ معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، العدد الثامن.

١٤ ـ سليمان خاطر : إفريقيا الإسلامية، دراسة للدول الإسلامية والمسلمون أفريقيا. «إفريقيا». مجلة معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٧٦.

١٥ ـ صابر طعيمه : الإسلام ومسكلات السياسة، بيروت، ١٩٧٤.

١٦ ـ عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في سرق إفريقيا ، القاهرة، ١٩٦٥ (مجموعه محاضرات ألقيت في معهد الدراسات الإسلاميه).

١٧ ـ عبدالرحمن زكى : المسلمون في العالم اليوم، (خمسة أجزاء)، القاهرة ، ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ .

١٨ ـ عبدالعزيز كامل : «وجهة الإسلام في القاره الإفريقية»، السياسية الدولية، يناير ١٩٦٦، السنه الثانية ص ص ٩٤ ـ ١١١.

١٩ ـ عبده بدوي : مع حركة الإسلام في إفريقيا، «دراسه من خلال الدول التي قامت قبل الاستعمار، القاهرة، ١٩٧٠.

٢٠ ـ فتحي غيث : الإسلام والحبشة عبر التاريخ، القاهره، ١٩٦٠.

٢١ ـ محمد صبحي عبدالحكيم: «خريطة إفريقيا السياسيه في السنوات العشر الأخيرة (١٩٥١ ـ ١٩٦٠)» الجمعية الجغرافية المصريه/ المحاضرات العامة ـ الموسم الثقافي لسنة ١٩٦١.

٢٢ ـ محمد محمود الصواف: رحلاتي إلى الديار الإسلامية، القسم الأول: إفريقيا المسلمة، بيروت، ١٩٧٥.

٢٣ ـ محمد وطه أبو العلا: جغرافية العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٨، (الطبعة الرابعة):
(الفصل الأول: العالم الإسلامي ، ص ص ١ ـ ١٢).
الفصل الثاني: القارة الإفريقية، ص ص ٣١ ـ ٣٩).

٢٤ ـ مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٠، (الفصل السابع: انتشار الإسلام والثقافة العربية في النوبة، ص ص ١٤٢ ـ ١٨٣).

٢٥ ـ هوبير دسان : الديانات في إفريقيا السوداء ، القاهره ، ١٩٣٥.

٢٦ ـ يوسف أحمد : الإسلام في الحبشة ، القاهرة ، ١٩٣٥ .

ثانيا : المصادر الأجنبية :

1 - Baulin, J., The Arab Role in Africa, Penguin African Library, 1962.

2 - Boyd, Andrew, An Atlas of World Affairs, New York, 1962, (4th. Ed.).

3 - Boeman, I., "The Mohammedan World", The Geographical Review, Jan, 1944, PP. 164-65.

4 - Fage, J.D., An Atlas of African History, London, 1958 .

5 - Fage, J D., An Introduction to the History of West Africa, Cambridge, 1955.

6 - Gunther, J., Inside Africa, London 1955 .

7 - Hazard, H. W., Atlas of Islamic History, U. S. A., 1954.

8 - Hashmi, A. A., Muslems in the World, Begun Aisha Bawamy, Educational Trust, Karachi, 1957.

9 - Horrabin, J. F., An Atlas of Africa, New, 1961, (2nd. & Rev. Edition).

10 - Jarrett, H. R., Africa, London, 1970.

11 - Kamel, A. A., "The Face of The Moslem World", Bul. Soc. De. Geog. d'Egypte, 38, 1965. PP. 129-153.

12 - Lewis, I. M., (Ed.) , Islam In Tropical Africa, London, 1960.

  A) - Trimingham, J. S., The Phases of Islamic Expansion and Islamic Culture Zones in Africa, PP. 127-143.

  B) - Yusuf Fadl Hasan, The Penetration of Islam in the Eastern Sudan, PP. 144-159.

  C) - Stevenson, R. C., Some Aspects of the Spread of Islam in Nuba Mountains, PP. 208-232.

13 - Proctor , J. Harris, Islam and International Relations, London, 1965.

  A) - Majid Khadduri, The Islamic Theory of International Relations, PP. 24-39.

  B) - Vernon McKay, The Impact of Islam on Relations Amongthe New African States, PP. 158-193.

14 - Prothero , R. M., (Ed.) , A Geography of Africa, London, 1973.

15 - Trimingham, J. Spencer, A History of Islam in West Africa, London, 1970.

16 - Trimingham, J., A History of Islam In East Africa, Oxford, 1964.

- Trimingham, J., A History of Islam in Ethiopia, London, 1952.
- Spencer, Islam in The Sudan, London, 1949.

17 - "World Muslim Gaztter", 1975 Edition .
(Khalid Ikramullah Khan, Editor, Umma publishing House, Karachi, Pakistan.) - (Al-Karimi Press)

18 - Worldmark Encyclopaedia of the Nations, New York, 1963.

19 - United Nations, Demographic Yearbook, New York, 1962, & 1973.

المسالك والدروب التى انتشر عليها الإسلام

امين النفـورى

مقدمة :

إن تناول أى موضوع وفهمه وتقديمه يختلف ونظرة كل باحث إلى الموضوع نفسه تبعا للجانب الذي يرى المبحث فيه مفيدا، وعلى هذا فإن فهمنا الذاتي وإدراكنا لهذا الجانب من المبحث أو ذاك بنطلق من الأوليات الأساسية التالية في نظرنا مع عدم المغالاة في العوامل الاقتصادية التي دفعت العرب إلى الانسياح في البلدان المجاورة والممالك حسبما تراه بعض المدارس التاريخية في البلاد الغربية، والتي لا تريد أن تعطي للانتشار الإسلامي في تلك الرقع الجغرافية المتمادية البعد الروحي الصحيح، والمدى الإيمانى ـ التوحيدي الذي قامت عليه الدعوة الإسلامية في نفوس معتنقي الدين الجديد.

إن هذه الأوليات الأساسية هي :

١ ـ **العقيدة الإسلامية** : أبرها ومستلزماتها الايمانية والجهادية من المسلمين لنشر الدين الجديد وفق السنة والتنزيل.

٢ ـ **معنى الهجرة**، وتأسيس دار إسلام مكينة، والاستعداد لمجابهة دار حرب مجاورة، وتبليغ الدعوة، وتوجيه الكتب والوفود إلى قيصر وكسرى والمقوقس وغيرهم من الحكام، مما يعتبر دليلا لمن خلف النبي صلى الله عليه وسلم لإتمام الدعوة وتبليغ الرسالة على هذه الاتجاهات الجغرافية والدولية. فلم يكن على من أتى من بعده من الخلفاء إلا نشر الإسلام على هذه الاتجاهات التي حددتها رسائل النبي إلى الملوك. فكان لكل خليفة أسلوب للوصول إلى هذه الغاية.

٣ ـ الثوابت والمهيمنات في نشر الإسلام:

الدعوة لعبادة الله الواحد القهار، ونبذ الشرك والوثنية والدنيوية، وإخراج الناس من عبودية العبد، ونشر هذه الدعوة وتبليغها إلى الناس كافة بالحكمة والأسوة والموعظة الحسنة ولا انقطاع في تبليغ الدعوة.

٤ ـ أثر التنظيم الاجتماعي للجماعة الإسلامية في السلم والحرب: ومفاهيمها الدينية والحياتية المترسخة في نفوسها وعقولها وممارستها، وانقطاع المسلمين في أول الأمر في مهاجرهم وأمصارهم البعيدة إلى الجهاد دون الانصراف إلى الاقتناء أو العمل في الزراعة والتجارة وإشادة البنيان.

٥ ـ الوسائل لنشر الإسلام وأهمها: الجهاد بأنواعه، ويتوخى في النهاية الحسم الحضاري اجتماعيا وروحيا ولغويا بحكم اتباع كتاب الله.

٦ ـ المتغيرات : قوة الحكم الإسلامي وطاقاته، وما يطرأ عليها من عوامل القوة والضعف في الزمان والمكان باعتبارها المنفذ لغرض الجهاد وفق الوسائل السلمية والحربية المتوفرة لدى الحكم للاستمرار في الدعوة، وحسب طبيعة العدو ومجتمعه ونظامه السياسي ووسائطه المقابلة يتطلب الحسم الحضاري خوض الصراع المسلح الفاصل مع خصوم الدعوة ومعانديها وما نعي انتشارها، وذلك على الاتجاه الرئيسي الفاصل، وذلك بعد الإعذار والإنذار لهم ودعوتهم لشروط الإسلام.

يتولى ذلك أمرة واعية وقيادة مدبرة من أهل الحل والعقد، والذين يصدرون في آرائهم عن مشورة عامة فيما بينهم، ومداولة حرة في أمورهم وشؤونهم، حيث تنفذ متطلبات الدعوة وأغراضها تبعا لظروف الزمان والمكان وأحوالها، ويطبق أوامر ونواهي الدعوة المبينة في السنة والكتاب. رجال مؤمنون أقوياء بطاقاتهم الروحية والنفسية، وأسلحتهم المادية الفردية والجماعية، راجلين وراكبين، ينتظمون في القتال، ويقفون على مراتبهم في الصفوف أثناء الحرب حسب ترتيبهم في الديوان، ووفق نظام مواضعهم في القبائل، ولكل منهم ما يكفيه من العطاء، وما يصيبه الجميع من الغنائم والفيء في المعارك.

٧ ـ لقد كان للعوامل الجغرافية، وطبيعة الأقاليم التي انتشر عليها الإسلام ومناخها، ونوعية الأقوام والشعوب والأمم، ودياناتها المتوضعة على تلك الدروب والمسالك التي انتشر عليها الإسلام في الشمال والشرق والغرب حول الجزيرة العربية أثر كبير في تيسير نفوذ الدعوة أو تأخر دخولها إلى تلك المناطق والأصقاع حسب طبيعة الأرض وسكانها.

٨ ـ ولابد أن نذكر أثر القوى الدولية والعالمية في تلك الفترة، والتي وقفت على طريق الإسلام تصده وتمنعه كالروم والفرس والترك والبربر وغيرهم.

٩ ـ وأخيرا لا معدى لنا من أن نبين الأثر الكبير في نقل القبائل العربية وتوطينها الأمصار البعيدة لترسيخ الدين في تلك الأقاليم حسبما بدر من تلك القبائل من سلوكية أخلاقية ودينية واجتماعية وقدوة، إن عدلا وتسامحا ومساواة أو جورا واستعلاء وعصبية تبعا لسلوكية الولاة والعمال في تلك الأقاليم.

«تحديد اتجاه نشر الدعوة»

١ ـ في العهد النبوي :

بعد أن أذن للرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى يثرب عزم على إقامة دار إسلام في المدينة، يمتنع بها المؤمنون عن طغيان المشركين وبغي الكفار بالهجرة إليها، ونشر الإسلام في المدينة وما حولها من القبائل المجاورة، وعقد المحالفات والموادعات مع القبائل الضاربة ما بين مكة والمدينة على طريق قوافل قريش، ومنابذة المشركين وقتالهم، وتوجيه الرسل لدعوة ملوك الدول والأمم المجاورة إلى الدخول في الإسلام بعد أن يتم التمكين بصورة نهائية للإسلام في الجزيرة العربية، وإرسال السرايا والحملات لنشر الدعوة على الحدود الشمالية للجزيرة، ورد العدوان البيزنطي عن الحدود الإسلامية لإعاقتهم سير الدعوة الإسلامية.

وكان النبي في كل ذلك هو الذي يعين اتجاه السرايا والحملات للدعوة إلى الإسلام والتوحيد، بدءا من بدر وفتح مكة وحنين وانتهاء بتبوك ووادي القرى ومؤتة.

٢ ـ في عهد الخلفاء الراشدين :

كان الخليفة وكبار الصحابة يقررون في المسجد الاتجاه الذي تسير عليه الحملات لنشر الدعوة، ويعين الخليفة الوجه الذي يسير إليه المسلمون. وبعد وفاة الرسول الكريم كان الهدف الرئيسي للخليفة الحفاظ على وحدة العقيدة الإسلامية وسلامتها في الجزيرة العربية

بالقضاء على المرتدين أولا، تم التصميم على نشر الدعوة باتجاه الشرق نحو فارس وباتجاه الشمال صوب الروم انطلاقا من يثرب قاعدة العمليات الأولى نحو الإمبراطوريتين الكبيرتين.

كان المحور المبدئي لغزو فارس المدينة ـ العراق مع البدء بأخذ ثغر الهند وهي الأيلة، وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم، وتعويد العرب المسلمين على مناجزة الفرس، ـ وقد كان أكره وجه وأثقله على العرب ـ وضعضعة مسالح فارس في العراق التي دون الفرات حتى الطف، واستمالة العرب المقيمين في الحيرة وضواحيها، تم التوجه على الأراضي ما دون دجلة إلى البادية، والإقامة في الحيرة بعد تدمير كل هذه المسالح والمناظر الفارسية والسيطرة عليها، وإسكان العرب المسلمين فيها، ثم عبور الدجلة والاتجاه نحو قلب السواد لحيازة محاصيله، وزعزعة النظام الإداري والجباية الفارسية، وإخضاع الدهاقين في الرساتيق في قرى السواد للشروط الإسلامية.

ولابد لفهم هذه الفترة وما تلاها وللتعرف على الطرق والاتجاهات التي انتشر عليها الإسلام في فارس ذكر نبذة مختصرة عن تنظيم الثغور الفارسية في تلك الفترة، لأنها كانت الطريق الذي اتبعه المسلمون في فتوحاتهم.

«النظام الحربي الفارسي» :

لقد أنشأت مملكة الفرس خلال قرون متعاقبة سلسلة من الثغور، أقيمت فيها الروابط والمدن المحصنة من حدود الصين والهند وما وراء النهر إلى الديلم وطبرستان والأبواب والبحر الأسود، حتى الجزيرة الشامية والأبلة والبحرين وعمان.

وأقام الفرس إزاء القبائل العربية التي كانت تغير على أرض السواد بين الفينة والفينة خندقا كبيرا، يمتد حتى حدود البادية، وقد حفر منذ زمن الملك سابور، ابتدأ من هيت وعانات على الفرات إلى كاظمة مما يلي الأبلة والبصرة.

وكان لشق هذا الخندق طف البادية وعليه المسالح والمناظر ليكون مانعا لأهل البادية من العرب من الغارة على السواد.

وكان حول المدائن محلة الملوك في كوثي وسورا ودير المسالح.

أما المسالح التي كانت بإزاء الجزيرة العربية فهي:

١ ـ ثغر الهند وفيه أكثر من خمس مسالح ، أسهرها الأبلة.
٢ ـ مسالح الحيرة ومنها خندق سابور، وفيها عدد كبير من المسالح ، ورابطة كثيفة من الخيل في ألف رجل. تسرف على المسالح بين فارس وبين العرب.
٣ ـ عدد من الأديره المحصنة، يبلغ عددها أكثر من سبعة أديرة.
٤ ـ عدد من القصور المحصنة، يبلغ عددها أكثر من ستة قصور.
٥ ـ مناظر الطف ، وأكثرها حصون وأديرة.
٦ ـ مسالح كربلاء والأنبار، وأهمها حصن عين التمر، وكان بها مسلحة عظيمة، ورابطة خيل كثيفة.
٧ ـ مسالح كوثي والعذيب في البربة، وتسرف على الأرض ما بين القادسية والعزيب.
٨ ـ امغيشيا، ومن مسالحها أليس .
٩ ـ ثغر السيب. وكان بالفرات عسكر للأعاجم ، بالموصل رابطة من الجند الهمزانيين. ومع أن ثقل الجهاد الإسلامي كان يتجه إلى الشرق صوب فارس وإلى الشمال نحو الروم إلا أن مركز الثقل الرئيسي كان يميل دوما نحو الفرس، لأنهم شعب شرقي يخيم على تخوم الجزيرة العربية، وفي جوارها في عمان والبحرين وهجر واليمن، ولاسيا وأن المجوسية والماثوية كانت فاسية في فارس وتلك الأصقاع، مما يهدد بالخطر الدين الإسلامي، ولأن مادة الفرس في العراق وفي أقاليم فارس القريبة من العراق.

أما الروم فهم شعب عارض لا جذورلهم في المشرق، وأكثر ما حولهم في الشام من القبائل العربية التي تؤول في آخر الأمر إلى الدخول في الإسلام، ولأن مادة الروم فيا وراء خليج القسطنطينية.

فكان الجهد الأساسي منصبا على تخليص بلاد الشام من الروم وحفظها وحمايتها، بالوصول إلى الدروب والمعابر فيا وراء جبال طوروس، دون الطمع أول الأمر في القضاء على بيت ملكهم ودولتهم في القسطنطينية.

وعندما وجه الخليفة أبو بكر رضي الله عنه الجيوش إلى الشام من معسكر الجرف حول المدينة عين لكل أمير اتجاها يصل إليه، ومدينة يتمركز فيها ويقطنها بعد الفتح مع عسكره وعيالاتهم، إذ إن القبائل العربية كانت تنتقل في مسيرها نحو فارس والروم بأثقالهم وذراريها.

وكما يذكر التاريخ في صفحاته فقد وجه الخليفة عمرو بن العاص إلى فلسطين على طريق المعرفة، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق على طريق التبوكية، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وأبا عبيدة بن الجراح إلى حمص، على أن يحمي هذه الأرتال السائرة ردئ يتمركز في تيماء.

وهكذا كان انتشار الإسلام على الطرق البرية المفضية إلى الشام، وفي قسمها الصحراوي الداخلي.

وكانت وقعة أجنادين ودخول دمشق، ثم معركة اليرموك للسيطرة على مناطق الشام الداخلية، تمهيدا لنشر الدعوة في شمال الشام وسواحلها فيما بعد انطلاقا من القاعدة العسكرية الكبيرة في الجابية على بعد ٩٠ كيلو مترا جنوب دمشق.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه استمرت تقوية جبهة العراق وجبهة الشام، غير أن الشام في تلك الفترة أصبحت مسرح الحرب الرئيسي، حيث ركز العرب جهودهم الحربية فيها، ولاسيما بعد انهزام الروم في اليرموك.

فطلب الخليفة من أبي عبيدة أن يتوجه إلى دمشق، لأنها حصن الشام وبيت مملكة الروم فيها، وأن يتم قبل كل شيء فتح الشام الداخلية، ثم تتوجه الجيوش إلى شمال الشام إلى أن تصل إلى الدروب لمنع الروم من دخول الشام وحفظ تخومها الشمالية. وبعد ذلك تعطف الجيوش إلى فلسطين والساحل ولاسيما القدس.

ولم يدع الخليفة للروم فرصة لالتقاط أنفاسهم، فوجه حملة لمصر لقطع المادة عن الروم في القسطنطينية، لكيلا يتقووا على حرب المسلمين في الشام. ولما فتح عمرو بن العاص مصر أوصاه الخليفة أن يقف عند حد إفريقيا في برقة، وأن يتخذ منزل جهاد ودار هجرة في الفسطاط، يقطن فيها المسلمون بقبائلهم وذراريهم، وسارت بعض السرايا باتجاه النوبة منطلقة من الفسطاط والفيوم. ولكي يتوطد سلطان الإسلام في الشام كان لابد من عزل الروم

عن الوصول إليها، وذلك بتنظيم الأجناد فيها، وإقامة الروابط في الحدود، وتحصين السواحل والثغور بالمسالح، ونقل الحرب إلى الروم والجهاد فيهم خارج الحدود بالصوائف والشواتي المتوغلة في بلادهم من الجزيرة وأنطاكية لتثبيت دار الإسلام في سورية، بفضل تلك الحرب الوقائية الدائمة التي استمرت حتى أواخر العهد الأموي وتتابعت في العصر العباسي.

ولم تتبدد جهود الإسلام وتضعف قوة اندفاعه على الرغم من انشغاله في مسرحي حرب متباعدين في العراق والشام، بل كان التنسيق تاما بين أعمال الجهاد في الجبهتين، وانتقل مركز الثقل من اليرموك إلى القادسية بعد أن توطدت السلطة الإسلامية على طول مجرى الفرات الأعلى والأدنى خلال «الأيام» والوقائع في الجسر والبويب والأبلة، فكانت القادسية وجلولاء تتويجا للجهاد الطويل الذي عاناه العرب وقبائلهم خلال عدة سنوات في صراعهم مع الفرس على تخوم الجزيرة الشرقية.

وكان عبور الدجلة إلى المدائن والأبواب بيت ملك الفرس والأكاسرة المرحلة الأولى الحاسمة لبسط الإسلام في تلك الربوع، ولاسيا بعد أن أمر الخليفة بأن يتخذ المسلمون في العراق دار هجرة ومنزل جهاد للقبائل المتوافدة في الجزيرة العربية.

فكانت البصرة والكوفة التي وصفها الخليفة عمر بأنها رمح الله وقبة الإسلام وجمجمة العرب، لكثرة من فيها من القبائل العربية العزيزة الجانب من أهل البأس والنجدة والحجى ومن أعلام العرب.

ورأى الخليفة عمر بعد القادسية أن يتريث المسلمون في الفتح ريثما يستقرون فيما فتح الله عليهم من الأرضين، وأن يحكموا أمرها، وأن تقام رابطة في جلولاء تكون بإزاء العجم، لتدفع عن المسلمين المقيمين بالكوفة، وأن يتم فتح أعلى وادي الفرات حتى يصل إلى الجزيرة الشامية. وكانت الكوفة قاعدة عمليات ومنطلق جهاد نحو الموصل والجزيرة وأذربيجان والباب، وكانت منطقة فارس تشكل الأقليم الجنوبي من مملكة الأكاسرة، وتعد أعظم الأقاليم أهمية وخطرا في المملكة، ففيها كرمان وكورها، ثم فارس وكورها، وأشهرها:

إصطخر، جنديسابور، شيراز، الرجان، جور، الأهواز ـ السوس، نهر تيرى، مناذر، تستر، إيذج، رام هرمز.

وكان ملك الفرس يزدجرد مايزال يبعث في كل عام حربا على المسلمين، ولاسيما بعد تجمع الفرس وتكتيف حشودهم في نهاوند، فاستقر رأي الخليفة بعد مشاورة الصحابة أن يأذن للمسلمين بالانسياح في أرض العجم حتى يغلبوا يزدجرد على ما كان في أيدي كسرى من الأراضي ويخرجه من مملكته لكي ينقطع رجاء أهل فارس.

فجعلت رابطة من قبل المسلمين على حدود فارس والأهواز، ورابطة أخرى في تخوم أصبهان وفارس، لتقطع هذه الروابط إمداد أهل فارس عن عسكر العجم في نهاوند، وكانت معركة نهاوند أو فتح الفتوح المعركة الفاصلة مع العجم. انطلق منها العرب لتوطيد سلطان الإسلام في كل إقليم فارس وفي إقليم الشمال وكوره: طبرستان، الري، قزوين، زنجان، ثم أصفهان، همدان، نهاوند، الدينور، حلوان، ماسبازان، شهر زور، الصامغان، أذربيجان. ثم في أجزاء متعددة من إقليم المشرق العظيم المتمثل في خراسان وكوره الكثيرة والبعيدة، وانفتح بذلك طريق الإسلام نحو حدود السند وسجستان وإلى أقصى خراسان، وطبرستان والديلم وخورازم شمالا، وإلى إرمينه وأذربيجان والأبواب وبلنجر غربا.كان الخليفة عمر يهتم بالحفاظ على الأقاليم المفتوحة وحيطتها من بغتات العدو ومفاجآت غاراته على الثغور، ولاسيما على الطرق النافذة إلى دار الإسلام، فقد اهتم بإقامة الروابط من الخيل لهذا الغرض، فاتخذ في كل مصر خيولا لتكون عدة لمجابهة الطوارئ المباغتة، فكان بالكوفة أربعة آلاف فرس وبالبصرة نحو منها، وفي كل من الأمصار الثمانية على قدرها، فإن نابتهم نائبة ركب قوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس لمجابهة الأحداث.

وكانت ثغور الكوفة قبل نهاوند حلوان، ماسبازان، الموصل، قرقيسيا.

لقد كان لطبيعة الأراضي في فارس وغيرها أثر كبير في إعاقة الفتح بصورة تامة، مع الجهل بجغرافية تلك المناطق الوعرة وصعوبة الحياة في بعضها.

ولا أدل على ذلك مما تذكره كتب التاريخ لتلك الفترة بعد أن فتح الحكم بن عمرو التغلبى مكران على ساحل بحر الهند في خلافة عمر بن الخطاب، فبعث صحارا العبدي إلى عمر بالخبر والمغانم والفيله، فسأله الخليفة عن الوجه الذى جاء منه، فقال صحار: يا أمير المؤمنين، أرض سهلها جبل، وماؤها وشل، وثمرها دقل، وعدوّها بطل، وخيرها قليل، وشرها

طويل، والكثير فيها قليل، والقليل صنائع، ما وراءها شر منها. فقال عمر: أسجاع أنت أم مخبر؟ قال: لا بل مخبر. في سنة ٢٢ هـ توجه أهل الكوفة إلى الري وقومس وجرجان وطبرستان وأذربيجان والباب وبلنجر، وتوجه أهل البصرة إلى توج وإصطخر وهمذان وكرمان وسجستان ومكران، وخرج أهل البصرة مع الأحنف بن قيس إلى أصبهان وهراة ونيسابور وسرخس ومرو، بينما قدم أهل الكوفة وسارو إلى بلخ، وعلى المصرين الأحنف بن قيس، فاستعان يزدجرد بالترك وأهل الصغد، فعبروا النهر إلى بلخ، وعاد المسلمون مع الأحنف إلى مرو حيث ابتدأ الصراع الطويل الدموي بين العرب والترك فيما وراء النهر، واستمر بعد سقوط الدولة الأموية.

وفي عهد الخليفة عثمان تابع المسلمون توطيد سلطانهم في أرض فارس وسجستان وبعض أقاليم خراسان والديلم وطبرستان، ومعالجة الانتفاضات الموضعية فيها دون أن يتجاوزوا نهر الشاش، وتبسطوا في أذربيجان وأرمينية للصوائف والشواتي التي كانت تنطلق من الكوفة والموصل والجزيرة الشامية باتجاه هذين الإقليمين، وبلغوا باب الأبواب (الدربند) وبلنجر وما وراءها، وكانت قاليقالا في الأناضول قاعدة لغزو الأبواب، وبعد أن كان نفوذ الإسلام إلى دار الحرب بالطرق البرية أصبح طريق البحر وركوب الأساطيل من المسالك الجديدة لنشر راية الإسلام وحماية السواحل الشامية والمصرية والإفريقية من غارات الأسطول البيزنطي. ونشأ أسطول قوي في عكا والإسكندرية، أشرف عليه الوالي معاوية بن أبي سفيان، ثم الخليفة بعد ذلك.

فكانت الصوائف والشواتي البرية والبحرية الأداة الحربية لمجابهة مقاومي الدعوة الإسلامية باتجاه القسطنطينية وجزر البحر المتوسط.

وقد سمح الخليفة باجتياز حد برقة والتوغل في إفريقيا على الطريق الوحيد المفضي إلى مدن محصنة وحولها بقايا الروم وقبائل البربر الكثيرة العدد، وقد لاقى العرب من البربر مقاومة شديدة، فكان في إفريقيا قبائل كثيرة، أشهرها: لواتة في أجدابية من جبال برقة، والمصالون في طرابلس، وهيلة غربي طرابلس، وبرهسانة في القيروان، وكتامة في تاهيرت، ونفوسة في سجلماسة، ومكناسة في طنجة.

وكانت درا مملكة زناتة في المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان، وفيها أكثر من ثلاثين بطنا، مثل كتامة، مصحودة، هوارة.

وبعد مقتل عثمان ركدت الهمم في التوجه إلى العدو الخارجي، ووجه العرب شوكتهم فيما بينهم في فتنة دامت زمنا، وانتهت بإقامة ملك سيده معاوية، قامت على أثره الدولة الأموية.

كانت خطة معاوية استئناف الفتح بعد إبعاد خطر الروم عن أرض المسلمين، فباشر بتحصين السواحل الشامية والمصرية وتدبير الثغور والمرابطة فيها، وإعداد أسطول ما بين عكا والإسكندرية، وغزو أرمينيه، وإقامة قاعدة فيها تغطي مجنبة الصوائف والحملات باتجاه القسطنطينية، والغزو على الدروب من الثغور الشامية الشمالية عبر الدروب باتجاه القسطنطينية، وفتح الجزر باتجاه السواحل الشامية، وإشغال الروم في إفريقيا، وفتح جربة وتونس .

وقد اهتم معاوية بالثغور الشامية في أنطاكية والجزيرة، لأنها كانت طريق الصوائف والشواتي إلى بلاد الروم وأرمينيه وأذربيجان والأبواب.

فكان جند قنسرين يتولى حماية هذه الثغور التي تنطلق منها الصوائف والشواتي البرية إلى الروم عبر دروب بغراس ودرب الحدث، وكان لأنطاكية مسلحة قورس وطرسوس، وكانت دابق قاعدة الغزو إلى الروم بعد أن انتقلت القاعدة من الجابية، وكان ينطلق للصوائف أيضا من الكوفة وقرقيسية والجزيرة والرها.

وكانت قواعد الغزو للروم في الجزيرة الشامية تتمثل في بالس على الفرات والرقة وملطية ومرعش الحدث وشمساط ، كما توجه الحملات من الجزيرة أيضا باتجاه أرزن وبدليس وخلاط وأرمينيه. ومنذ سنة ٣٢ هـ فتح عبدالله بن عامر والي الكوفة والبصرة أجزاء كبيرة من خراسان: مرو الروذ، الطالقان، الفرياب، الجوزجان، طخارستان، ونيسابور، وطوس حتى بلغ سرخس.

فقد انطلق ابن عامر من البصرة إلى كرمان، ثم إلى الطبس ونيسابور وطوس وأبيورد ونساو وبيهق وهراة.

وكثرت ساحات الجهاد على العرب والمسلمين، وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الأموية، فكانت الأجناد تستنفر في الأمصار لتوجيهها إلى الثغور من السند وسجستان وخراسان شرقا إلى أرمينه وأذربيجان والأبواب وبلنجر والقسطنطينية شمالا، وإلى إفريقيا وجزائر المتوسط

غربا، وإلى النوبه والبجة جنوبا. فكان يحسد المسلمون باستنفارهم كافة أول الأمر، أو بندبهم، أو بضرب البعوث عليهم وقطعها، أو بانتخابهم من بن الناس في الأمصار، أو بإخراجهم وحسرهم للجهاد، أو بالفرض لهم وتعيين جعالة تكفيهم للسير إلى عدو الإسلام وذلك بأمر الخليفة أو العامل.

فكان الخلفاء بضربون البعوث على الأمصار وعلى الأجناد لتتوجه إلى أرض العدو.

وكانت مغازى كل مصر واتجاه جهاد وتحرك الأجناد في كل قطر والجهة التي ينبغي أن يسيروا إليها معروفة تماما في العهد الأموي.

فكان أهل الكوفة والبصرة يوجهون إلى خراسان وسجستان وأذربيجان وأرمينية.

وأهل السام إلى بلاد الروم وأرمينيه وأذربيجان وإفريقيا والأندلس، ويدعمون أمصار العراق وأجنادها في غزوهم للمسرق من السند إلى خراسان، وكان مغزى أهل الحجاز إلى بلاد الروم وإفريقيا، ومغزى أهل مصر إلى إفريقيا وبلاد الروم، وقد عبر المسلمون إلى ما وراء النهر.

وكان المسلمون في مسيرهم نحو دار الحرب يلاقون بلادا ومناطق جبلية وبوادي وصحاري، ففي الطرق الجبلية السديدة الوعورة مسل سجستان والأبواب وجبال فارس وبلاد الروم كانوا يسيرون على البغال والبراذين ويجنبون الخيل، أما في القفار والمفاوز والجبال الجرد والأقاليم الحارة القائظة في سجستان وما وراء النهر وإفريقيا فكانوا يستعملون الإبل والنواضح لقوة تحملها العطش ويحملون الماء، ومعهم أحيانا الخيول التي تحمل الدروع، وتحميهم من مفاجآت العدو في شعاب الجبال، الخيول المدرعة والمجردة والمشاة الدراجة.

وكانوا يبنون الإيوان والآبار والمصانع لحفظ المياه في المفاوز التي تقع على طريق مسير الجيش من دار الإسلام وإلى دار الحرب.

وعلى الرغم من المسافات الساسعة التي كانت تجري فيها ساحات العمليات وبعدها عن مقر الخلافة في دمسق فإن الاتصال كان يجرى بالبريد وبالرسل على النجائب، فكانت المسافات في تلك الأيام كما يلي:

دمشق ـ الكوفة : ٧ أيام .
المدينة ـ سبيطلة (فتح المغرب) : ٢٠ يوما.
المدينة ـ دمشق (اليرموك) : ١٢ يوما.
المدينة ـ الكوفة (القادسية) : ٧ أيام .
الكوفه ـ سمرقند (الحجاج) : ٢٠ يوما .
المغرب الأقصى ـ الأندلس ـ دمشق: ٣ أشهر.
دابق (حلب) القسطنطينية : ١٠ أيام .

وأثناء حكم معاوية نقل الربيع بن زياد الحارثي العرب وعائلاتهم إلى خراسان، ووطنوا بها عام ٥١ هـ ، وفتحت بلخ بعد ما صالحهم الأحنف بن قيس.

ووصلت طلائع المسلمين من مرو باتجاه نهر بلخ في تلك السنة.

وفي عام ٦١ هـ سكن المسلمون وعائلاتهم فيما وراء النهر، وتوطنوا بلخ، الترمذ، سمرقند، خوارزم بأعداد قليلة.

ووجه معاوية جهده السياسي والعسكري إلى بلاد الشام، وقال كلمته المشهورة:
شدوا خناق الروم فيها تضبطوا بقية الأمم.

فكثرت الصوائف والشواتي على درب القسطنطينية والسواحل الجنوبية من بيزنطة وبلاد سواحل البحر الأسود وحول القسطنطينية نفسها، ولاسيما بعد السيطرة على قبرص وقوص وجزر رودس على مداخل خليج القسطنطينية.

وكان الجهد الرئيسي على محور / الطوانـة ـ أقـرت ـ درولية ـ عمـورية ـ برجمـة ـ القسطنطينية. ويليه المحوران الثانيان:
- عماسة (ماسة) ـ هرقلة تيسارية ـ سوسنة ـ سبطية سهالا.
- طرسوس ـ أنطاكية المحترقة على الساحل الجنوبي.

مع عزل الروم من الشرق بإشغالهم في إرمينية بالصوائف والشواتي المنطلقة من الجزيرة السامية. وكان المسجد رمز توطد الإسلام في الثغور وفي دار الحرب، فكانت منازل الجهاد ودور

الهجرة في الأمصار تنتظم في بنائها وفي أسواقها وفي منازل قبائلها حول المسجد الجامع الذى كان يتوسطها.

وبنى أبو أيوب الأنصاري مسجده بالقرب من سور القسطنطينية، وبقي على حاله حتى بعد عودة العرب عن حصارها.

وبعد وفاة معاوية وتولي يزيد الخلافة مدة قصيرة بدأت الفتن الداخلية، حتى تولى الخلافة عبدالملك بن مروان الذي وطد حكمه بعد القضاء على عدد من الانتفاضات والثورات في الحجاز والعراق ومصر وخراسان مع تفشي العصبية القبليه في بعض تلك الأمصار، واستؤنف الجهاد باتجاه بلاد الروم في البر والبحر وفي السند والهند وما وراء النهر في عهد عبدالملك والوليد وسليمان وعمر بن عبدالعزيز ويزيد وهشام، ولاسيما في الأندلس بعد أن أذعنت افريقيا ودانت بالإسلام.

وبرز في تلك الفترة أمراء عظام، قادوا جيوش المسلمين شرقا حتى الصين، وغربا حتى أقصى المغرب والأندلس وأواسط بلاد الفرنجة، وشمالا حتى الباب والأبواب وبلنجير وبرجان (بلغاريا)، وأصبحت الثغور الإسلامية في المشرق والشمال عزيزة الجانب يهابها العدو، فكان المسلمون يسكنون الثغور، ويتخذون معهم النساء والذراري، لأنهم إذا أقاموا في ذلك الموضع كثروا بمرور الزمن حتى يصيروا ذلك الموضع مصرا من أمصار المسلمين، ثم يتخذ المسلمون وراء ذلك ثغرا جديدا بالقرب من العدو، تنطلق منه الصوائف والشواتي التي كان أميرها لا يمكّن أحداأن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها عن مصابرة العدو وصدق الجهاد، فكانت تلبى الحاجات المطلوبة بخروج التجار والأسواق مع الصوائف والشواتي إلى دار الحرب، وأصبحت المرابطة في الثغور تقليدا وجهادا ينصرف له التابعون وكثيرون من الناس احتسابا لله، وينطلقون منها إلى دار الحرب.

وقد قسمت الثغور في زمن الأمويين، وتوزعت كما يلي :

في الشمال : ثغر الروم ، ثغر إرمينيه، أذربيجان، الأبواب، والبحر الأسود.

في المشرق : ثغر خراسان، وسجستان، وثغر السند والهند.

في المغرب : ثغر مصر وإفريقيا والمغرب الأوسط والأقصى، وثغور الأندلس البرية والبحرية.

في الجنوب : ثغر النوبة والبجة.

وقد تفرد المسلمون في القوه البحريه في المتوسط ففتحوا إقريطس (كريت) وصقلية وأجزاء كثيرة من جزائر المتوسط الغربي، مثل سردينية وميتو رقه وميورقة، منطلقين من جربة وتونس وسبتة.

ومع اتساع الفتوحات كانت الحاجة إلى الأجناد والإمداد للثغور وللحملات إلى دار الحرب، وللمحافظة على الأمن في دار الإسلام، تستدعي وجود احتياط من الجند لتعزيز الأمصار المهددة بخطر مفاجئ.

ففي الشام كانت روابط الخيل متأهبة دوما في أنطاكية ومرعس والثغور السامية حتى قفول الجيش ورجوعه إلى دار الإسلام من الصوائف والشواتي، وكانت روابط الجزيره في خيولها الكثيفة متأهبة في الرقة وحران وشمساط ، وكان يدعم ثغر الإسكندرية رابطة من الخيل في الرمله في أرض فلسطين فضلا عن رابطة في الإسكندرية ذاتها، وكان ينجد طرابلس إذا طرقها الأسطول البيزنطي رابطة في حمص، ورابطة أخرى في بيروت.

كان يتراوح عدد هذه الروابط ما بين ألف فارس وأربعة آلاف فارس، وفي أواخر الدولة الأموية بلغت روابط الجزيرة أكثر من أربعين ألف فارس.

أما في فارس فكان ثمة رابطة من الخيل في حلوان والمدائن وفي الري، فضلا عن خيل المناظر في الأماكن المرتفعة.

وكان في كرمان رابطة في أربعة آلاف فارس لإنجاد ثغري السند والهند وثغر سجستان.

وكان روابط من الخيل في الري وقزوين والموصل توجه إلى إرمينية وأذربيجان والديلم عندما يقوم أهل الكوفة بالغزو في تلك المناطق.

وكانت هناك رابطة عظيمة تتمركز بخراسان ما بين بلخ ومرو تحوطا للأخطار التي كانت كثيرة فيما وراء النهر.

وكان في سجستان روابط في بعض الشعاب الجبلية تكون ردءا لجيوش المسلمين الغازية، وتبقى في أماكنها حتى قفول الجيش من مغزاه.

وعلى العموم كان خط توضع الإسلام وانتشاره والمسالك التي عبرها وسار عليها يقع على محور عمليات الجهاد المتمثل في أماكن العمران المعادية، وفي مراكز تجمع جيوش الخصم. وكانت المروج ومنابع المياه والوديان المعشوشبة تحدد وتعين تقريبا خط مسير الحملات والصوائف والشواتي في مختلف مسارح عمليات الجيوش الإسلامية في الشرق والشمال والغرب.

«ثغر الأندلس والغزو فيه»

لما فتح موسى بن نصير المغرب الأقصى أرسل مولاه طارق بن زياد في السفن من سبتة، ودخل الأندلس باتجاه طليطلة، وعطف منها إلى سرقسطة بأجناد الشام والبربر، وأصبحت قاعدة الملك إشبيلية وثغورها برشلونة وسرقسطة، وأوغل موسى في بلاد الفرنجة، ووصل إلى «لوطون» ليون متجها إليها عبر المحور الجنوبي على ساحل البحر، وعاد إلى برشلونة، ثم استمرت الغزوات الإسلامية عبر جبال البرنس باتجاه نهر دوفة (الرون) ومرسيليا. وتوجه السمح بن مالك الخولاني سنة ١٠٢ هـ إلى طرسوفة (طولوز)، ووصل عبدالرحمن الغافقي إلى بواتيه، وتوغلت بعض طلائع العرب والمسلمين حتى بلغت ضواحي باريز.

وفي عام ١١٦ هـ فتح عقبة بن الحجاج السلولي نربونة NARBONNE، وأسكنها اللخميين، كما فتح بتبلوقة فصارا ثغرين عظيمين للصوائف والشواتي التي كانت تعبر المحور الساحلي الجنوبي من ممرات جبال البرانس BYRENEES باتجاه ساحل المتوسط، وتخترق المحور الساحلي الشمالي نحو شمال غربي فرنسا عبر ممرات جبال البرانس أيضا على شواطئ المحيط الأطلسي من بلاد الباسك.

المعسكرات وأماكن التجمع للنفير ومنازل الجهاد ودار الهجرة في صدر الإسلام

كان المسلمون ينطلقون فى جهادهم العدو من معسكرات وأماكن تجمع يستنفرون إليها، وكانوا يتخذون في الأقاليم المفتوحة بعد تمصيرها «منازل جهاد» أو قاعدة العمليات منطلقا لهم في جهادهم.

وكانت دار الهجرة المدن التي اتخذها المسلمون منزلا دائما ونهائيا للإقامة فيها والهجرة إليها والاستيطان فيها.

إن أهم هذه المواضع والتي كان ينطلق منها المسلمون للجهاد هي.

١ ـ «في العهد النبوي» :

المدينة : لجميع غزوات الرسول وسراياه وحملاته.
الجرف : معسكر لغزو حدود الشام وأطرافه ووادى القرى وتبوك ومؤتة.

٢ ـ «في عهد أبي بكر» :

الجرف : معسكر لغزو النسام.
ذو القصة : معسكر للتحشد لحروب الردة.
الأنبار، الحيرة، ذو قار: معسكرات لأهل الأيام في العراق (المثنى وخالد بن الوليد).

٣ ـ «في عهد عمر» :

الجرف : معسكر لغزو الشام .

ذو القصة، صرار: معسكران على طريق العراق لحرب الفرس.

الأبلة، الأنبار، الحيرة، ذو قار: قواعد تحشد لمعركة القادسية .

الجابية : منزل جهاد في حوران لفتح الشام ومصر، وبعد معركة اليرموك أصبحت مراكز الأجناد في الشام.

دمشق، حمص، قنسرين، الجزيرة، فلسطين، الأردن، قنسرين، والثغور في أنطاكية والجزيرة: لغزو الروم.

بعد القادسية :

المدائن : منزل جهاد لحرب فارس.

الكوفة والبصرة: دار هجرة ومنزل جهاد لغزو الجزيرة الشامية ولغزو إرمينيه وأذربيجان، وقاعدة جهاد لفتح فارس وجزء من خراسان وسجستان والديلم وطبرستان.

كرمان : منزل جهاد لغزو سجستان وخراسان.

مكران : منزل جهاد لغزو ثغر السند.

الحديثة والموصل: منازل جهاد ودار هجرة لغزو الجزيرة الشامية وإرمينية وأذربيجان.

توج : منزل جهاد لغزو سجستان .

مرو الشاهجان : منزل جهاد لغزو خراسان.

الفسطاط : دار هجرة لغزو إفريقيا.

٤ ـ «في عهد عثمان» :

قنسرين والثغور: منازل جهاد لغزو بلاد الروم، ودار هجرة المسلمين .

عكا والإسكندرية : منازل جهاد للغزو في البحر وفي إفريقيا .

الفسطاط : دار هجرة ومنزل جهاد لغزو إفريقيا.

الكوفة والبصرة : دار هجرة ومنزل جهاد لغزو خراسان وسجستان والسند .

دبيل : منزل جهاد لغزو إرمينية وأذربيجان والأبواب وبلنجير .

الموصل : دار هجرة ومنزل جهاد لغزو إرمينية وأذربيجان .

الري : منزل جهاد ودار هجرة لغزو خراسان وإرمينية وأذربيجان وطبرستان والديلم .

مرو : منزل جهاد لغزو خراسان .

بلخ : منزل جهاد لغزو خراسان .

بست : منزل جهاد لغزو خراسان .

كرمان : منزل جهاد لغزو سجستان وخراسان .

مكران : منزل جهاد لغزو السند .

٥ ـ في عهد علي (الكوفة) مقر الخلاقة :

الكوفة والبصرة : معسكر النخيلة لحرب صقين .

الموصل : منزل جهاد لأذربيجان وإرمينية .

الري، مرو : منازل جهاد لغزو خراسان وسجستان .

مكران وكرمان : منازل جهاد لغزو السند والهند وسجستان .

٦ ـ في عهد الدولة الأموية (دمشق) مقر الخلافة:

مراكز أجناد دمشق : دار هجرة ومنازل جهاد لتوجيه الجيوش إلى الشرق وإلى إفريقيا والأندلس وبلاد الروم.

دابق ، بالس في قنسرين : منازل جهاد لغزو بلاد الروم .

الثغور الشامية (إنطاكية) : منازل جهاد لغزو بلاد الروم .

الثغور الجزرية (ملطية مرعش) : منازل جهاد لغزو بلاد الروم وأذربيجان وإرمينية .

عكا، طرابلس، الإسكندرية، جربة تونس: منازل جهاد وثغور في البحر باتجاه القسطنطينية والمتوسط المركزي والغربي وجزره: كريت، صقلية، سردينية، ميورقة، ميندرقة.

الفسطاط : دار هجرة ومنزل جهاد للغزو في إفريقيا .

القيروان : دار هجرة ومنزل جهاد للغزو في إفريقيا .

طليطله، صغور الأندلس الساحلية، ومداخل جبال البرانس: منازل جهاد وثغور لغزو بلاد إفرنجة (فرنسا).

الكوفة، البصرة، واسط : دار هجرة ومنازل جهاد لغزو خراسان وسجستان والسند وما وراء النهر.

قزوين ـ جرجان : منازل جهاد لغزو طبرستان والديلم وخوارزم.

بست : منزل جهاد لغزو سجستان.

كرمان : منزل جهاد لغزو سجستان وخراسان وإنجاد ثغر سجستان.

مكران : منزل جهاد لغزو السند والهند.

المنصورة : دار هجرة ومنزل جهاد للغزو في السند والهند

المحفوظة (القصبة) : دار هجرة ومنزل جهاد في السند والهند.

مرو، بلخ، بخارى، سمرقند: دار هجرة ومنازل جهاد لغزو بلاد ما وراء النهر وخراسان والصفد والشاش وفرغانه وأشروسنة.

الجرجانية : منزل جهاد في خوارزم .

* * *

الأقاليم والمناطق والطرق والمسالك التي انتشر عليها الإسلام

١ ـ في العهد النبوي :

المدينة وما حولها : الحديبية (مكة) .

المدينة ، وادي القرى : المدبنة، معان، مؤتة .

المدينة ـ مكة (فتح مكة): عسفان، الكدىد، أمج، مر الظهران، السقيا، قديد، ذي طوى، أذاخر.

حنين : أوطاس، نخلة، قرن، بحرة الرغاء ، الصنيقة، نخب الطائف، الجعرانة، مر الظهران.

المدينة : ذو خشب، المرّ، ذو المروة، وادي القرى، الحجر، الأقرع، تبوك، الحجر، جرباء، إذرح، دومة الجندل، بلاد طيء، أيلة (العقبة).

المدينة ـ اليمامة : صحراء الدهناء، دارين البحرين، عمان، دبا، مهرة، القطيف، هجر، صحار.

المدينة ـ نجْران، رمع، زبيد، همدان، صنعاء، مأرب، الجند.

٢ ـ طريق الرسول صلى الله عليه وسلم لما هاجر من مكة إلى المدينة:

عسفان، قديد، الخرّار، مدلجة، مجاج، مرحج، مجاج، ذات كشد، الأجرد، العنبانة، القاحه، العرج، تنية الأعيار، رئم، قبا.

طريق المدينة مكة: الشجرة ملل، السيالة، السقيا، الأبواء، الجحفه، قديد، عسفان، بطن مرّ، مكة.

٣ ـ مساجد النبي صلى الله عليه وسلم بين المدينة وتبوك، وهي تحدد الطريق الذى اتبعه:

ذو خشب، الفيفاء، ذو المروة، الرقعة، وادي القرى، الصعيد، الحجر، صدر حوض، ذو

الجيفة، شق تارا، ذنب كوكب، آلاء، ذات الخطمي الأخضر، ذات الزراب، ثنية بدران، تبوك.

٤ ـ خلافة أبي بكر:

قتال المرتدين : ذي حسى، ذي القصة، الربذة، الأبرق سميراء، أجأ، الأنسر، بزاخة، البطاح.

اليامة طريق الدهناء: دبا، صحار عمان، مهرة (جيروت)، النجدة، الروضة، الساحل، الجزائر، المر، اللبان، ظهور النسحر، الصبرات، ينعب، ذات الخيم.

غزو العراق : اليامة، حفير كاظمة، الأبلة، المذار، الثني، العرجة، أليس، أمغيشيا، المقر، الخورنق، القصر الأبيض، القدسيين، الحيرة، بانقيا، بسما، الفلاليج، البهقباذ، الأوسط والأسفل، العقر، السيّب، الأنبار، البوازيج، عين التمر، دومة الجندل.

عين التمر، الخباب، البردان، الحني، المضيخ، الزميل، الثني (سرقي الرصافه)، الرضاب، الغراض، قرار، سوى، أرك، تدمر، القريتين، حوارين، مرج راهط، غوطة دمشق، مرج الصفر، بصرى.

غزو الشام : طريق المعرّفة، أيلة (العقبة) التبوكية البلقاء، مآب، الحربة، الداثنه، مرج الصقر، تياء، آبل، زيزاء، القسطل، أجنادين، فحل، دمشق، بلعبك، حمص، الجابية، اليرموك، دمشق، حمص، قنسرين.

٥ ـ خلافة عمر بن الخطاب :

العراق : الحيرة، خفان، النمارق، بارق، درتا، السقاطية، كسكر، باروسما، الزوابي، زندرود، مرج السباخ، البويب، ساباط، ميسان، الخنافس، الكباث، صفين.

القادسية : المدينة، صرار، الأعوص، زرود، شراف، العذيب، القادسية، بلبل، دير قرة، سورا، كوتي، ساباط، المدائن (بهرسير)، النهروان، جلولاء، نهاوند.

جلولاء، حلوان، قصر شيرين، جلولاء ـ خانقين، جلولاء، السيروان، ماسباذان، المدائن، تكريت، الموصل، هيت، قرقيسية (الجزيرة الشامية).

البصرة : الأهواز، رامهرمز، أرجان، إصطخر، السيرجان، كرمان.

البصرة : ميسان، دست ميسان، مناذر، نهر تيرى، سوق الأهواز، رامهرمز، إيذج، تستر، السوس، جندي سابور، مهرجا نقذف.

الكوفة ـ قرقيسيه : الرهه، عصيبين، رأس العين، دارا، عين الوردة.

الكوفة ـ الموصل : الرها ، حران.

تغور الكوفة : حلوان، الموصل، ماسباذان، قرقيسية .

انسياح المسلمين : مهرجا نقذف، الطبسين، هراة، مرو الناهجان، نيسابور، سرخس .

في فارس : البصرة، مرو الروذ ، بلخ.

الكوفة : أردشير خرة، سابور، إصطخر، دارا بجرد، كرمان، سجستان، مكران.

البصرة : توج، جور، إصطخر، دارا بجرد، كرمان، جيرفت، مفازة شير ز، رنج، مكران.

بعد نهاوند : همزان ـ دستبي، الماهين، الري، قومس، دهستان، جرجان، دنباوند، الخوار، اللارز، الري: الرشت، قم، قاشان.

البصرة : كرمان ، أصبهان .

الكوفة : أصبهان، جي، همزان الري، جرجان، طبرستان، الري، الموصل ، أذربيجان جرميذان، موقان، تفليس، الباب، اللان، بلنجر، حلوان، الموصل ، أذربيجان.

٦ ـ خلافة عثمان :

البصرة : ميسان، سابور، إصطخر، كرمان، سجستان.

الكوفة : سرخس، نيسابور، قوهستان، طوس، مرو، زربخ، كابل، هراة، بوشبخ، بادغيس، الفارياب، الطالقان، الجوزجان، بلخ.

الجزيرة : الموصل، بلد، نصيبين، دارا، آمد (ديار بكر)، ميا فارقين، أرزن.

الجزيرة : الرفة، حران، الرها، شمشاط ، آمد .

الجزيرة : الرقة، سربوج، شميساط ، ملطية، الحدث، مرعش.

إفريقيا : الفسطاط ، الإسكندرية، برقة، سرت لبدة صبرة، طرابلس، جلولا، سبيطله، الجم، برقة، زويلة، ودان، فزان.

ـ الإسكندرية : صقيلية، الفسطاط ، الفيوم ، البجة.

طريق المدينة : سالكوفة : الطرف، بطن نخل ، العسيلة، الحاجر، سميراء، فيد، الأجفر، زرود (الخزيمية)، الثعلبية، البطان، الشقوق، زبالة، الحلجاء، القاع، واقصة، القرعاء، وادي السباع، المغيثة، ذات عرق، العذيب.

«الدولــة الأمويـــة»

١ ـ فارس وخراسان : جلولاء، خانقين، قصر شيرين، حلوان، مرج قريسين، نهاوند.

الكوفة ـ البصرة :

بعض أجناد الشام، همدان، الري، الخوار، قصر الملح، سمنان، الدامغان، آخرين، فومس، نيسابور، طوس، سرخس، مرو، آمل (نهر بلخ)، فربر (مفازة)، بيكند، بخارى، ربنجن، سمرقند، «مفازة»، زامين، (مفازة)، الشاش، أسبيجاب (مفازة).

طريق فرغانه، زامين، ساباط ، أشرو سنة، خجندة، فرغانة .

طريق الشاش، زامين (مفازة)، النساش، أسبيجاب (مفازة) .

مرو ـ طخارستان: مرو، أرسكن، الطالقان، الفارياب، الجوزجان، الشبورقان، بلخ، (الترمذ)، خلم آمل، زم.

طريق الصغانيان: الترمز، الصغانيان، شومان، الراست، بلخ ـ طخارستان: بلخ، خلم، بهار، بغلان.

مرو ـ الجرجانية (في خارزم) .

الطرق إلى السند : البصرة، الأهواز، كرمان، بم (مفازة) ، نهر مهران.

المعابر على نهر جيحون: زم ، الترمذ، آمل.

المفازات : مفازة ما بين الري، سمنان، مفازة ما بين مرو سرخس، مرو، بخارى، سمرقند، زامين ـ مرو، الجرجانية، خوارزم.

مفازة ما بين كرمان وسجستان، مفازة ما بين نهر بلخ (آمل) (وبيكند).

مفازة بين كرمان ومكران والسند، مفازة ما بين مرو ـ نهر (بلخ).

مفازة بين أصبهان ونيسابور، مفازة ما خوط ، الفارياب (مفازة القاع).

مفازة قاين ـ طبس ، مفازة الجوزجان ما بين القاع والتسبورقان حتى أول مدينة بلخ.

مفازة طبس ـ نيسابور ، مفازة بعد مدينة بلخ ما بين سياكرد ونهر جيحون الترمذ.

مفازة ما بين بلخ وشعب خلم وبهار.

الطرق إلى أذربيجان وإرمينية :

بلاد العجم، الدينور، رزنجان، الميانج، أردبيل، ورتان، البيلفان، بردعة. ـ الشماخية، شروان، سمور، باب الأبواب.

بردعه ـ شمكور ـ خنان، تفليس .

من الجزيرة : الموصل، حران، ماردين، ديار بكر (آمد)، ميا قارقين أرزن، بدلين. الرقه ـ حران، خلاط ، أرجيش، خوى، سلماس أرمية، المراغة، أردبيل.

من قاعدة المراغة إلى الخرقان: مرند، خوى، ننسوى، دبيل.

الطريق إلى الروم: من الثغور الشامية ، ملطية، مرعش، وعبر الدروب، باتجاه القسطنطينية ووسط الأناضول.

أنطاكية، طرسوس، العليق، الرهوة، الجوزات، البندندون، لؤلوة، الصفصاف، أقرن، العلمين، عمورية، صاغرى، درولية، ملاحينة، الخليج فقيه، قسطنطينية.

البدندون، مرج الأسقف، درولية، الرنداق، أبدوس، الخليج، القسطنطينية.

في إفريقيا : برقة، زويلة، فزان، طرابلس، القيروان، جبال أوراس، تلمسان، الزاب.

تاهرت، طنجة، السوس، الزاب، تهوذة.

برقه، طرابلس، جربة، قابس، القيروان، الطريق الساحلي، حتى سبتة وطنجة.

الأندلس : الجزيرة الخضراء، جبل طارق، وادي لكة، شذونة، المدور «قرطبة»، قرمونة، إشبيلية، أكشونة، شذونة، قرموقة.

إشبيلية، القنت، ماردة لبلة، استجه، إلبيرة، جيان، طليطلة.

ماردة، سلمنقة، تمامس، سرقسطة، وشقة لاردة، طركونة، برشلونة، أربونة (فرنسا)، أبينيون لوذون (ليون).

ـ باجه يابرة، ستنترين، قلمرية، إسترقة، تدمير، غرناطة، مالقة، ريا.

ـ طليطلة ـ سرقسطة، تنيلونة، بلاد البشكنس (الباسك)، بورد، بواتيه، أوتان. (ضواحي بايز).

ـ طليطلة، سرفسطة، برشلونة، أربونة، طولوشة (تولوز)، أفينيون، آرل.

السند والهند : البصرة، الأهواز، كرمان، بم، نهر مهران، المنصورة، الديبل. صيمور ـ الدبيل، الملتان، الديبل فندابيل.

جزر : مينورقة، ميورقة، صقلية، من مرافئ بنزرت، جربة، تونس، ومرافئ الأندلس.

جزر : صقلية ، كريت، من مرافئ الإسكندرية ، عكا.

* * *

الطبيعة الجغرافية للطرق والمسالك التي سار عليها الإسلام

١ ـ ما بين المدينة والعراق :

صحراء وبوادي لا مياه فيها سوى بعض الشعاب القليلة والغدران في الشتاء، وتتصل الصحراء حتى الأبلة، والقادسية وهيت وعانة إلى أن تصل إلى ضفاف نهر الفرات، حيث يبدو سواد العراق وأرضه الزراعية وما يليها إلى الدجلة.

كان يتم عبور الفرات والدجلة على جسورها يعقدها أبناء القرى والمدن المفتوحة أو بالسفن، ما عدا فتح المدائن فقد عبر عنوة.

٢ ـ بلاد العجم :

بلاد جبلية منجرة، كان اللقاء في الميدان حول المدن المحصنة في ساحة المعركة، أو محاصرتها بحسم المعركة.

يقطع بلاد العجم من الشمال من حدود الري حتى الجنوب إلى حدود مكران وهرمز مفازات متصلة، تفصل بين فارس وخراسان وسجستان والسند في أرض جبلية باردة شتاء وحارة صيفا، أو ما كان يسمى بالصرود والجروم.

٣ ـ **السند** : والطريق إلى السند على خط موازٍ يبعد إلى الشمال في أرض جرداء شبه جبلية حارة، تتخللها مقاطع الوديان التي تتجه من الشمال إلى البحر.

٤ ـ **سجستان** : أرض جبلية وشعاب كثيرة باردة شتاء، يعترض الوصول إليها بعض المفازات التي تفصل بها عن مكران وكرمان من فارس وعن خراسان شمالا.

٥ ـ خراسان وماوراء النهر (الصفدفرغانة)، (نهر جيحون والشاس):

هذه الأراضي جبلية ذات شعاب وأودية سحيقة ومفازات متعددة على جانبي مجرى نهر جيحون، وتكثر المياه والمجاري الرافدة للنهرين الكبيرين والمنصبة عليهما، مما يحدد العبور إليهما من ممرات معينة هي «سرخس، الترمذ، زم، آمل».

تعد مدينتا مرو وسمرقند قاعدتي العمليات الأرضية في تلك البقاع النائية المترامية الأطراف، الكثيرة السعوب، والمتعددة الأجناس في إقليم بارد شتاء وحار جدا صيفا، وتتصل المفازات ما بين مرو وخوارزم حتى بحر الخزر، حيث تجثم على خط مواز لقسمه الجنوبي المناطق الجبلية الوعرة الشديدة البرودة في طبرستان والديلم إلى أن تصل إلى حدود أذربيجان. وإرمينية والأبواب في أراضي جبلية وعرة شديدة البرودة شتاء مع ما فيها من أنهار كبيرة ومجاري مياه دائمة ومراع وفيرة.

٦ ـ المدينة ـ الشام :

تعد الأراضي ما بين المدينة والشام صحراوية ليس فيها إلا موارد مياه ضئيلة جدا حتى بلوغ حدود الأردن وفلسطين، حيث تتغير المعالم الجغرافية من حيث طبيعتها البشرية والنباتية والمناخية، فتكثر أماكن العمران وموارد المياه، وتتنوع النباتات والأشجار، وتعترض طرق النفوذ الأماكن الجبلية وممراتها، والسهول المعشوشبة والمراعي ومجاري الأنهار حتى بلوغ جبل اللكام في الشمال والجزيرة في الشمال الشرقي من السام .

٧ ـ **ويتم الدخول إلى بلاد الروم** : ذات الأراضي الجبلية المشجرة، ومجاري المياه الكثيرة والمروج والشعاب المتعددة، والبحيرات والمراعي، من خلال الدروب المخترقة لجبال طوروس الساهقة الارتفاع. وبلاد الروم ذات مناخ قارس في الشتاء، تغطيها الثلوج مثل مناطق إرمينية وأذربيجان وبعض مناطق إيران وخراسان. يتحدد المرور إلى القسطنطينية على الطرق الأرضية النافذة إلى العاصمة من الدروب (درب الحدث، درب بغراس) ومن الثغور الشامية والجزيرة، ومن الطريق الساحلي من طرسوس وأدنة حتى أنطاكية المحترقة، ملتفا إلى الشمال حتى أبيدوس وخليج القسطنطينية .

وأما الطريق البحري في الأسطول بعد تأمين السيطرة البحرية فمن عكا وطرابلس وصور والإسكندرية إلى فبرص وسواحل بلاد الروم الجنوبية وجزيرة رودس وفوص حتى خليج القسطنطينية.

٨ ـ طريق مصر :

أما الطريق من فلسطين إلى الفسطاط فيسير غلى خط قريب من الساحل ، وأهم مدنه غزة السهيرة في أرض صحراوية حتى بلوغ وادي النيل والفسطاط . ويمتد من الفسطاط إلى البجة والنوبة في الجنوب الطريق الوحيد الذي بساير مجرى النيل الأدنى، وبتوضع كثافة سكانية كبيرة على طول مجرى النيل حتى مصبه.

٩ ـ طريق إفريقيا :

وإذا سارت الجيوش من الإسكندرية إلى إفربقيا والمغرب الأدنى فإنها نساحل في أرض صحراوية رملية حارة جدا، يعترضها الجبل الأخضر في برقة وجبل نفوسة في طرابلس، وما يتوضع حولها من قبائل البربر.

تعد الكثافة البشرية ضئيلة جدا في المغرب الأدنى، ولاسيا في المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل، وتبدأ هذه الكثافة بالتصاعد اعتبارا من منطقة تونس وضواحيها.

وإذا ما تابعت الجيوش توغلها إلى الغرب على الطريق الساحلي إلى المغرب الأوسط والأقصى فإنها تسير على مقربة من الساحل، حيث تكثر المدن، ويزداد العمران والسكان من الفبائل البربرية الكثيرة البطون والأفخاذ وتحف بها من الجنوب المرتفعات الجبلية المشجرة والأودية المنصبة إلى البحر، ولاسيا جبال الأطلس المنسجرة في المغرب الأقصى، حتى تصل إلى الميحط الأطلسي. إن هذا الإقليم معتدل، ماعدا المرتفعات الجبلية الباردة شتاء.

وتقل الكثافة السكانية في الأجزاء الداخلية من المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وتبدأ الهضاب والمرتفعات البدوية الطابع، والغرود الرملية بالانحدار تدريجيا حتى تصل إلى الصحراء، مع ازدياد شدة الحرارة تبعا للانحدار نحو الجنوب.

١٠ ـ الأندلس :

تجتاز الجيوش العدوة الجنوبية من سبتة وطنجة على ساحل المغرب الأقصى إلى العدوة الشمالية بالسفن، وتسلك الطرق الداخلية التي يزداد ارتفاعها عن سطح البحر كلما أمعنت في التوغل نحو الشمال الشرقي في إقليم تزداد برودته شتاء كلما اندفعت الجيوش إلى الشمال الشرقي، وتتخلل هذه الأراضي السهول والجبال المرتفعة والشعاب ومجاري الوديان، وتزداد الكثافة السكانية في المناطق الساحلية والداخلية ويصطدم تقدم الجيوش نحو الشرق إلى بلاد إفرنجه (فرنسا) بالمرتفعات الشاهقة لجبال البرانس ذات المناخ القارس شتاء، ولا يتم اجتيازها إلا من معبر بنبلونة في الشمال بالقرب من ساحل الأطلسي، ثم من معبر (أربوفة: في الجنوب على ساحل المتوسط، وعندئذ تنفتح بلاد الإفرنجة نحو ساحل المتوسط شرقا حتى طولوتسة (تولوز) ومرسيليا و (أبينون) أفينيون على نهر الرون (ردونة)، وتسلك الجيوش المتجهة شمالا من بنبلونة على خط مواز قريب من الساحل حتى تبلغ بوردو وما وراءها إلى بواتيه بلاط الشهداء.

لقد رافقت الإبل وحملت المؤمنين لنشر رسالتهم للناس كافة في حلهم وترحالهم من المدينة وبوادي الجزيرة العربية إلى جبال فارس وهضاب الشام وشعاب سجستان ومفازات خراسان وسلالها المرتفعة الوعره من جبال أذربيجان وإرمينية، وفي الحملات الصيفية عليها وعلى بلاد الروم وفي الأندلس، فكانت الإبل الواسطة الرئيسية لتحرك الإسلام شرقا وشمالا وغربا. أما الخيول فكانت الأداة الأساسية للحملة في ساحات المعارك المتصلة لتثبيت الإسلام وتوطيد أركانه في مختلف الأقطار والأمصار.

* * *

بحوث فى الجغرافيا التربوية

الارض فى القرآن

دكتور / فتحى عثمان

«الأرض فى القرآن الكريم»

« إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ
ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ »

(الجاثية : ٣ ـ ٦)،

« وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ
مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ »

(الذاريات : ٢٠ ـ ٢٣)

« وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ
عَنْهَا مُعْرِضُونَ ». (يوسف : ١٠٥)

وردت كلمة «الأرض» في آيات القرآن الكريم زهاء ٤٦٦ مرة، ولا عجب فهي مقترنة بخلق الكون وخلق الإنسان :

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ »
(النحل : ٣)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ
فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ
قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (البقرة: ٣١)

« وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ » (البقرة: ٣٦)،

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ »

(الروم : ٢٠).

ولست أرمي هنا إلى ذكر آيات الله التى تضمنت «الأرض»، فذلك حديث يطول، وكل من يقرأ القرآن لا يخطئ الآيات العديدة التي جاءت بها هذه الكلمة، وإنما أحاول أن أقدم في حديثي هذا تحليلا للمباحث الكبرى التي عرضت لها الآيات القرآنية الكريمة التى ذكرت فيها «الأرض»، وأهم الدلالات التي قصدت إلى بيانها تلك الآيات، مما يتعلق برسالة الدين في تقدير الحقيقة وإقرار الحق وهداية الإنسان إلى ذلك وتربيته عليه فكرا وخلقا وسلوكا.

أولا : الأرض فى الكون ـ الكواكب والنجوم والمجرات ـ لمحات فلكية :

حرص القرآن الكريم على أن يقرر في وضوح وجلاء أن الأرض ذرة في محيط ضخم من الكون خلقه الله جميعا:

« ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ
إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ
سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ » (فصلت: ١١)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » (هود: ٧)

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۚ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (الأنبياء : ٣٠)

« وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا
جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ
قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ
هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا
رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »
(الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩)

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ »
(يوسف : ٤)

« فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »
(الأنعام : ٩٦ ـ ٩٧)

« يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ
حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ
أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ »
(الأعراف: ٥٤)

« وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »
(النحل: ١٢)

« وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »
(النحل: ١٦)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ »

(الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ »

(المعارج: ٤٠)

« إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ » (الصافات: ٤ ـ ٥)

وقد ميزت آيات القرآن بين الشمس باعتبارها مصدرا للضوء والحرارة بذاتها، وبين القمر المنير بغيره دون حرارة، فقال جل وعلا:

« هُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟
عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ
يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (يونس: ٥)

« أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا » (نوح: ١٥ ـ ١٦)

وتعدد السموات قد يشير إلى تعدد المجموعات الشمسية وما فيها من مدارات أو تعدد المجرات، كما قد يشير تعدد الأرضين إلى تعدد الكواكب المماثلة للأرض في وضعها أو وصفها، والتي توجد في مجموعات أخرى، فيعبر بالأرضين مثلما نعبر بالشموس والأقمار عن كواكب تقابل في مجموعات أخرى من الفلك ما يقابل في مجموعتنا الشمس والقمر، أو قد يشير إلى تعدد الطبقات الأرضية من القشرة إلى الأعماق حتى مركز الأرض:

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ
غَٰفِلِينَ » (المؤمنون: ١٧)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ
مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا » (الطلاق: ١٢)

وقد يكون ذكر الرقم سبعة هو لبيان التعدد لا للحصر، والله أعلم بمراده، وإنما يحاول عباده فهم آياته في الكون والكتاب وتدبرها.

ولا يفتأ القرآن يسكب في حس المؤمن ووعيه أن الكون حافل بالكواكب والنجوم، وأن للأرض في هذا الكون العملاق المعجز مكانها المعلوم، وذلك قبل قرون مما عبر عنه بالثورة في علم الفلك، التي كان من أقطابها كوبر نيكوس Copernicus ١٤٧٣ ـ ١٤٥٣م)، وجاليليو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م)، وهي التي وصفت بأنها أنزلت الأرض من عليائها، فلم تعد مركز الكون لمجرد أنها موطن الإنسان، بل سيقت البراهين على دوران الأرض حول الشمس فضلا عن دورانها حول ذاتها. والقرآن على تقريره لمنزلة الإنسان وكرامته بين المخلوقات يقرر حقيقة مكانه الصحيح في الكون الهائل المعجز، فيقول سبحانه:

« لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (غافر: ٥٧)

والقرآن يشير إلى حركة الشمس، ويقرن ذلك في نفس الموضع بإشارة أخرى يفهم منها المستقر، فحركة الشمس الحقيقية المقصودة ليست هي حركتها الظاهرية المظنونة سلفا حول الأرض:

« وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ
نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَٱلشَّمْسُ
تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٣٨)
وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ (٣٩)
لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ
ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (يس: ٣٧ ـ ٤٠)

فالقمر جرم سماوى تابع لكوكب الأرض، وله حول نفسه دورة، والأرض بنفسها جرم سماوي لها حول نفسها دورة، وللأرض والقمر حول الشمس دورة، وللشمس والأرض وكواكبها الأخرى الثمانية وما يتبعها من أقمار دورة كبرى فى المجرة، وللمجرة دورة وهكذا

« كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » (الرعد: ٢)

والشمس التي يبلغ قطرها ١ر٣٩٢ر٠٠٠ كم، ويكبر حجمها الأرض مليونا وثلاثمائة ألف مرة

قد لا يبدو دورانها حول نفسها بصورة محسوسة للإنسان على سطحها لأسباب معينة، وتتم الدورة عند خط استوائها خلال ٢٥ يوما، بينما تستغرق عند قطبيها ٣٣ يوما.

والآيات السابقة ناطقة مبينة أن لكل كوكب مدارا (وكل في فلك يسبحون)، وأن تعاقب الليل والنهار على الأرض مرتبط بالحركة في الفلك، وهو ما تبينه آيات متعددة من كتاب الله منها:

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (الأنبياء: ٣٣)

كذلك تتعدد إشارات القرآن إلى التكوير عند الحديث عن الكواكب والنجوم وعن الليل والنهار:

« خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ » (الزمر: ٥)

« إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ » (التكوير: ١)

وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (النازعات: ٣٠)

وأوردت المعاجم أن الأدحى والأدحوة والأدحية بيض النعام في الرمل... ويشير القرآن الكريم إلى انفصال الأجرام عن بعضها:

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا » (الأنبياء: ٣٠)

كما يسير إلى اجتماعها بسبيل من سبل الاتصال وفق السنن والنواميس، ومنها ما قد نتوصل إليه طاقات الإنسان:

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا
مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ » (الشورى: ٢٩)

وقد أورد ابن جرير الطبري وابن كثير في تفسير قوله تعالى:

« فَلَآ أُقْسِمُ
بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ » (الانشقاق: ١٦ ـ ١٩)

رواية عن ابن مسعود والشعبي: (لتركبن يا محمد سماء بعد سماء). وقد قرئت: «لتركبن» بفتح الباء، في قراءة عمرو بن مسعود وابن عباس وعامة أهل مكة والكوفة. وعقب ابن كثير على ذلك التأويل طبقا لهذه القراءة بقوله «قلت: يعنون ليلة الإسراء». وواضح أن الأخذ بتأويل ركوب طبق عن طبق على أنه ركوب سماء بعد سماء مع قراءة «لتركبُن» بفتح التاء بضم الباء يمكن أن يعطي دلالة تكون إنباء عما حدث في أيامنا. والقرآن الكريم يسير إلى تجاوز أقطار السموات والأرض بمقتضى سلطان قد يكون هو العلم بإحدى سنن الله الكونية:

« يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ

أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » (الرحمن: ٣٣ ـ ٣٦).

ولقد أشار القرآن إلى خصائص الزمن الفلكية مادام يترتب على حركات الأفلاك في أكثر من آية. يقول تقدست أسماؤه:

« وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى »

(الرعد: ٢)، (لقمان:٢٩)، (فاطر: ١٣)، (الزمر: ٥)

« ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » (الرحمن: ٥)

وقد جلى القرآن أن عدد السنين وحسابها على سطح أرضنا مترتب على العلاقة بين الأرض والشمس، أو بين الأرض والقمر، وعلى الوحدة الزمنية التي يملأها النهار والليل حتى يعقبها شروق شمس يوم جديد تال:

« يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ » (الأعراف : ٥٤)

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ

لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ » (يونس: ٥)

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ
« ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ
وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ
تَفْصِيلًا » (الإسراء: ١٢)

« فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » (الأنعام: ٩٦)

فالزمن حركة أو الحركة زمن، ودورة الأرض حول نفسها أمام الشمس حركة لها زمن هو اليوم، ودورة الأرض حول الشمس حركة لها زمن يترتب عليها وعلى ميل محور الأرض، هو الفصول الأربعة التى تشغل العام، كذلك للقمر دورة حول نفسه وأخرى حول الشمس، وكل منها حركة لها زمنها، وهكذا. ويبين الله لنا في كتابه المحكم نسبية الزمن في حساب عباده على الأرض والزمن عنده سبحانه:

« وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » (الحج: ٤٧)

« يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ

سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » (السجدة: ٥ ـ ٦)،

« تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ »
(المعارج: ٤)

وأوضح القرآن أيضا اختلاف الزمن النفسي عن الزمن المادي الواقعي:

« كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ
مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ
إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ »
(الأحقاف : ٣٥)

« قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ » (الكهف: ١٩)

« قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾
قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن

لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » (المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤)

« وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ
ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ »

(الروم: ٥٥)

وقد عبر القرآن عن أجزاء الزمن بالساعة واليوم والشهر والسنة والفترة والحين والدهر والقرون والأحقاب، كما عبر بلمح البصر أو ما هو أقرب وما قبل ارتداد الطرف، ولكل تعبير دلالته ومداه وحيزه الزمني، وعلى غرار نسبية الزمن يمكن أن تفهم من الإشارات القرآنية كذلك نسبية الحركة وسرعتها:

« وَتَرَى
ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ
ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ »

(النمل: ٨٨)

والآية معبرة عن أهمية سرعة جسم ما بالنسبة للإحساس به وإدراك جرمه وهيئته، إلى جانب الأبعاد التقليدية من طول وعرض وارتفاع، وتأثير السرعة في إدراك الحركة والسكون، ودلالة الآية في ذلك قائمة، سواء كانت متصلة بما سبقها مباشرة من قول الله عن يوم القيامة:

« وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن
فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ »

(النمل: ٨٧)

أو كانت منفصلة عن الآية التي قبلها، وقد أتت لتقرر سنة كونية تجري في الكون والوجود بإطلاق واطراد. وقد يلفت النظر أن الآية السابقة على آية النفخ في الصور والبعث تعرض لتعاقب الليل والنهار في الدنيا:

« أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (النمل: ٨٦)

وهكذا قد تكون آية النفخ في الصور أتت في السياق للإبانة عن نهاية الزمان، وانقضاء ظاهرة الليل والنهار، وغيرهما من الظواهر الكونية بقيام القيامة، حين يوجد كون جديد بخصائص جديدة:

« يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ »

(إبراهيم: ٤٨)

ويكون المعنى تاما بذلك، ثم تستأنف آية مرور الجبال مر السحاب بيان ظاهرة كونية أخرى، يجمعها إلى ظاهرة الليل والنهار بعد السرعة في الحركة وما يترتب عليه من آثار ونتائج، سواء في حالة حركة الشمس الظاهرية، أو حركة الجبال، فكلاهما يردان إلى حركة الأرض التي تبلغ سرعتها حدا يخيل للإنسان معه أنها لا تتحرك في الحالتين.

وإن العقل الإنساني ليشده حين يتصور رحلة الظواهر الفلكية إلى أرضنا، وما تستغرقه من السنين الضوئية. والسنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها شعاع من الضوء في سنة كاملة أي ٩٤٦٨ بليون (مليار) كيلومتر، إذ إن سرعة الضوء ثابتة دائمة، فإذا كانت المسافة بين القمر والأرض تصل إلى حوالي ٢٤٠ ألف ميل، فإن المسافات الكونية بوجه عام تعظم عن ذلك كثيرا، ولا تقاس عادة بالأميال وما إليها، إذ ستتصاعد الأرقام إلى حد يعسر معه تدوينها فضلا عن الإحاطة بها. فنحن فعلا على الأرض التي تقع على بعد ٣٠٠٠٠ سنة ضوئية من مركز المجرة، ويعني ذلك أننا إذا سرنا بسرعة ٣٠٠ كم في الساعة، فإنه يلزمنا ٢٣٣ مليون

سنة ضوئية لإتمام دورة واحدة حول الحقل المجري. وتستخدم الثانية الضوئية أيضا لقياس الأبعاد الكونية، وهي المسافة التي يقطعها شعاع من الضوء في الفضاء خلال ثانية واحدة، وتبلغ هذه ١٨٦ ألف ميل. والضوء الذي يصلنا من النجوم والكواكب يتألف من موجات كهرمغناطيسية، وهو سيالة من جزيئات ذات طاقة هي الفوتونات Photons، وتبلغ سرعتها ٣٠٠ ألف كم في الثانية. والمسافة التي يجتازها شعاع صادرمن القمر لا يصل إلى أرضنا تقدر بما يستغرقه ذلك من زمن وهو ثانية وثلث تقريبا من الثواني الضوئية، بينما تقدر المسافة بين أرضنا والشمس بخمسمائة ثانية (حوالى ٨ دقائق)، والمسافة بين أرضنا وأقرب نجم إلينا بعد شمسنا المسمى Proxoma de Centature في حدود ١٤٠ مليون ثانية ضوئية، (أو أربع سنوات ضوئية). والمجرة المسماة أندروميد Andromede التي تعتبر من الأرض تفصلها ٢ مليون سنة ضوئية. والمجرة المعروفة بالطريق اللبني تضم ما بين مائة ومائتي مليار من النجوم، فماذا تكون في هذا المحيط الفلكي الخضم مجموعتنا الشمسية بكواكبها التسعة التي تطوف حولها ومنها أرضنا؟ وماذا تكون الأرض التي نعيش عليها؟ أما ما أمكن رصده من حافة الكون فيبعدنا ٤٠٠ مليون بليون(أو مليار) ثانية ضوئية، ومازالت هذه الحافة تجري مبتعدة في الفضاء الفسيح بسرعة يكفي لتخيلها القول بأن أجرامها تنطلق بسرعة تصل إلى ٥٠ ألف أو مائة ألف ميل في الثانية الواحدة، وعلاوة على ذلك فإن الكون من حولنا حافل بالطاقة وما سخره الله للإنسان من إمكانيات ومن موجات الراديو الكامنة حولنا (الموجة الحاملة) التي تضمن الإشارات الصوتية والبصرية، وتنقلها بسرعة الضوء، وهي التي أتاحت ظهور الراديو والتلفزيون.

فإذا انتقلنا من الأجرام الكبرى الفلكية إلى الأجرام الصغرى الذرية في المادة واجهتنا تلك الحركة المذهلة للإلكترونات داخل ذلك الحيز الدقيق غاية الدقة من المادة الذي هو الذرة، حتى إنه لو صفت عشرة ملايين ذرة لبلغ طولها ميليمترا واحدا. ويمكن مقارنة الذرة بالمجموعة الشمسية، إذ تتألف الذرة من نواة مركزية ذات شحنة كهربية موجبة، تدور حولها الإلكترونات ذات الشحنة السالبة، كما تدور الكواكب حول الشمس. ومن الذرات ما هو بسيط يتألف من نواة واحدة وإلكترون واحد كالهيدروجين، ومنها ما هو معقد التركيب يضم عشرات الإلكترونات، وبين النواة والإلكترونات يقوم فراغ فضائي. وفي الطبيعة ملايين الأنواع من الذرات المختلفة، واختلاف التراكيب من هذه الذرات في جزيء المادة يفسر اختلاف أنواع

المادة وأشكالها. وللذرات حركة ذاتية تتباين سرعتها حسب الحالة الفيزيائية للمادة صلبة كانت أو سائلة أو غازية. وقد أضاف علماء الفيزياء إلى تلك الحالات الثلاثة حالة أخرى رابعة، أسميت الحالة البلاسمية التي تظهر عندما تبلغ درجة حرارة الغاز ١٢٥٥° مئوية، وفيها تسبح الإلكترونات على نحو مضطرب، ولكن تبقى مع ذلك خاضعة للحقول الكهربية والمغناطيسية.

وتعمل البلايين من الخلايا الحية في أي عضو أو جهاز أو نسيج محدود من جسم الإنسان في حركة مذهلة. وينبض القلب بمعدل ٨٠ مرة في الدقيقة، أو ما يعادل مائة ألف نبضة في اليوم، و ٣ بليون نبضة في السنة. ويضخ القلب نحو ١٥ ألف لتر من الدم يوميا. أما بالنسبة للجهاز العصبي، وهو جهاز الاستقبال والانفعال، فإن فصي المخ على رأس هذا الجهاز يحويان أكثر من ١٣ بليون خلية، تسجل ما يصل إليها من أحاسيس ومعلومات عن طريق نوافذ الجهاز العصبي: السمع، والبصر، والذوق، والشم، وأحاسيس الجلد المختلفة. وهناك تيارات كهربية في تصاعد وانخفاض خلال بلايين الخلايا الحية، ويتدفق الأكسوجين ليغذي هذه الخلايا. وكل حركة من الجهاز العصبي قد حسبت طاقاتها بدقة، وانسابت من مراكز المخ شرارات كهربية إلى عضلات الإنسان، لتقوم بعمل ما مناسب للأحاسيس التي أثارت الخلايا العصبية، فأنتجت في خلاياه الداخلية تيارات نتيجة الانفعال، وجرت في أعصابه شرارات إلى عضلاته تثير العمل، وكل هذه الحركة الدائبة في أجرام الفلك وفي ذرات المادة وفي خلايا الإنسان والكائن الحي بوجه عام تنطق بتسبيح الباريء الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى:

« تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ
وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ
وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ » (الإسراء: ٤٤)

« أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ

وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ » (النور: ٤١)

« وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ » (الرحمن: ٦)

وتؤثر عوامل متعددة منها الحركة للأرض وطبيعتها وباطنها الملتهب بحكم أصلها وانفصالها عن الشمس على شكل الأرض وأطرافها ككل، كما تؤثر العوامل الجيولوجية الباطنية، وعوامل التعرية السطحية على وجه الأرض جزئيا، وتؤدي عوامل تتعلق بالتربة والمناخ إلى الجفاف والقحط أو امتداد الصحراء، كما تؤثر عوامل جغرافية ديموجرافية على توزيع البشر في أرجاء الأرض. وكل هذه العوامل الفلكية والجيولوجية والجغرافية والسكانية تجتمع دلالاتها في هذا القول الإلهي المجمل المعجز:

« أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي
ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ
لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ » (الرعد: ٤١)

« أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ
ٱلۡغَٰلِبُونَ » (الأنبياء: ٤٤)

كذلك أشارت آيات الكتاب الحكيم المحكم إلى انتظام سنن الكون واطرادها واستمرارها:

« لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ
ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ » (يس: ٤٠)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى
فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (الأنبياء: ٣٣)

« وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ »
(إبراهيم: ٣٣)

وما أكثر الآيات التى أشارت إلى الاتساق والاتزان والانتظام في خلق الله بوجه عام:

« مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ
تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ
إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » (الملك: ٣ ـ ٤)

« ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » (الرحمن: ٥)

« وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ » (الرحمن: ٧)

« وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن
كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ». (الحجر: ١٩)

وما أكثر الآيات التي أشارت إلى الاطراد والاستمرار في سنن الكون ونواميس الوجود المادي والبشري:

« وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » (الإسراء: ٧٧)

« وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا » (الأحزاب: ٦٢)

« فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا »
(فاطر: ٤٣)

ولم يفت رسول الله صلوات الله عليه، وهو مخزون جريح القلب على فقد فلذة كبده إبراهيم، أن يعلم أمته نبات سنن الكون واطرادها، ويثبت في وعيها أن لكل ظاهرة سببا صحيحا ينبغي الجد في البحث عنه لتعليل الظاهرة، كما ينبغي حجز النفس عن الجري وراء الظنون والأوهام، ومن نم فإن الخسوف والكسوف آيتان من آيات الله في الكون الذي خلقه وفدر نواميسه تقديرا، وهذه لا ترتبط بموت إنسان أو حياته ولو كان فلذة كبد رسول الله، الحبيب إلى ربه القريب منه الذى أسرى به وعرج ليريه من آياته الكبرى.. يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الشمس والفمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته». ويسن لأمته صلاة الخسوف والكسوف سبيلا لاتصال المؤمن برب الكون عند الانفعال بظواهر الكون ودلائل إعجاز خلق الله.

وقد بين القرآن في جلاء أن في سنن الله الكونية ونواميسه المطردة الثابتة معجزة دائمة للمتأملين المتدبرين من ذوي البصر والبصائر وأولي الألباب والرشد:

« سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ شَهِيدٌ » (فصلت: ٥٣)

وأن هذه المعجزة الدائمة كافية للذين ينظرون ويتفكرون، وقد تكون لهم أشد غناء بحكم طوال بقائها واستمرار وجودها وإمكان تدبرها من المعجزة الموقوتة المفاجئة الصادعة القارعة:

« وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ
عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾
وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ
أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » (الأنعام: ٣٧ ـ ٣٨)

« وَلَوْ فَتَحْنَا
عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾
لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾
وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ
ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ».

(الحجر: ١٤ ـ ٢٢)

« وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا
جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً
فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ». (غافر: ٧٨ ـ ٨٢)

« إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ
ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦)»

(الجاثية: ٣ ـ ٦)

« تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ
وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »

(الإسراء: ٤٤)

ولقد سمى الله في كتابه ظواهر الكون ونواميسه «آيات»، كما سمى المعجزات والخوارق «آيات» أيضا، وفي هذا ما فيه من دلالة:

« قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي
ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ »

(يونس: ١٠١)

« وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ
عَنْهَا مُعْرِضُونَ ». (يوسف : ١٠٥)

« وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا
مُعْرِضُونَ » (الأنبياء: ٣٢)

وتتوالى الآيات في صدر سورة الشعراء تستعمل «الآية» للخارقة الحسية الموقوتة وللظاهرة الكونية الدائمة، فيقول تعالى:

« لَعَلَّكَ
بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ »
(الشعراء: ٣ ـ ٤)

ثم يتوالى السياق بعد آيتين :

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ »
(الشعراء: ٧ ـ ٩)

كذلك فإن الفاصلة القرآنية من وحدات كتاب الإسلام المعجز هي أيضا آية، وكثيرا ما يقرن

الكتاب الكريم آيات الله في آفاق الكون بآيات الله في محكم تنزيله، ومن هذا القبيل ما ورد من ذكر النوعين من آيات الله متعاقبين في هذا السياق المعبر:

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا
عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ
ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ
فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم
مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »

(فصلت: ٣٩ ـ ٤٢)

وهكذا تقترن آيات الله وتتضافر فى الكون المشهود والكتاب المسطور المقروء .

والقرآن يفتح عين الإنسان وحسه ووعيه وفكره على ظواهر الكون ونواميسه في لمسات سريعة مجملة، محدودة معدودة، ويترك بعد ذلك لنفسه وإمكاناته وطاقاته أن تتوسع في المعرفة وتتعمق فى العلم. وإشارات القرآن مجملة خالية من زحام التفاصيل التي ترهق قارئ سفر التكوين مثلا كما ترهق عقله، إذ يحاول أن يوفق بينها وبين ما يكتشفه العلم بمناهجه وأدواته. فالقرآن لا يزاحم العقل في مجال يستطيع أن ينهض بالعبء فيه كاملا. والإسلام يستحث جهود الإنسان وطاقاته بأن يقرر أن العلم بسنن الله في الكون، والكشف عن صنعه سبحانه،

وهو الذي أتقن كل شيء، والانتفاع بما أسبغه من نعم ظاهرة وباطنة وأعمال ما منح الإنسان من قدرات وطاقات هو عباده لله وإشاعة لفضله وتحدث بنعمائه:

« إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ » (فاطر: ٢٨)

« وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » (العنكبوت: ٤٣ ـ ٤٤)

والقارىء لتفاصيل قصة الكون في كتابات علماء الفلك من المحدثين يزداد قلبه وفكره خشوعا لإشارات القرآن المجملة المحكمة المعبرة... وهذا هو السير جيمس جينز مثلا: لنرجع إلى الوراء في الزمن ٣٠٠٠ مليون نسمة، ثم لنسبح في الفضاء، ولنرقب السنين تمر بنا، إن السنين في ذلك الوقت لم تكن موجودة على وجه التدقيق، لأن السنة هي الزمن الذي تستغرقه الأرض لإتمام دورة كاملة حول الشمس، ولا أرض هناك في الوقت الذي قد صرنا إليه فقد عدنا إلى الوراء لا إلى ما قبل حلول الإنسان في الأرض فحسب، ولكن إلى ما قبل وجود أي أرض يصح أن يطأها إنسان... والآن ونحن نرقب أحداث هذه القصة العظيمة قد نلحظ نجما خاصا هو شمسنا تقع له حادثة غير عادية، يقترب منه نجم آخر اقترابا لم يسبق لأي نجم قط أن اقتربه، فينشىء فيه مدوداً أعلى من أي مد أنشىء فيه من قبل، مدودا كجبال عظيمة من غاز ناري تسير فوق سطح الشمس. وأخيرا يزداد اقتراب النجم الثاني من الشمس، وفيما هو يقترب هكذا تصير قوة جاذبيته من العظم بحيث تنتزع قمة الموجة المدية من الشمس وتتكاثف ذاتها قطرات، هذه القطرات هي السيارات، والأرض واحدة من أصغرها. وهي في أول الأمر تكون كتلة فوضى من غاز ناري، لكنها تأخذ تبرد فيستحيل وسطها إلى السائل، ثم تصير بمرور الزمن إلى درجة من البرودة تتكون معها قشرة صلبة على سطحها. ثم بعد ذلك

إذا ما ازدادت برودتها يبدو على هذه القشرة الصلبة ظاهرة جديدة عجيبة: تأخذ طوائف من الذرات تتحد، فتكون هيئات منظمة متماسكة من النوع الذي لم نعرف شيئا عن طبيعته ولا عن الطريقة التي ظهر بها لأول مرة فى الوجود بسمى الحياة.. ومهما تكن هذه الحياة فإنه تبدي مقدرة غريبة على تكرار نفسها، وفيما هي تفعل ذلك نجدها تكون على الدوام هيئات تزداد في التعقيد على مر الزمن، وفي النهاية نرى أنفسنا واقفين عند أبعد نقطة بلغها الزمن في إماطة اللثام عن نفسه، إذ تمثل أعقد الكائنات الحية التي تولدت للآن على سطح الأرض. (النجوم في مسالكها ـ ترجمة د. أحمد عبدالسلام الكرداني ـ ط ٢ ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ص: ٤٧، ١٤٢، ١٤٣).

وهذه كلها تفاصيل لم يعرض لها القرآن بطبيعة الحال، وليس من شأنه أن يعرضها، إذ هو كتاب هداية للإنسان فيما يعجز عنه عقله، وليس كتابا يختص بمباحث العلم التى يمكن لعقل الإنسان أن يضطلع بها وحده كما أشار حديث رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم: «أنتم أعلم بشئون دنياكم». ولكن يستطيع الذي يتعرف على الحقائق الفلكية التي توصل إليها العلماء بمناهجهم ووسائلهم، والتي أجمل عرض بعضها السير جيمس جينز فيما سلف أن يتدبر روعة الآيات المجملة المحكمة في الكتاب الحكيم التي تقرع الحس والفكر، إذ يقول سبحانه:

« ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ
إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ
سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ » (فصلت: ١١، ١٢)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ
عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ » (هود: ٧)

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (الأنبياء: ٣٠)

ويعرض باحث عربي معاصر هو قدري حافظ طوقان ملامح من «الكون العجيب» في كتيب صغير لطيف ممتع نافع، وقد كان مما احتواه هذه الحقائق: «والواقع أن للشمس حركة حول محورها، ولكن ليس لها حركة في الفضاء تشابه حركة الأرض، فهي لا تدور حول نجم من النجوم مثلا، بل إنها تتحرك كما تتحرك بقية النجوم، وتسير في الفضاء وبسرعة ٧٥٠ ميلا في الدقيقة أو ما يزيد على مليون ميل في اليوم. ولا نعني أن الشمس وحدها تسير بهذه السرعة، فهناك سياراتها وتوابعها والنجميات وكل ما في النظام الشمسي يسير معها بهذه السرعة» ص: ٤٨.

وصدق الله العظيم : « وَٱلشَّمْسُ
تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾
وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾
لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ
ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (يس: ٣٧ ـ ٤٠)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى
فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (الأنبياء: ٣٣)

ثانيا : وجه الأرض : لمحات في التضاريس والطبقات :

تتعدد آيات القرآن التي تجلي ملامح وجه الأرض المتباينة:

« وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ
ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ
مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ
وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (الرعد: ٣ ـ ٤)

« وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا

طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (النحل: ١٣ ـ ١٥)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ
فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

(فاطر: ١٢)

« مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ »

(الرحمن : ١٩ ـ ٢٠)

«... وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا » . (النمل: ٦١)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ
مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ
وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (فاطر : ٢٨)

« وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾
وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا
مُعْرِضُونَ » (الأنبياء: ٣٠ ـ ٣١)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ
إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » (الحج: ٦٥)

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ
فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾
فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ »

(المؤمنون: ١٨ ـ ١٩)

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ
زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ »

(السجدة: ٢٧)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ
يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ »

(الزمر: ٢١)

« أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً
وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم
مَّآءً فُرَاتًا » (المرسلات: ٢٥ ـ ٢٧)

« ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ
ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ
لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾
مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ » (النازعات: ٢٧ ـ ٣٣)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا » (نوح: ١٩ ـ ٢٠)

« وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ » (الذاريات: ٤٨)

وتتعدد آيات القرآن التي تجلي ملامح وجه الأرض المتباينة من سهول وجبال، وتعرض لأنواع التربة والصخور. يقول عز من قائل في الأرض وسهولها ووديانها ومسالكها:

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ». (الزخرف: ١٠)،

« وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ». (الذاريات: ٤٨)

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن
نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ » (طه: ٥٣ ـ ٥٤)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا » (نوح: ١٩ ـ ٢٠).

وقد يسر الله أسباب الانتقال والاتصال في البر والبحر:

« وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » (الإسراء: ٧٠)

وتعددت إشارات القرآن إلى الجبال:

« وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا » (النازعات: ٣٢)

ومنها ما يكون شاهق الارتفاع :

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ » (المرسلات: ٢٧)

والجبال على وعورتها وقاء من الحرارة والريح ومن مخاطر البشر أحيانا:

« وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا » (النحل: ٨١)

وقد أشارت آية كريمة إلى ممرات الجبال ومسالكها بصفة خاصة:

« وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »

(الأنبياء: ٣٠)

وتشير هذه الآيات التالية إلى السهول والجبال والأنهار، وإلى اختلاف أنواع التربة وآثار كمية الماء على النبات:

« وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ

ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ
مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ
وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (الرعد: ٣ ـ ٤)

« فَمَثَلُهُۥ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا
لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ .... كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ
أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطَلٌّ » (البقرة : ٢٦٤)

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأرض التي تمسك الماء وتنبت الكلأ، وإلى أخرى تمسك الماء فينتفع به ولا تنبت الكلأ، وثالثة رملية لا تمسك ماء ولا تمسك كلأ وضرب المثل بذلك على الهدى يسوقه الله إلى قلوب متباينة.

كذلك يشير القرآن إلى تباين الصخور وألوانها :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ

مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ
وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (فاطر: ٢٧ ـ ٢٨)

وقد تصيب القشرة الأرضية تغيرات فتنخفض جهة وترتفع أخرى من عوامل باطنية أو بفعل عوامل التعرية السطحية:

« أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن
يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ
فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ » (الإسراء: ٦٨ ـ ٦٩)

وقد تعددت الآيات التي تشير إلى الخسف، وهو وإن حدث عقوبة من الله لقوم على ذنوبهم فلا مانع أن يحدث ذلك بمقتضى ظاهرة كونية عادية كالزلازل والبراكين وطغيان البحار وانخفاض اليابس بفعل التواء في القشرة الأرضية أو غير ذلك:

« ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ
ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن
يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ». (الملك: ١٦ ـ ١٧)

« أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ »

(النحل: ٤٥)

وإلى جانب الخسف بفعل عوامل باطنية للقشرة الأرضية فقد تأتي النهب وتهبط قطع من أجرام سماوية على الأرض من أعلى فتحدث دمارا وهلاكا:

كقوله تعالى : « أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ
مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ
نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ » (سبأ: ٩)

« وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا »

(الجن: ٨)

كما تأتي الصواعق من العواصف الرعدية :

كقوله تعالى : « وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ »

(الرعد: ١٣)

« أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ
مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ » (البقرة: ١٩)

« فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ .... فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ
أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ..... فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ⑰ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ». (فصلت: ١٣ ـ ١٨)

وقد أودع الله الأرض كنوزا من المعادن والأحجار الثمينة قليلة الوجود عسيرة الاستخراج أو الأحجار الوفيرة الميسورة الرخيصة النافعة، وقد أشار القرآن للحديد:

« وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ »

(الحديد: ٢٥)

وللنحاس :

« وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ » (سبأ : ١٢)

كما أشار لاستخدام الصخور في النحت والتشييد :

« وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ » (الشعراء: ١٤٩)

« وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ » (الحجر: ٨٢)

« تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا
فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »
(الأعراف: ٧٤)

« وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ » (النساء: ٧٨)

« فَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ » (الحج: ٤٥)

وأشارت آيات القرآن المتعددة إلى الغلاف المائي، ومنها إشارة معبرة إلى الماء لها دلالتها على الزمن المبكر لوجوده، وذلك في الآية التر عرضت لانفصال الأرض عن السموات:

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (الأنبياء: ٣٠)

وثمة آية أخرى لها دلالتها أيضا في هذا المجال، وهي قوله تعالى:

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ » (هود: ٧)

وعرضت الآيات لمياه البحار والأنهار وثمراتها ومنافعها:

« وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (النحل: ١٤ ـ ١٥)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ
فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »
(فاطر: ١٢)

« وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ » (القمر : ١٣)

وأسار القرآن إلى ما يستخرج من البحر من روائع إفرازات كائناته:

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ » (الرحمن: ٢٢ - ٢٣)

وللقرآن وصف بالغ الروعة لاضطراب البحر، نزل على أمة من الناس لم يتعاملوا مع البحر إلا قليلا، ولم يخبروا أنواءه وعواصفه:

« أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ
مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ » (النور: ٤٠)

« هُوَ ٱلَّذِى
يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ
دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » (يونس: ٢٢ ـ ٢٣

« وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ » (هود: ٤٢

وأوضح القرآن كيف تحفظ نواميس الله الكونية المياه العذبة من الاختلاط بالمياه المالحة تعدد مصبات الأنهار في البحار والمحيطات:

« مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ »
(الرحمن: ١٩ ـ ٢٠

« وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا » (النمل: ٦١

وأبرزت الآيات أهمية المياه الجوفية التي تختزن في باطن الأرض:

« وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ
فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾
فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ » (المؤمنون:١٨-١٩

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى
ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ » (الزمر: ٢١

« وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ » (يس: ٣٤)

وأبرز القرآن ارتباط الماء في أصله بالأرض حتى لو تبخر وتكاثف وعاد إلى الأرض مطرا:

« وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا »

(النازعات: ٣٠ - ٣١)

وأوضحت الآيات ضرورة الماءة للحياة والأحياء من نبات وحيوان وإنسان:

« وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ » (الأنبياء: ٣٠)

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا
نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ». (السجدة: ٢٧)

« وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾
مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ » (النازعات: ٣٠ - ٣٣)

« وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا
وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا » (النبأ: ١٤ - ١٦)

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا
صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦)
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١)
مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ » (عبس: ٢٤ ـ ٣٢)

« وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا » (المرسلات: ٢٧)

ويحيط بالأرض الغلاف الجوي ثم الفضاء ولعل هذا ما يعبر عنه بالسماء بلفظ المفرد في آيات القرآن والله أعلم:

« ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ
ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ
لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) » (النازعات: ٢٧ ـ ٢٩)

« وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا
مُعْرِضُونَ (٣٢) » (الأنبياء: ٣١)

وقد حفظت قوانين الغازات ومدى كثافة الغازات التي تكون الغلاف الجوى وجاذبية الأرض

العلاقة بين الغلاف الجوى والأرض، وسبحت الكواكب في الفضاء، وانتظمت مدارتها وعلاقاتها وفق قواعد محكمة لا تحيد، كما كفل قانون الطفو الإفادة من الغلاف المائي في تسيير السفن:

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ »

(الحج: ٦٥)

وقد أشارت الآية الكريمة في جلاء إلى ملاءمة الضغط الجوي للإنسان على الأرض ومواجهته العناء عند الصعود إلى طبقات الجو العليا، وهو ما استخرجه بحق الميتورولوجي المسلم الأستاذ محمود حامد ـ رحمه الله ـ من قوله تعالى:

« وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا
يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ » (الأنعام: ١٢٥)

ودلالة الآية واضحة حقا دون أي اعتساف في التأويل، وهي تشبه الضغط النفسي للضلال بالضغط الحسي الذي يتعرض له الصاعد إلى الطبقات العليا عندما يخف الضغط الجوي الواقع على جسمه عما في داخل هذا الجسم من ضغط.

وقد أشار القرآن إلى تباين الحرارة باختلاف الفصول والأمكنة، وإلى ميزة اعتدالها بقوله عز من قائل:

« وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا
ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ » (فاطر : ١٩ ـ ٢١)

« لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا » (الإنسان : ١٣)

وأشارت آية من الكتاب المبين إلى أثر الارتفاع في تناقص درجة الحرارة وما يتبع ذلك من تجمد قطرات المطر، فقال الحق سبحانه:

« وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ
مَن يَشَآءُ » (النور: ٤٣)

كما بين تبارك وتعالى كيف يواجه الإنسان تقلبات الحرارة باللباس والمسكن:

« وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ »
(النحل: ٥)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ
سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا
يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا
وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم

مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ
لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ »

(النحل: ٨٠ ـ ٨١)

وقد عرض القرآن للرياح بآثارها النافعة والضارة :

« إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا
يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ
ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ
ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ » (البقرة: ١٦٤)

فالرياح تدفع السفن، وتحمل المطر، وتلقح النبات:

« حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ »

(يونس: ٢٢)

« أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا

فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن
مَّن يَشَآءُ ۗ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ »

(النور: ٤٣ ـ ٤٤)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ
وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۗ فَإِذَآ
أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

(الروم: ٤٨ ـ ٥٠)

« وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۗ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ

ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ
ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (الأعراف: ٥٧)

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ »
(الروم: ٤٦)

« وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا » (الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩)

« وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ». (الحجر: ٢٢).

على أن الرياح قد تكون جافة عقيا خلوا من بخار الماء، تسفي الغبار والرمال، وقد تستد فتأتي العواصف والأعاصير على الحرث، وتؤذي الحيوان والإنسان أو تهلكها أحيانا، كما قد تكون العواصف رعدية تصم الآذان، وبرقها يخطف الأبصار، أو تأتي مقترنة بالسيول الجارفة المدمرة:

« وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ
يَكْفُرُونَ » (الروم: ٥١)

« أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ
مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ
كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ » (البقرة: ١٩ ـ ٢٠)

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا » (الروم: ٢٤)

« هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ » (الرعد: ١٢ ـ ١٣)

« فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ » (البقرة: ٢٦٦)

« كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
فَأَهْلَكَتْهُ » (آل عمران: ١١٧)

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِ
ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن
كَثِيرٍ » (النسورى: ٣٢ ـ ٣٤)

« هُوَ ٱلَّذِى
يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ »
(يونس: ٢٢)

« وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ » (لقمان: ٣٢)

وقد تكون الرياح العاصفة وآثارها المهلكة من جنود ربك التي يرسلها على القوم الظالمين.

« ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ
وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » (فصلت: ١٦)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟
هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟
لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ »

(الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥)

« وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١)
مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ »

(الذاريات: ٤١ ـ ٤٢)

« إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » (القمر: ١٩ ـ ٢١)

« وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾
سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ
فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم
مِّنۢ بَاقِيَةٍ » (الحاقة: ٦ ـ ٨)

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ » (القلم: ١٩ ـ ٢٠)

« فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ
ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ
وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ » (سبأ: ١٥ ـ ١٦)

وقد تكون العقوبة الإلهية ظاهرة طبيعية، لكن شاء الله أن يوجهها إلى قوم بأعيانهم، ولا يشترط أن تكون في أصلها خارجة عن السنن، فالله هو الذي يرسل الرياح، وله الخلق والأمر، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا »

(الأحزاب : ٩)

« أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن
يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ
فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا »

(الإسراء: ٦٨ ـ ٦٩)

وتشير الآية الأخيره إلى ما أصبح من المقررات الجغرافية من أن حالة سطح الأرض بعيدة عن الثبات، فعوامل التعرية والتحات تعمل في السطح، والعوامل الباطنية تحدث الالتواءات والانكسارات والزلازل والبراكين، وهكذا قد يغير النهر مجراه، ويختط طريقا مائيا في اليابس، بينما يجف وييبس مجراه القديم، وما يحمله النهر من ذرات اليابس له أثره على نحته وإرسابه، وعلى قاعه وجانبيه ومصبه، ولمياه البحر مد وجزر، وللصخور أعمار، ومجرى النهر، قد يوصف بالفتوة أو الشيخوخة، وللجبال دورها، وللأنهار دورها. وقد أشار القرآن إلى التغيير الدائب في خلق الله، فسبحان من له الدوام:

« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ »

(القصص: ٨٨)

وهكذا أشارت الآيتان سالفتا الذكر من سورة الإسراء إلى خسف جانب البر وربما كان ذلك بعوامل باطنية، أو بطغيان الماء على اليابس وتراجع الشاطئ.

ثم أشارت إلى ارتفاع ما خسف من البر، وعودة الإنسان إليه، وتعرضه للرياح والسيول والماء سابق في تسلسل خلق الله:

« وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ » (هود: ٧)

وقد امتد على قشرة الأرض وهو يتبخر بفعل أشعة الشمس، صاعدا إلى طبقات الجو العليا، فتحمله الرياح، فإذا صادف البخار برودة تكاثف وسقط مطرا على الأرض من جديد، وقد يتغلغل الماء إلى جوف الأرض، فيكون خزانا تحت سطحها، وقد ينبثق ينبوعا أو يتوصل إليه الإنسان إذا حفر بئرا:

« أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا » (النازعات: ٣١)

فعوامل التغيير فى باطن الأرض وعلى سطحها وفي الكون كله تعمل، ولكن وفق قوانين تكفل الانتظام والتوازن والتناسق، حتى يأذن الله بنهاية الدنيا، فتنشق السماء وتنفطر، وتكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتنتثر الكواكب، وتفجر البحار وتسجر، وقد أوضح الله في آية منيرة هادئة من كتابه المعجز كيف يقترن في سنن الله التغيير المادي والاجتماعي، وكيف ينبغي أن ينتفع الإنسان قدر طاقته من هذا التغيير:

« أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا
رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ
مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ » (الرعد: ١٧).

وثمة آية في كتاب الله لها دلالتها بالنسبة للتغير الجغرافي والديموجرافي على السواء:

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى
ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ
لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » (الرعد: ٤١)

« أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ
ٱلْغَٰلِبُونَ » (الأنبياء. ٤٤)

وسمة آيات تسير في وضوح إلى التغيرات السكانية والتطورات الاجتماعية والدورات الحضارية على الأرض:

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ
حَفِيظٌۢ » (ق: ٤)

« أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن
لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى
مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ » (الأنعام : ٦)

« أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ
مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ »

(الأعراف: ١٠٠)

« أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ »

(طه: ١٢٨)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ
كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ » (غافر: ٨٢)

« فَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ » (الحج: ٤٥)

« كَمْ تَرَكُوا۟
مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾
وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ » (الدخان: ٢٥ ـ ٢٩)

وقد يسوق القرآن آياته في هذا الصدد مساق القوانين المجردة الثابتة المطردة:

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (الأعراف: ٣٤)

« وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم »
(محمد: ٣٨)

« وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ » (آل عمران: ١٤٠)

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ » (البقرة: ٢٥١)

ثالثا : الحياة على الأرض والبشر سكان هذا الكوكب :

أسار القرآن الكريم إلى الحياة وتوفير العوامل الضرورية لها منذ خلق الأرض وانفصالها عن السموات :

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (الأنبياء: ٣٠)

« * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ
فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ
أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ » (فصلت: ٩ ـ ١٠)

وقد وفرت القدرة الإلهية للأرض غلافها المائي وغلافها الجوي، مما كفل أهم مقومات الحياة على سطحها، فضلا عما وفرته من ظروف أخرى ضرورية وملائمة لهذه الحياة، وبخاصة حياة الكائنات العليا والأحياء، وأرقاها الإنسان.

وقد أشار القرآن إلى تعدد أنواع الكائنات الحياة :

« وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ
بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ

أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾
لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

(النور: ٤٥)

وتعبير «دابة» الذي يستعمله القرآن يمكن أن يوجه إلى وصف الكائن الحي بإطلاق دق أو عظم، ولا يشترط أن يكون دابة الركوب كما يتبادر إلى الذهن، فالآية الكريمة السابقة قد استعملته لما يمشي على بطنه وما يمشي على رجلين، وليس هناك مانع من الوجهة اللغوية البحتة لأن يتسع لفظ (الدابة) للفيروس والميكروب والجرثومة، فإن «الدبيب» قد يشير إلى علامة الحياة بإطلاق، وهي الحركة التي تكون ضئيلة أو مستخفية. ومن استعمالات العرب لهذا اللفظ ذات الدلالة في هذا المقام قولهم: «دب السقم في الجسم أو البلى في الثوب، أي سرى. ويقال: دبت عقاربه، أي سرت نمائمه وأذاه. والدبوب والديبوب: النمام الذي يدب أذاه، ودب دبا ودبيبا: مشى كالحية وعلى اليدين والرجلين كالطفل. يقولون: هو أكذب من دب ودرج، أي أكذب الأحياء والأموات، والديب : ولد البقرة أو ما تلده، والدبيب : كل داب، والدابة: مؤنث الداب، يقع على المذكر والمؤنث، والتاء فيه للواحدة تصغيره: الدويبة، مادب من الحيوان، وغلب على ما يركب ويحمل عليه، والدباب: الضعيف الذي يدب في المشي أو الشديد. الدبب والدبب : الزغب أو كثرة الشعر، والإدب: ذو الدبب، وهو الجمل الكثير الشعر. فالمادة اللغوية كما ظهر في جلاء تتسع لدبيب السقم في الجسم والبلى في الثوب، ودبيب الشر والأذى، والمشي كالحية والطفل والمشي الضعيف والزغب الضئيل، بل هي تتسع للتعبير عن الحياة بإطلاق في قولهم: «من دب ودرج»، أي الأحياء والأموات، إذ يقال: درج القوم واندرجوا، أي انقرضوا وماتوا.

ويستأنس لذلك بما ذهب إليه المفسرون في تفسير الدابة، حتى جعلوها تشمل الملائكة أيضا، ففي قوله تعالى:

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا
مِن دَآبَّةٍ ۚ » (السورى: ٢٩)

قال ابن كثير في تفسير: (وما بث فيهما من دابة): «هذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض». فهل يبعد عن هذا القول بأن الدابة تشير إلى مختلف الكائنات الحية بإطلاق.

وقد تعددت إشارات القرآن لأنواع متعددة من الدواب أو الأحياء، من نبات وحشرات وطير وحيوان، حتى تنتهي إلى الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وأشار رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم إلى ما دون ذلك من كائنات تدق عن ذرات الغبار وتندس بينها، فقال: «اتقوا الغبار فإن فيه النسمة». ونهى عليه صلوات الله وسلامه عن التنفس في الإناء، وتحدث صلى الله عليه وسلم عن العدوى، وإن لم يفصل عواملها وكيفيتها، فقال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، «إذا سمعتم بالطاعون في بلد فلا تدخلوه، فإن كنتم فيه فلا تخرجوا منه».

وعرض الكتاب المعجز لحياة النبات، وهو غذاء هام لغيره من الأحياء وعلى رأسها الإنسان، ولفت القرآن النظر إلى انبثاق الحياة عن انفلاق البذرة:

« ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ »
(الأنعام: ٩٥)

وأشار إلى مكان البذرة داخل التربة لتتغذى منها بما يحمله إليها الماء، وإلى توريق النبات وسائر مراحل الإنبات المتتابعة حتى الإثمار فالذبول والموت:

« وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ
إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ
وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » (الأنعام: ٥٩)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ
يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ
يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ
لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ » (الزمر: ٢١)

« وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ
حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ
مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ
ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ ۖ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (الأنعام: ٩٩)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ
ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (النحل: ١٠ ـ ١١)

« وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ (١٨)
فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا
فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ
سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ »

(المؤمنون: ١٨ ـ ٢٠)

« زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ » (النور: ٣٥)

« وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ
أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا

جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾
لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ »

(يس: ٣٣ ـ ٣٥)

« وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾
لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا »

(النبأ: ١٤ ـ ١٦)

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا
صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾

مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ »

(عبس: ٢٤ ـ ٣٢)

« وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾

وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ » (الرحمن: ١٠ ـ ١٣)

وإن ما يجود النبات وثمراته بجودة البذرة، وليس فقط بتوفير غذائه من الماء والتربة:

« وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ
مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ
وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (الرعد: ٤)

وقد تهيأ ظروف الإنبات في بعض صخور الجبال، تحمل اليها الريح بذرة:

« يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ ». (لقمان: ١٦)

وإلى جانب البذرة والماء والتربة، للرياح دورها في حياة النبات:

« وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ » (الحجر: ٢٢)

وقد أشار القرآن إلى الزوجين أو التأنيث والتذكير في النبات، وهو ما يستلزم حدوث التلقيح:

« وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ » (الرعد: ٣)

« فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ » (طه: ٥٣)

« سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ
وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » (يس: ٣٦)

« وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ » (ق: ٧)

« وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ » (الحج : ٥)

ولخضرة النبات أثرها في إمداده بالطاقة ، وإمداد الإنسان أيضا بوسيلة للحرارة والضوء:

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ
أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ » (يس: ٨٠)

وهكذا تتضافر عوامل طبيعية متعددة لتحقيق حياة النبات واستمرارها إلى أجلها الموقوف، إلى جانب عوامل بشرية اجتماعية تعين على التنمية والإنتاج:

« وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا

يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ »

(الأعراف: ٥٨).

فلقد هيأ الله للنبات عوامل تعين على انتصاب ساقه منذ انفلاق بذرته، وصموده أمام جاذبية الأرض وضغط التربة والماء والجو ودفع الريح وأثناء استمرار حياته، ومغالبته عوادي الحرارة والجفاف والآفات قدر إمكاناته، فيورق ويزهر ويثمر، ويحقق النبات رغم طفولته اللدنة الغضة الرخصة توازنا ميكانيكيا وكيمائيا مذهلا، منحه إياه الذي خلق كل شيْ بقدر، وأعطى كل شيْ خلقه ثم هدى، وصدق الله العظيم:

« وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ » (الحجر: ١٩)

وتتباين أنواع النبات وألوانه وأشكال نموه :

« وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » (النحل: ١٣)

« ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ
كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ
وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ » (الأنعام: ١٤١)

وقد تكون الجنات المعروشات وغير المعروشات على ما قال المفسرون ما يزرعه الإنسان بيده، وما يخرج من نبات فطري بري بغير تدخل الإنسان وجهده.

كذلك عرض القرآن نماذج من الكائنات الحية الضئيلة المعروفة بالحشرات وصورا من حياتها وسلوكها، تبين كيف تضطلع أعضاؤها بوظائف حفظ حياتها وكفالة حاجاتها، وحمايتها من المخاطر التي تعرض لها بالصورة الملائمة لحجمها وطبيعتها وظروف معيشتها:

« كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ
ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ » (العنكبوت: ٤١)

وقد زود الله هذه المخلوقات الضئيلة بقدرات دفاعية بل هجومية أحيانا:

« لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا » (الحج: ٧٣)

والذباب قد يسلب الإنسان عافيته كما علمنا بعد قرون من نزول القرآن، فلا عجب إذن أن تكون هذه المخلوقات المحتقرة مضربا للأمثال:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ
« أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ
مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا »
(البقرة: ٢٦)

ذلك أن بديع صنع الله يتجلى في البعوضة والذبابة مثلما يتجلى في الجمل والفيل.

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ
ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ » الحج: ٧٣)

وصدق الله العظيم :

« قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ »
(طه : ٥٠)

ولقد وصف الحق وجل وعلا قدرته المعجزة فى كتابه بعد كلامه عن خلق الذباب وهو أن الإنسان أحيانا إلى جانب الذباب الذي يقوى على سلب الإنسان مالا يستنقذه منه:

« ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾
مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ »
(الحج: ٧٣ ـ ٧٤)

ويبين القرآن أن لهذه الكائنات الدنيا لغة تتخاطب بها، وإن كنا لا نسمع أصواتها أو لا نفهم دلالاتها، ولكن يستطيع ذلك من حباه الله بوسائله:

« حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ
ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ».

(النمل: ١٨ ـ ١٩)

بل إن من هذه الحشرات الضئيلة ما يهيىء بما فطره الله عليه من غرائز ووظائف وسلوك منظم محكم دقيق منافع جليلة للإنسان:

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ
ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن
كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (النحل: ٦٨ ـ ٦٩)

ويوجه القرآن النظر إلى اختلاف ألوان الأحياء وأنواعها:

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ »

(فاطر: ٢٨).

ويشير القرآن إلى تعدد فصائل الحيوان والطير:

« وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ
أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » (الأنعام: ٣٨).

ثم تبرز الآيات كيف وهب الله الطير من شكل الجسم وأعضائه، ومن الوظائف والقدرات والغريزة ما يعينه على الطيران:

« أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ
مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (النحل: ٧٩)

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ
إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ » (الملك: ٩)

وللطير لغته التي يتخاطب بها، ولقد كان من وظائف الطير التي هيأها الله له وكانت نافعة للإنسان، وما سخره الله لداود وسليمان عليهما السلام:

« وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ».
(الأنبياء: ٧٩)

« وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ
جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ »
(النمل: ١٦ ـ ١٧)

« وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)
إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ
ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٢٦) ۩
* قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧)
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ » (النمل: ٢٠ ـ ٢٨)

ولقد أدى الحمام الزاجل للبشر أجمعين طوال القرون مهمة الرسائل بين الجهات المتباعدة، لكنه اقتصر على دلك، ولم يكتشف عن مرئياته وخبراته كما فعل الهدهد سليمان عليه السلام، ولو فعل

لما فهم عنه الإنسان في يسر كما فهم عن الهدهد وغيره نبي الله الذي علم منطق الطير. وهكذا ينطق جسم الطائر وطيرانه وسائر وظائفه بإعجاز صنع الله الذي أتقن كل شيء

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ
صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ »

(النور: ٤١)

وإلى جانب ذلك فلطالما قدمت أنواع من الطير للإنسان على الأرض غذاء شهيا يأتيه منها في الآخرة مالا عين رأت، ولا خطر على قلب للبشر، كما يخبر الحق سباحانه:

« وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » (الواقعة: ٢١)

وقد أشار القرآن الكريم إلى الزواحف، وإلى الحيوانات بمعناها الأخص في سياق تعداده لأنواع الحيوان بوجه عام:

« وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ
بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ
أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

(النور: ٤٥).

وقد يتسع معنى المشي على البطن لغير الزواحف من الكائنات الحية بشيء من التجوز. وقد أشارت الآيات الكريمة إلى تعدد فصائل الحيوان والطير:

« وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ
أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »
(الأنعام: ٣٨)

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ »
(فاطر: ٢٨)

وتعددت الآيات من سورة الأنعام الضأن والمعز والإبل والبقر:

« وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ
حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ
ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ .... وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ
وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ »
(الأنعام: ١٤٢ ـ ١٤٣)

« وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ » (الزمر: ٦)

وقد أشارت الآيات إلى أن الله خلق الأنعام والحيوان بوجه عام كما خلق النبات أزواجا، وذكر القرآن أن هذه «الزوجية» و«الثنائية» هي سنة الله في كثير من خلقه مما نعلم وما لا نعلم:

« وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »
(الذاريات: ٤٩)

« سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ
وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » (يس: ٣٦)

« وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا » (الزخرف: ١٢)

وقد وجه القرآن النظر إلى أنواع الحيوان ومنافعها للإنسان، وبخاصة ما يعرف بالحيوانات الاقتصادية:

« وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ
حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ». (الأنعام: ١٤٢)

« وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ
وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ
وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟

بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾
وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ
لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ » (النحل: ٥ ـ ٨)

« وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ
مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ »
(النحل : ٦٦)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ
سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا
يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا
وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ » (النحل: ٨٠)

« وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا

(٢١) يقصد بنفس الأحرف الأمهرية .

(٢٢) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، مرجع سبق ذكره ص ١٧٦ .

(٢٣) انظر البحث ص (٥) .

(٢٤) انظر البحث ص (٤) .

(٢٥) انظر البحث ص (٥) .

(٢٦) انظر البحث ص (٧) .

(٢٧) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٠ .

(٢٨) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٢ .

(٢٩) انظر البحث من ص ٨ ـ ١٢ .

(٣٠) يشكل المسيحيون في مدينة أسمرا ٧٥٪ من السكان .

(٣١) خوفا على قاعده إنيوستيشن للاستخبارات من الدمار .

(٣٢) المقصود هنا بانحسار دور المسلمين هو انحسار دور الشباب المسلم، لأن معظم القيادات رفعت الشعارات الاستراكية والماركسية، وهي محسوبة على المسلمين.

(٣٣) نشأ أخيرا ضمن صفوف المجلس الثوري حزب ماركسي الاتجاه، يسمى بحزب العمل الأريتري (بدأ في النمو منذ الستينات).

(٣٤) تدعو قوات التحرير الشعبية إلى التزاوج الثقافي العربي ـ التجريني في أريتريا، بينما يرفض تنظيم آسياس أفورقي هذا الاتجاه، ويدعو إلى تجزئه أريتريا.

(٣٥) تخفف أثيوبيا الضغط على المناطق التي تسيطر عليها الجبهة الشعبيه.

(٣٦) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢م، الفقرات: ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٧، صفحة ١٥٥ ـ ١٦١، بغداد ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م.

(٣٧) تنص المادة (٢) من المعاهدة على: «أن الحكومة الإمبراطورية الأثيوبية تمنح الولايات المتحده حق ممارسة جميع الحقوق والصلاحيات والسلطات الضرورية لإنشاء وإدارة وتسيير المنشآت للغايات العسكرية، ولا يدخل في هذه الحقوق حق أو سلطة أو صلاحية تحويل هذه المنشآت أو جزء منها تحت تصرف دولة أو حكومة أو قوة عسكرية ثالثة».

(٣٨) كان ذلك أثناء مناقشة المشاريع المقدمة بشأن مستقبل أريتريا (١٩٥٠م) في معرض رده على المندوب البريطاني الذي نادى بعدم استقلال أريتريا.

(٣٩) يقصد حرب الحبشة مع إيطاليا .

(٤٠) تمثلت في المعاملة الحسنة من قبل القيادات المسلمة لأبناء وطنهم من المسيحيين غير مبالين بالحساسيات القديمة التي نشأت في الأربعينات. كما أن قيام القياده العامة (وبدافع إقليمي طائفي) ببعض الإعدامات ضد أبناء الهضبة المسيحية مما دفع آسياس أفورقي إلى الانفصال بتنظيم ظاهره ماركسي بينما جوهره طائفي.

المصادر

المصادر العربية :

- أدولف روسي : أريتريا اليوم (روما ١٨٩٤م) ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية.
- وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا : (تقرير اللجنة الرباعية ١٩٤٨م - تقرير بعثة الأمم المتحدة في أريتريا ١٩٥٠م - التقرير النهائي لمندوب الأمم المتحدة ١٩٥٢م) ترجمة جبهة التحرير الأريترية، بغداد ١٩٧٧م.
- وثائق الخارجية الإيطالية حول أريتريا : ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية، دمشق ١٩٧٧م.
- جبهة التحرير الأريترية : جهودنا من أجل الوحدة، (وثائق صادرة عن قوات التحرير الشعبية)، مكتب الإعلام.
- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٠٣م.
- عثمان صالح سبي : تاريخ أريتريا ، دمشق ١٩٧٧ م .
- فرديناندو مارتيني : أريتريا في أفريقيا الإيطالية ، ترجمة جبهة التحرير الأريترية، بيروت ١٩٧٦م.
- سيد أحمد خليفة : عارنا في أريتريا ، بيروت ١٩٧٤ م .
- رينيه باسيه : النقوش الكتابية في جزيرة دهلك ، ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية، دمشق ١٩٧٧م.
- محمد سيد محمد : العلاقات بين السودان والحبشة في أواخر القرن التاسع عشر - مجلة جامعة الملك عبدالعزيز، العدد الأول، صفحة ٢٠٧ - ٢٣٢، مكة المكرمة ١٩٧٥م.

المصادر الأجنبية :

—Abul—Haggag, Y. A Contribution to the physiography of Northern Ethiopia, London, 1961.

- Shoff, W. H. : Periplus of the Erythrean Sea, New York, 1912.
- Ulendorff, E, : The Ethiopians-Introduction to people and country, London 1955.

مشكلة مسلمى الفلبين منذ الاحتلال الاسبانى حتى الوقت الحاضر

دكتور / محمد شتا

المقدمة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبدالله المبعوث رحمة للعالمين، وبعد.

فإن مشكلة المسلمين الذين يعيشون في الفلبين اليوم لا ترجع إلى هذا القرن الذي نعيش فيه بعد أن حصلت الفلبين على استقلالها، وإنما ترجع إلى خمسة قرون سابقة، عندما طرق الاستعمار الأسباني أرض الفلبين، فاستعمر أجزاء منها، ونشر المسيحية فيها، وحاول أن يبسط سلطاته وسيادته ودينه على الجزر والأراضي التي يقيم فيها المسلمون، فبدأ الصراع بينه وبين المسلمين، واستمر طيلة وجود الاستعمار الأسباني الذي استطاع أن ينشر المسيحية في الأماكن التي احتلها، ونجح في أن يجعل الفلبينيين المسيحيين يرثون روح العداوة والحقد التي يكنها الاستعمار الأسباني للمسلمين الذين تمسكوا بدينهم، ودافعوا عن أرضهم ووطنهم، ولم يعتنقوا دين الأسبان المسيحي، بل ظلوا يقاتلون الأسبان أثناء استعمارهم للفلبين، ثم استمر القتال فترة وجود الأمريكان، وإن كان قد هدأ فترة سادها الحذر، ثم اشتد الصراع بعد الاستقلال إلى أن وصل إلى الوضع الحالي الذي يعاني منه المسلمون اليوم من أجل الاحتفاظ بدينهم وبأرضهم وقيمهم.

ومن هنا نرى أن مشكلة المسلمين في الفلبين إنما هي بقية من بقايا الاستعمار الأسباني في الفلبين، وذيل من ذيوله التي خلفها بعد أن رحل عنها. وحل هذه القضية أو المشكلة إنما هو حل لقضية استعمارية قد طال عليها الزمن حتى بعد رحيل الاستعمار الأسباني بثمانين عاما.

وسوف تكون دراستنا لهذه المشكلة في إطار الحديث عن موقع الفلبين وأهم جزرها ـ السكان وديانتهم ـ علاقات العرب بالفلبين ـ دخول الإسلام إلى الفلبين ـ وصول الأسبان إلى الفلبين وبداية مقاومة المسلمين لهم ـ تتابع حملات الأسبان لاحتلال الفلبين ـ أسباب الحرب بين الأسبان وبين المسلمين ـ تمكن الأسبان من القضاء على المسلمين في شمال الفلبين ـ محاولتهم القضاء على المسلمين في الجنوب ـ صمود المسلمين في القتال ضد

الأسبان ـ محاولة المسلمين الاستعانة بقوى أجنبية أخرى ضد الأسبان ـ المعاهدات بين المسلمين وبين الأسبان ـ هزيمة الأسبان أمام الأمريكان ـ موقف الأمريكيين من المسلمين في الفلبين ـ ثم تطور المشكلة بعد الاستقلال.

المشكلة بعد الاستقلال.

١ ـ موقع الفلبين وأهم جزرها :

تقع الفلبين في جنوب شرقي آسيا بين خطي عرض ٥°، ١٨° شمال خط الاستواء، وبين خطي طول ١٢٠°، ١٢٧° شرقي خط جرينتش، وتظهر الفلبين كأرخبيل يمتد في جنوب شرقي قارة آسيا. وأول جزيرة فيها من الشمال هي جزيرة (يامي) Yami التي تبعد عن فرموزا ٧٨ ميلا، وآخر جزيرة فيها من الجنوب هي جزيرة (سالوج) Saluog التي تبعد عن برنيو ٣٤ ميلا. ومجموع جزر الفلبين ٧١٠٠ جزيرة بشكل تقريبي لمثلث متساوى الساقين، طوله من الشمال إلى الجنوب ١١٥٢ ميلا، ومن الشرق إلى الغرب ٦٨٨ ميلا، وعدد الجزر التي لها أسماء ٢٧٨٢ جزيرة، والباقي من الجزر ليس لها أسماء بعد.

وأكبر الجزر هي جزيرة (لوزون) التي فيها عاصمة الفلبين (مانيلا) ومساحتها ٤٠٨١٤ ميلا مربعا، وتليها جزيرة (منداناو) ومساحتها ٣٦٩٠٦ ميلا مربعا، والثالثة جزيرة (سمر) ومساحتها ٥١٢٤ ميلا مربعا.

ومن الجزر الكبيرة جزيرة (نجرو) ومساحتها ٤٩٠٣ ميلا مربعا، وجزيرة (بلاون) ومساحتها ٤٥٠٠ ميلا مربعا، وجزيرة (باناي) ومساحتها ٤٤٤٨ ميلا مربعا، وجزيرة (مندور) ومساحتها ٣٧٩٤ ميلا مربعا، وجزيرة (ليبات) ومساحتها ٢٧٩٩ ميلا مربعا.

ومجموع مساحة الفلبين ١١٥٦٠٠ ميلا مربعا، وهذه المساحة تعادل مساحة إيطاليا، كما تعادل مساحة اليابان، وحوالى ثلثي مساحة أسبانيا.

٢ ـ السكان وديانتهم :

يتكون السكان في الفلبين من أجناس مختلفة من الزنوج والملايا والأندونيسيين والهنود والصينيين واليابانيين والعرب والأوربيين والأمريكان.

وقد قدر الأستاذ H. otley Beyer ـ أستاذ السلالات ـ نسبة الدم الذي يجري في عروق الفلبينيين بما يأتي:

الزنوج	١٠٪
أندونيسيا	٣٠٪
الملايا	٤٠٪
الصينيين	١٠٪
الهنود	٥ ٪
الأوربيين والأمريكان	٣ ٪
العرب	٢ ٪

وقد بلغ تعداد السكان في سنة ١٩٣٩م (١٦ر٠٠٠ر٣٠٣) مليون نسمة، وفي سنة ١٩٤٨م (١٩ر٢٣٤ر١٨٢) مليون نسمة(١).

وفى سنة ١٩٦٠م بلغ تعداد السكان (٢٧ر٠٨٦ر٦٨٥) مليون نسمة. وفى سنة ١٩٧٠م بلغ تعداد السكان (٣٧ر١٥٨ر٠٠٠) مليون نسمة(٢).

ويوزع السكان حسب معتقداتهم في الإحصاء الأخير سنة ١٩٧٠م كالآتي:

الطوائف الدينية	العدد الكلي	النسبة المئوية
الكاثوليك	٢٧ر٨٦٨ر٥٠٠	٧٥٪
المسلمون	٤ر٤٥٨ر٩٦٠	١٢٪
الأجليبابان	٢ر٦٠١ر٠٦٠	٧ ٪
الوثنيون	١ر٦٣٤ر٩٥٢	٤ر٤ ٪
البروتستانت	٣٨١ر٥٨٠	١ ٪
البوذيون	١١١ر٤٧٤	٠ر٣ ٪
الشينتو	٧٤ر٣١٦	٠ر٢ ٪
طوائف أخرى	٣٧ر١٥٨	٠ر١ ٪
المجموع... ...	٣٧ر١٥٨ر٠٠٠	١٠٠٪(٣)

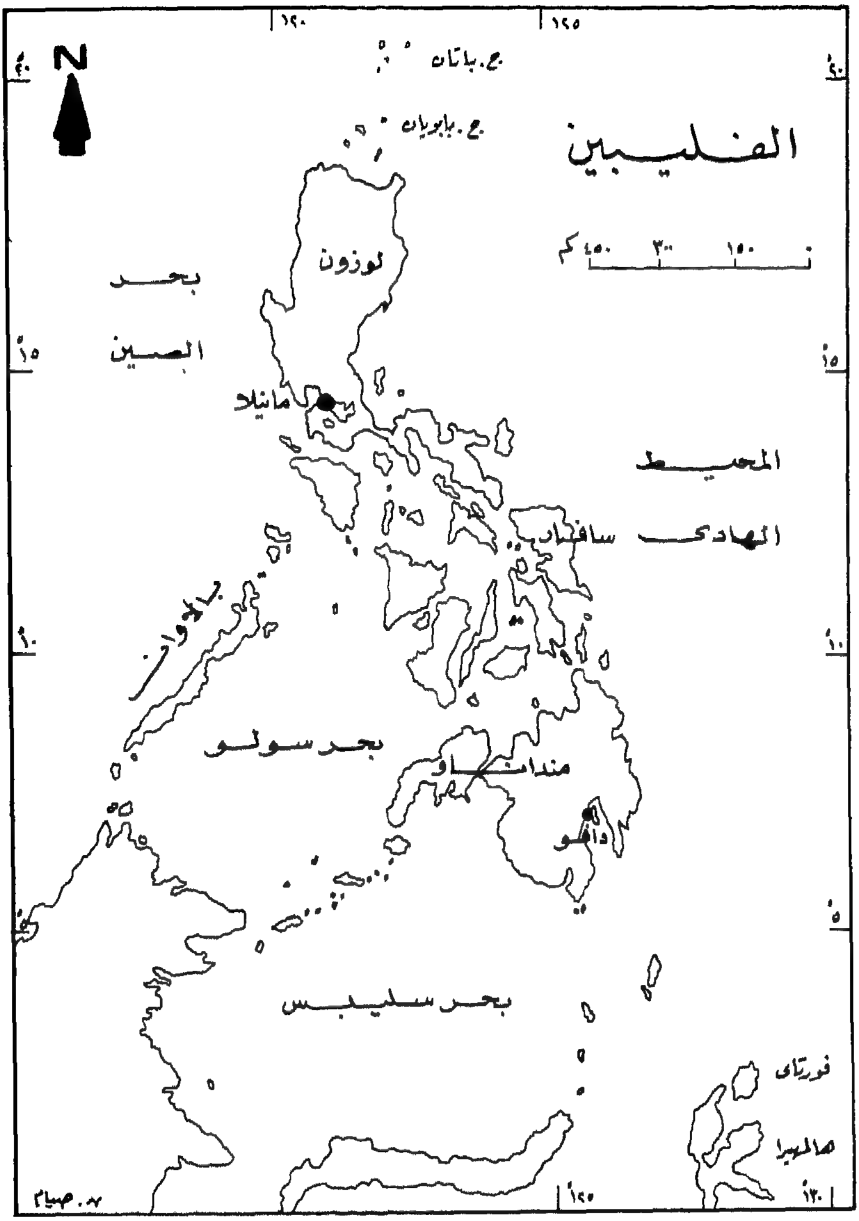
الفلـيبين
N
ج. باتان
ج. بابويان
٠ ١٥٠ ٣٠٠ ٤٥٠ كم
١٢٠
١٢٥
٢٠
١٥
١٠
٥
لوزون
بحر
الصين
مانيلا
المحيط
الهادي
سافنار
بالاوان
بحر سولو
منداناو
دافو
بحر سليبس
فورتاي
هالميرا
١٢٥
١٣٠
م. صيام

٣ ـ علاقات العرب القديمة بالفلبين :

لقد أقام العرب علاقات مع الشرق الأقصى خلال الحكم السبئي في جنوب الجزيرة العربية، حينما كانت سفن العرب التجارية تمخر عباب بحر الملايا ذاهبة إلى الصين في القرن الأول الميلادي، وفي القرن الثالث كان للعرب جالية تجارية تقيم في كانتون Canton، وفي القرن التاسع الميلادي زارت سفن العرب Kedahفي شبه الجزيرة الملايوية. ويقول RAYMUDO Geler : إن العرب السبئيين وصلوا بتجارتهم إلى الصين، وزاروا أماكن مختلفة في الفلبين مثل بلاوان، براجوا، منداناو، وكالامينتن، بسايا، مندورو، ولوزون(٤).

٤ ـ وصول الإسلام إلى الفلبين :

يذكر مؤلف التاريخ السياسي والثقافي للفلبين أن المسلمين الذين وصلوا إلى جنوب شرق آسيا، وحملوا الدين الإسلامي معهم، كانوا من سلالة السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يبين أنه بمصاهرة الأسر الوطنية الحاكمة وبالحيل السياسية استطاعوا أن يستولوا على حكم الملايو ويوحدوا حكومتها في حكومة واحدة، وأخذوا ينشرون العقيدة الإسلامية بهمة ونشاط ملحوظين. حتى إذا كانت سنة ١٢٧٦م وجدنا الإسلام قد أصل جذوره في «ملقا» Malacca، هذه المدينة التي صارت قلعة للمسلمين، وعاصمة فيما بعد لامبراطورية «ماجاباهت الهندية».

ثم يستمر في حديثه فيقول : ولكن كتب المؤرخين المسلمين في الفلبين moro Chronicles تذكر أن الداعية العربي مخدوم أمين الله المنتصر في «ملقا» وصل إلى ساحل سولو أحد جزر الفلبين الجنوبية في سنة ١٣٨٠م، وبدأ ينشر الدين الإسلامي في الفلبين. وبعد عدة أعوام وفي سنة ١٣٩٠م قاد «راجابجندا» أمير منانكا بن سومطرة Mononkaben Sumatra جيشا من المسلمين فتح به «سولو» واستطاع بسهولة أن يستولي عليها، لأن جنوده كانوا يستعملون البنادق التي كانت تستعمل لأول مرة في الفلبين.

وفي سنة ١٤٥٠ م وصل إلى سولو أبوبكر المسلم القائد من Palembong Sumatra وتزوج Poramisuli بنت «راجابجندا»، بعد وفاة راجابجندا تولى أبوبكر الحكم، وأقام سلطنة سولو، وأعلن نفسه سلطانا عليها. وقد شكل السلطنة على نظام السلطنة العربية معطيا لنفسه كل

اختصاصات الخليفة، وكان نظام حكمه مستمدا من القرآن الكريم والتعاليم الإسلامية، وبذلك استطاع أن ينشر بين المواطنين عادات وتقاليد جديدة مستمدة من آداب الإسلام - وتعاليمه. وقد توفي أبوبكر سنة ١٤٨٠م بعد أن حكم ثلاثين عاما حكما ناجحا، سعد المحكومون في ظله بتعاليم الإسلام السمحة.

أما جزيرة (منداناو) ثاني الجزر الكبيرة في الفلبين والتي يوجد فيها الآن أربع محافظات يقطنها المسلمون فقد وصل الإسلام إليها عن طريق الشريف المسلم كابنسون Kabungsuwon قائد Gohor. ففي سنة ١٤٧٥م استطاع كابنسون مع الجنود (السمل) الذين يسكنون فى جزيرة قريبة من منداناو أن ينزل إلى شاطئ محافظة (كوتاباتو)، وأن ينتصر على القبائل المستوطنة هناك التى كانت قد استعدت لحربه. وقد بدأت القبائل الأصلية تعتنق الدين الإسلامي بعد انتصاره عليهم، كما تزوج الشريف كابنسون أميرة من أهل البلاد تسمى Putntunina وصار الأمير كابنسون أول سلطان مسلم في منداناو.

بينما يذكر الأستاذ نجيب صليبي في كتابه «تاريخ سولو» ما ينفي استخدام القوة في دخول الإسلام إلى الفلبين، وأن انتشار التعاليم الإسلامية واعتناق السكان الأصليين لها قد سبق قيام الحكم الإسلامي، فيقول(٥): «وقد أثر في الفترة من سنة ١٣٨٠م إلى سنة ١٤٥٠م ـ أي في الدعوة إلى الإسلام ـ رجلان مشهوران، هما مخدوم وراجابجندا. ومخدوم كان قاضيا عربيا وأستاذ وصل إلى «ملقا» في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، حيث استطاع أن يجعل سلطان «ملقا» محمد شاه يعتنق الإسلام، ويقيم تعاليمه في أنحاء مملكة ملقا، واستمر تأثير مخدوم مشرقا إلى أن وصل سولو ومندانا وفي سنة ١٣٨٠ هـ، حيث زار جزر الأرخبيل، وجعل كثيرا من الناس يعتنقون الإسلام في كثير من الأماكن. وتدعى جزيرة «سيبوتو» أن بها قبره، ولكن الأماكن التي كان نجاحه فيها باهرا هي «بونسا»، حيث تمكن بمساعدة رؤساء القرى الذين اتبعوه أن يقيم بها مسجدا.

وقد نجح مخدوم في الوعظ والتبشير بالدين الجديد بين الناس الذين اشتهروا بالاستقلال في آرائهم، والعناد في ممارسة دينهم وعقائدهم وعاداتهم، كما هو معروف ومشهور عن أهل سولو، وقد ألقى نجاحه في التبشير بالإسلام في تلك البقاع ضوءا جديدا على تاريخ الإسلام في الفلبين، حيث غير الرأي السائد بأن الإسلام دخل الفلبين بالسيف، كما كان لتعاليمه تأثير

كبير على أهل سولو الذين يصعب التأثير عليهم لتمسكهم بحريتهم وشجاعتهم المنقطعة النظير، ولقد لقيت تعاليم الإسلام في أهل سولو تربة صالحة لها.

ويستمر مؤلف «تاريخ سولو» فيقول: إنه بعد عهد مخدوم هناك قدم إلى سولو أمير من مانتكابن* يسمى راجابجندا**، وفال: إنه وصل إلى سمونجا وباسيلان قبل وصوله إلى سولو، وإنه تابع الأصول الشمالية التي تفود من (برنيو) إلى (كاجيان سولو)، (وبانوتارن)، سمونجا). وعندما وصل إلى بونسا خرج أهل سولو ليقاتلوه كما هو متوقع عادة، ولكن سلسلة النسب تستمر لتوضح أنه كان مسلما، لذلك كفوا عن القتال ودعوه ليقيم معهم، كما أكرموا استقباله. وقد كان راجابجندا مصحوبا بوزرائه، ولاسك أنه قدم إلى بونسا ليقيم ويحكم، وكان مجيئه نوعا من الغارات الطبيعية التي وضح نجاحها. كما ذكرت (ترسيلا) Trsila مندانا وأن الشريف (كابنسون) قد وصل إلى مندانا وبسلام، كما وصل راجابجندا إلى سولو. وبذلك اتفق المؤرخون الوطنيون في سولو ومندانا على أن إقامة الحكم الإسلامي في سولو على يد «راجابجندا» وفي مندانا وعلى يد الشريف «كابنسون» كان بطريق سلمي، ولم يستخدم السيف أو القهر والقوة».

هذا ما يذكره مؤلف «تاريخ سولو» الأستاذ نجيب صليبي وما بذكره مؤلف التاريخ السياسي والثقافي للفلبين عن دخول الإسلام إلى الفلبين. بينما يذكر الدكتور فيصر أديب مخول في كتابه القيم عن «الإسلام في الشرق الأقصى» عدة نظريات عن دخول الإسلام إلى الفلبين، منها: النظرية التجارية لانتسار الإسلام (ص ٤٢ ـ ٤٦)، والنظرية التبشيرية (ص ٦٦ ـ ٧٥)، ثم دور الحركة الصوفية في انتشار الإسلام (ص ٧٨ ـ ٩٠)، والنظرية السياسية مع ذكر أثر العامل الاقتصادي فيها (ص ٩٨ ـ ١١٤)، ثم يتحدث عن النظرية العقائدية والنظرية الصليبية⁽٦⁾ لدخول الإسلام إلى الفلبين (ص ١٢٢ ـ ١٤٩).

وهو محق عندما يقول في نهاية بحثه الجاد عن دخول الإسلام إلى الفلبين: إن كل نظرية بمفردها غير كاملة إلا أنها تكمل بعضها بعضا⁽٧⁾.

ومن هنا نرى أن عمل التجار المسلمين والمبشرين والدعاة ـ كما هو ثابت على القبر الموجود في جبل داتو القريب من سولوَ والذي توفى صاحبه سنة ٧١٠ هـ الموافق ١٣١٠م قد

سبق إقامة الحكم الإسلامي، ومهد له الطريق منذ مطلع القرن الرابع عشر أو قبل ذلك إلى حين وصول راجابجندا سنة ١٣٨٠م، حيث وجد شعبا مسلما في حاجة إلى قائد، فكان هو القائد المنتظر الذي أقام حكما إسلاميا دون أن تراق فيه دماء، وإنما هو إقامة لحكم إسلامي بين قوم مسلمين.

ومن سولو ومنداناو انتشر نور الإسلام، وعمت تعاليمه بين البسايا وغيرها من جزر الفلبين، كما تأصل في جزر مندور وباتنجس، وقامت إمارات وممالك في وسط وشمال الفلبين. ففي سنة ١٥٧١م كانت مانيلا عاصمة الفلبين الآن يوجد فيها مملكة إسلامية تحت قيادة راجا سليمان ـ ملك فلبيني مسلم ـ كما كانت في لوزون عند نهر Pasing River Tondo مملكة إسلامية أخرى تحت حكم الملك المسلم(٨).

٥ ـ وصول الأسبان إلى الفلبين وبداية مقاومة المسلمين لهم :

لقد بدأ وصول الأسبان إلى الفلبين في ١٧ مارس ١٥٢١م حين وضع (ماجلان) قدمه على أول أرض في الفلبين، وكان ذلك في جزيرة غير مسكونة جنوب جزيرة سمر تسمى Homomhon وقد حضر إلى الجزيرة بعض الفلبينيين، فأعطاهم ماجلان بعض الهدايا، وأعطاه الفلبينيون بعض الأطعمة، وفي ٢٥ مارس أبحر ماجلان نحو الجنوب الغربي، فوصل إلى جزيرة ليماساوا في ٢٨ مارس، حيث وجد مملكة تحت حكم راجا Kolombo، واستطاع ماجلان أن يتحادث مع الملك بواسطة عبده مترجم اسمه Enrigue من الملايا، وقد أعلن كلاهما صداقته للآخر. وفي نفس اليوم أعلنا اتفاقا دمويا بينهما، وهذا أول اتفاق فلبيني أسباني في التاريخ.

وبهذه المناسبة أقام الأب Pedro de Valderroma حفلة على شاطئ جزيرة Limasawa حضرها ملك Kolombo وماجلان ورجاله لكي يعلنوا هذه الحادثة التاريخية، وهي وصول الأوربيين إلى الفلبين، وقد زرع ماجلان شجرا على الجبل وأقام صليبا وانحنى له، وكذلك فعل الملك، وقد ساعد جنود الأسبان رجال الملك في حصاد أرزه، وبعد ذلك صاحب الملك الحملة إلى جزيرة سيبو. وفي ٧ أبريل ١٥٢١م وصل ماجلان إلى شاطئ جزيرة سيبو، واستعد لخوض معركة حربية، فأطلق مدافعه التي سببت ذعرا وخوفا شديدا للناس، وأرسل ابنه مع

المترجم Enrigue يقول لملك سيبو الذى كان رئيسا لثمانية قبائل (٢٠٠٠) مقاتل بالرماح: إن سيده قائد لأكبر ملك في الدنيا، وأنه حضر لكي يكتشف Mulucha ويريد أن يزوره لما سمعه عنه من سيرة طيبة، وليشتري طعاما من التجار، فأظهر الملك رغبته في استقباله، ولكن بشرط أن يدفع ماجلان الضريبة التي تدفعها سفن التجار الذين يدخلون الميناء، وبعض هذه السفن لدول أجنبية مثل سيام.

ولكن ماجلان رفض أن يدفع الضريبة، وتدخل (راجاكولامبو) ونصح ملك سيبو، وبين له الرغبة الطيبة للأسبان، فتنازل الملك عن طلب الضريبة، وترك ماجلان ينزل إلى شاطئ «سيبو» وفي ذلك اليوم احتفل أهل سيبو وماجلان ببداية الصداقة بينهما، وكانت سيبو في ذلك الوقت مدينة اقتصادية لها صلات تجارية مع الجزر الأخرى ومع شرق الهند وسيام والصين، كما كان أهلها يرتدون الملابس والحلي ولهم منازل ويحكمهم قانون، ولهم صناعة وتجارة وميزان وقياس، ويستخدمون كثيرا من آلات الموسيقى والطرب مما يدل على تقدمهم الحضاري...

وقد بذل ماجلان جهدا كبيرا لكي ينشر المسيحية بينهم، وبين لهم مزاياها، وبسرعة اعتنق ملك سيبو وأتباعه المسيحية، وتنصر في ١٤ أبريل سنة ١٥٢١ حوالي خمسمائة شخص من أهل سيبو، وكان من بينهم الملك وأسرته وكذلك راجا Kalambo. وقد أقيم صليب كبير على الشاطئ، فبلغ عدد المتنصرين ثمانمائة شخص من رجال ونساء. وبعد عدة أيام طلب ماجلان من أهل سيبو أن يحرقوا أصنامهم كما وعدوا عندما تنصروا، ولكنهم رفضوا ذلك لأنهم مازالوا يقدمون القرابين لأجل أن يشفي الصنم أخا الملك الذي يعد الرجل الشجاع الحكيم في الجزيرة والذي كان قد شعر بمرض خطير منذ أربعة أيام. ولكي يحمي ماجلان عقيدة المسيحيين الجدد ذهب إلى الرجل المريض ونصره وأسرته وعالجه، وبعد خمسة أيام من العلاج شفي الرجل المريض، ففقد الناس ثقتهم في الأصنام وأشعلوا فيها النار.

لابولابو يقاوم الأسبان ويتحداهم :

وبوحي من النجاح الأولي الذي لقيه ماجلان في سيبو أمر كل القبائل في سيبو والجزر المجاورة أن يعترفوا بملك سيبو Homaban كملك لهم، ويقبلوا يده علامة على الطاعة، ولكن حاكما فلبينيا مسلما شجاعا وهو لابولابو ملك Macten ـ وهي جزيرة صغيرة بجوار سيبو ـ رفض

بإباء أن يفعل ذلك، وقاوم الأسبان، فأرسل ماجلان رجاله، وأحرقوا القرى هناك، ولكن ذلك لم يخف لابولابو أو يحمله على التسليم والخضوع. وفي ٢٦ أبريل سنة ١٥٢١م جاء ابن الملك Zula وهو ملك آخر في جزيرة Macten إلى سيبو بهدايا وبرسالة يطلب فيها المساعدة ضد لابولابو، فوعده ماجلان بالمساعدة. وفي فجر يوم ٢٧ أبريل سنة ١٥٢١م هاجم ماجلان جزيرة (مكتن) بقوة مكونة من ستين فارسا أسبانيا في ثلاث سفن وألف مقاتل من حلفائه من أهل سيبو نقلهم في ثلاثين سفينة محلية، وأحب ماجلان أن يظهر شجاعة جنوده للملك وأهل سيبو، فقال لهم: امكثوا في سفنكم وانظروا كيف يحارب الأوربيون. وقبل أن يبدأ الحرب أرسل رسالة إلى لابولابو ليعطيه فرصة أخيرة للسلام، وطلب منه الاعتراف بسيادة الأسبان ودفع الجزية، فأجاب لابولابو بجرأة: إنه لا يخضع لأي ملك، ولا يدفع الجزية لأي قوة. وإذا كان العدو يملك رماحا فنحن نملك رماحا أيضا وشعلا نارية.

وقد أخذ ماجلان من رجاله تسعة وأربعين رجلا، وترك أحد عشر رجلا يحرسون السفن. وعندما وصل الغزاة إلى الشاطئ رأوا لابولابو مع جنوده ينتظرون عدوهم وقد اصطفوا ثلاثة صفوف، فأطلق جنود ماجلان نيرانهم أولا، ولكن بنادقهم لم تظهر تأثيرا في أهل (مكتن) الذين هبوا مسرعين ليحموا حريتهم ووطنهم، وصاحوا صيحة الحرب، وأشرعوا رماحهم وسهامهم النارية.

موت ماجلان :

وقد أمر ماجلان بعض رجاله بحرق بيوت أهل (مكتن) ليخيفهم فيذعنوا له، ولكن ذلك أتى بنتيجة عكسية، لأنهم عندما رأوا منازلهم تحرق ضاعفوا شجاعتهم، وهاجموا المغيرين بجرأة وبسالة أدت إلى رجحان كفتهم فلما رأى ماجلان أن النجاح ليس في صفه أمر رجاله بالانسحاب، وأحس بالهزيمة عندما اشتد الهجوم من كل جانب، فوقف ماجلان على الشاطئ، وحارب بشجاعة ليحمي رجاله في عملية الانسحاب إلى السفن، ولكن سهما مسموما جرحه في فخذه اليمنى، وطارت قبعته من على رأسه، وجاءت حربة فأصابته في وجهه، فحاول أن يأخذ سيفه فعجز عن ذلك لأن حربة أخرى جرحته في ذراعه اليمنى، وجاء رجل من مكتن وقطع رجله اليسرى فسقط على الأرض، وانقض عليه آخر وقتله بحربته وسيفه. وبذلك قتل

(ماجلان) كما قتل معه ثمانية من الأسبان وأربعة من أهل سيبو، وكانت خسائر أهل مكتن خمسة عشر رجلا.

لابولابو هازم ماجلان :

وظهر يوم المعركة أرسل ملك سيبو إلى أهل مكتن رسالة عارضا عليهم أي ثمن لكي يسلموا إليه جسد ماجلان، فأجاب أهل مكتن أنهم سوف لا يسلمون إليه ماجلان ولو دفع كل ثمين في العالم، ولكنهم سوف يبقون جسده للذكرى. وحتى الآن لا أحد يعرف أين جسد ماجلان، وإن كان يوجد الآن متحف لذكرى مقتل ماجلان قريبا من المكان الذي قتل فيه. وقريبا من هذا المتحف يوجد متحف آخر في قرية Opon Mactan يحمل ذكرى لابولابو البطل الشجاع المسلم هازم ماجلان.

إن انتصار لابولابو في مكتن كان صدمه وكارثة للأوربيين، فهذا أول نجاح للدفاع عن استقلال الفلبين ضد الاستعمار الغربي، وأول نصر سجلته قوة المقاومة الفلبينية المسلمة على قوى الغرب بفضل لابولابو أول بطل يسطع في التاريخ الملايوي، ويهزم ماجلان هازم البحار.

وبعد موت ماجلان اختار رجاله اثنين خلفا له. أما ملك سيبو وسكانها فقد فقدوا ثقتهم في الشجاعة النادرة التي كانوا يرونها للرجل الأبيض، وحتى الأسبان أنفسهم الذين يفاخرون بشجاعتهم قد تخلوا عن هذا الفخر الكاذب.

٦ ـ تتابع حملات الأسبان لاحتلال الفلبين :

بعد موت ماجلان سنة ١٥٢١م آثر الأسبان الانسحاب والعودة إلى بلادهم مكللين بذل الهزيمة والخزي، ولكنهم حاولوا العودة لاحتلال الفلبين عدة مرات في سنة ١٥٢٥م وفي سنة ١٥٢٧م وفي سنة ١٥٤٢م⁽٩⁾، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك إلى أن وصل القائد الأسباني «ليجزبي كانونا» في مارس ١٥٦٥م على رأس الحملة الحربية الرابعة، وكانت مجهزة بالمدافع المحمولة على عجلات، واستطاع أن يخضع ملكي جزيرة بهول Gala, Katuon، ويوضح لهما أنه ليس كالبرتغاليين، وأنه إنما جاء قاصدا السلام ولا يبغي سلبا أو نهبا أو إفسادا في الأرض. وبذلك نجح في خداعها، وتمكن من أن يعلن معاهدة صداقة معهما.

هزيمة سيبو وإقامة الأسبان فيها:

وقد أراد القائد الأسباني Legazpi أن يتخير مكانا صالحا لإقامة مستعمرة تكون مقرا مأمونا للحملة الأسبانية، فأرسل بعثة استكشافية إلى جزيرة سيبو، وبعد دراسة الأوضاع فيها عادت البعثة وأعلنت صلاحية المكان ليكون مقرا للحملة، لتوفر الطعام فيها ولما يتمتع به من ميناء طبيعي.

فتحركت الحملة من جزيرة بهول قاصدة سيبو، فوصلتها في ٢٧ أبريل سنة ١٥٦٥م، حيث كان أهل سيبو بقيادة ملكهم ـ Topas ابن الملك Homaban الذي كان ملكا أثناء حملة ماجلان ـ قد اجتمعوا على الشاطئ في ملابس الحرب ليقاوموا الغزاة البيض. وقد ذهب الأب Urdoneta تحت علم الهدنة والسلام إلى الشاطئ ليتفاوض مع الملك Topas، ولكن الملك رفض أي محادثة، وأصر على الدفاع عن وطنه ضد الغزاة. فنزل جنود الأسبان إلى الشاطئ، واشتبكوا في معركة حامية مع أهل سيبو، تغلب الأسبان عليهم فيها، فانسحب أهل سيبو إلى الجبل تاركين مملكتهم وبيوتهم تأكلها النار.

وفي ٤ يونية سنة ١٥٦٥م استطاع القائد الأسباني أن يعقد معاهدة صداقة مع أهل سيبو اعترفوا له فيها بسيادة أسبانيا عليهم، وبدفع ضريبة للأسبان مقابل حمايتهم من أعدائهم، وبإقامة علاقة تجارية بينهم وبين أسبانيا.

وبذلك تفرغ القائد الأسباني لبناء مستعمرة أسبانية في سيبو لتكون حصنا منيعا للأسبان، كما حفر بئرا تزودهم بالماء النقي، وأقام كنيسة للقسس، وبيوتا للجنود الأسبان وسمى هذه المدينة (المدينة المقدسة)، وتسمى هذه الكنيسة التي بناها كنيسة أغسطين، وقد قامت بعد ذلك حروب طاحنة بين الأسبان وبين المسلمين في الفلبين استمرت عدة قرون.

٧ ـ أسباب الحرب بين الأسبان وبين المسلمين (المورو):

إن الحرب الطاحنة التي وقعت بين الأسبان وبين مسلمي الفلبين تعد من الحروب البشعة الشنيعة، ومما أدى إلى شناعتها أنها كانت حربا دينية استعمارية بين الهلال والصليب كما يقولون. حتى إن الأسبان حملوا مسيحيي الفلبين على قتال إخوانهم مسلمي الفلبين، كما كانت

كل قوى الأسبان هناك معدة لقتال المسلمين الذين صمدوا يحاربون فى منداناو وسولو أكثر من ثلاثة قرون، والمسلمون يحاولون خلال هذه الحروب أن يحموا أنفسهم، ويحققوا الحرية لدينهم وثقافتهم من أن يعتدي عليها الأسبان، أو يتمكنوا من استعمار بلادهم، فهي حرب صليبية وتعتبر امتدادا للحرب التي سنها الأسبان المسيحيون على المسلمين في أسبانيا (الأندلس) حتى أخرجوهم منها.

وقد أطلق الأسبان على المسلمين في الفلبين كلمة مورو Moro بمعنى المسلمين من الكلمة اللاتينية Mourus، ويطلقها الأسبان قديما على المسلمين في أسبانيا وشمال إفريقيا. وأخيرا أطلقوها على المسلمين في الفلبين. والمورو أو المسلمون هم الذين يسكنون جنوب الفلبين، ويقسمون إلى:

(١) **ماجداناو** : الذين يسكنون كوتاباتو.
(٢) **سمال** : الذين يسكنون على شاطئ سمونجا والجزر القريبة سمال سمونجا وتاوي تاوي.
(٣) **مرناو** : الذين يسكنون حول بحيرة لاناو .
(٤) **سانجل** : (Sangils) الذين يسكنون خليج داباو .
(٥) **يكن** : (Yakans) الذين يسكنون باسيلان .
(٦) **هلوانو** : (Tausugs) الذين يسكنون سولو .

ويمكن أن نرجع أسباب الحرب بين الأسبان وبين المسلمين إلى ما يأتي:

١ ـ الخصومة التي يراها المسيحيون بين المسيحية وبين الإسلام، ومن هنا اتصلت الحرب واستمرت عندما حضر الأسبان بصليبهم إلى سكان الفلبين الذين لا يدينون بالصليب.

٢ ـ دفاع المسلمين عن أرضهم عندما جاءت حملات الأسبان إليها ليحموا أرضهم ويحافظوا على حريتهم المحبوبة لهم، ولذلك دافعوا بدون خوف إلى الآن عنها.

٣ ـ حب مسلمي الفلبين للمغامرات الجريئة وممارسة الحرب منذ فجر التاريخ، وهم يحبون الحرب بحثا عن المجد خلف أفق البحار(١٠).
ولاشك أن فى ذلك مبالغة في حبهم للحرب ..

ولعل مما يوضح ذلك ويضيف إليه أسبابا أخرى ذلك الكتاب الذى أرسله الحاكم الأسباني للفلبين (دكتور فرانسيسكودي ساندي) إلى قائد الحملة الأولى على سولو الضابط

(استيبان رود ريجوزفيجورا) سنة ١٥٧٨م، ويقول فيه: «إنك ستتوجه بهذه الحملة إلى برنيو وسولو لتتمكن من إخضاع الناس ورئيسهم في سولو لطاعة الملك ـ أي ملك أسبانيا ـ وعليك أن تساومهم في مقدار الضرائب التي بدفعونها على أن بكون المدفوع باللؤلؤ مسل ما يؤدون هذه الضرائب لملك برنيو ـ كما عليهم أن بقصروا التجارة علينا ولا يبيعوا أو يبتاعوا من غيرنا. وتجارنا سيذهبون إليهم بما يحتاجون من التجارة الخارجية، وعليهم أن ببينوا ما يحتاجون إليه منها.

فإذا لم يطيعوا أوامرك فعاقبهم ، وبين لهم أن واجبهم هو زراعة الأرض وإظهار ما تنتجه، كما تأمرهم بألا يسمحوا لوعاظ المسلمين بتعليمهم لأن الدين المحمدي شر ومزيف، والمسيحية فقط هي الدبن الصحيح، وعليك أن تبين لهم أن غرضنا هو تنصيرهم.

ولذلك عليهم أن يسمحو لنا بالتبشير بالدين المسيحي. وعليك أن تقبض على العلماء المسلمين وتحضرهم إلي، وأن تحرق المساجد والمدارس التي يعلم فيها العلماء، وأن تحرم بناءها تابنا.

كما تأمرهم بألا يخرجوا من جزيرتهم للتجارة، وأن تقبض على سفنهم وتصادر ما تحمل من تجارة وذخيرة.

وأنذرهم إذا لم يتعاونوا معنا من الآن فإنك ستقضي عليهم. فإن فروا إلى الجبال فعليك بحرق منازلهم وتقطيع شجرهم.

ومن هنا ندرك أن الحاكم ساندي يريد :

١ ـ أن يكون أهل سولو تابعين للأسبان وتحت وصابتهم .
٢ ـ أن يحصل منهم ضريبة بدفعونها باللؤلؤ .
٣ ـ أن تكون تجارة سولو محتكرة للأسبان .
٤ ـ أن يعاقب سلطان سولو لأنه عاون سلطان برنيو .
٥ ـ أن يستولي على الآلات الحربية التي لدى المسلمين وعلى سفن النقل ماعدا سفن الصيد.
٦ ـ أن يصير أهل سولو مسالمين مزارعين للأرض .

٧ ـ أن يتنصلوا من العقيده الإسلامية وأن يصيروا مسيحيين.

وقد وجه الملك وفيليب الثاني ملك أسبانيا إلى الحاكم الأسباني للفلبين خطابا يوضح فيه مقصد الأسبان من هذه الحرب، ويوضح هدف الأسبان منها، ويقول فيه: «لقد سمحنا لك بأن تستعبد المسلمين، وأن تستولي على ممتلكاتهم وتصادرها، ويمكنك أن تجعلهم عبيدا لكم، خاصة إذا أرادوا أن يبشروا بدينهم المحمدي (الإسلامي)، أو يحاربوك أو يحاربوا الهنود رعايانا».. وقد أجابه الحاكم بخطاب يطلب فيه المدد لأجل القضاء على الدين المحمدي الإسلامي(١١).

ومن هنا يتضح لنا أن الحرب التي شنها الأسبان على المسلمين في الفلبين كانت حربا صليبية يبغون بها القضاء على الإسلام هناك، ثم استعمار البلاد واستغلال ثرواتها ونهب خيراتها. وقد شجع الأسبان على مواصلة الحرب ما خدعوا به أنفسهم من اتصافهم بالشجاعة، كما غرهم انتصارهم السريع على سكان البسايا ولوزون في الشمال الذين لم يكونوا على درجة كبيرة من النظام بخلاف المسلمين الذين كانوا يقطنون الجنوب في سولو ومنداناو، حيث هب المسلمون في سولو ومنداناو ليدافعوا عن دينهم وعن حريتهم الوطنية التي لا يجدون أغلى منها، ويبذلون في سبيلها دماءهم ويسترخصون أرواحهم حفاظا عليها ودفاعا عنها، وأن يقدموا في سبيل ذلك كل ما يملكون..

بداية الحرب :

بعد أن استقر الأسبان في سيبو بدأوا يوسعون نفوذهم الاستعماري المسيحي فيها، فقامت معركة في سنة ١٥٦٩م قريبا من سيبو بين الأسبان وبين المسلمين من هولو وبرنيو، كما قامت معركة أخرى في ١٥٧٠م بين الأسبان وحلفائهم من البسايا وبين المسلمين في جزيرة مندورو، وقد تمكن الأسبان في هذه المعركة من التغلب على المسلمين وحرق قراهم والاستيلاء على كثير من متاعهم وحليهم وذهبهم.

٨ ـ القضاء على المملكة الإسلامية في مانيلا بجزيرة لوزون :

لقد شجع هذا الانتصار القائد الأسباني ليجزبي على أن يستمر في توسيع نفوذه نحو

الشمال في جزيرة لوزون حيث تقع مملكة مانيلا الإسلامية ومملكة تندو الإسلامية، وهما يعدان من أقوى الممالك الإسلامية في الشمال، وكان يحكم الأولى الملك «راجاسليمان»، كما كان يحكم الثانية عم راجاسليمان الملك «راجالاكان دولا».

وقد وجه القائد الأسباني إلى هاتين المملكتين حملة من ستمائة جندي من البسايا الفلبينيين ومائة وعشرين جنديا من جنود الأسبان، حيث توجهت من جزيرة بناي إلى مانيلا في مايو سنة ١٥٧٠م.

وكما هي عادة الاستعمار في خداعه ومكره نزل قائد الحملة جايتي Gaiti إلى الشاطئ لكي يتفاوض مع الملك راجاسليمان وعمه، زاعما لهما أنه جاء لصداقتهما، وبدأوا في عقد اتفاقية بينهم، غير أن راجاسليمان رفض أن تتم الاتفاقية عندما تبين له أن الصداقة مع الأسبان تعني دفع الضريبة والعبودية لأسبانيا.

ولذلك ثار الملك راجاسليمان معلنا أنه سيقاتل بدلا من أن يدفع الضريبة ويقبل الحماية الأسبانية.

وقد اشتعلت نار الحرب عندما أطلق القائد الأسباني نيران مدافعه على سفينة لكي يدعوها إليه، فظن الملك راجاسليمان أن المملكة قد احترقت فبدأت الحرب بشراسة ووحشية، ولكن تغلب الأسبان المجهزون بأسلحتهم ومعهم جنود البسايا على جنود راجاسليمان، واضطر راجاسليمان إلى الانسحاب تاركا منازله تشتعل فيها النار بعد أن استشهد من رجاله مائة شهيد وأسر ثمانون منهم بعض الصينيين واليابانيين، كما غنم الأسبان حلي راجاسليمان الشهيرة وبعض المدافع والسفن الحربية، ولكن رئيس الحملة لم يستقر في مانيلا طويلا خوفا من هبوب العواصف مع احتمال رجوع راجاسليمان لكي يسترد مملكته، فرجع إلى جزيرة بناي فخورا بهذا الانتصار العظيم والغنيمة الثمينة.

انتقال القيادة الأسبانية من سيبو إلى مانيلا :

سر القائد العام للحملة الأسبانية بالانتصار على راجاسليمان، ولذلك قرر نقل مقر القيادة من سيبو إلى مانيلا.

وفي أبريل سنة ١٥٧١م تحركت الحملة الثانية بقيادة القائد العام (ليجزبي) مبحرة من جزيرة بناي بأسطول مكون من سبع عشرة سفينة عليها مئتان وثمانون جنديا أسبانيا وعدة مئات من جنود البسايا بالإضافة إلى قوات الحملة السابقة، واتجهت كل هذه القوة إلى خليج مانيلا حيث قابل (لاكان دولا) ـ حاكم مملكة تندو وعم راجاسليمان ـ الحاكم العام الأسباني في سفينة شراعية ورحب به، فقابله الحاكم الأسباني بلطف، ووعده أنه سوف يعفو عن راجاسليمان لمقاومته للقائد الأسباني في العام السابق. ولكن شخصا خائنا يدعى «ديهندول» ذهب إلى القائد الأسباني وأخبره أن راجاسليمان يستعد للحرب. فاتجه ليجزبي إلى مانيلا وعندما ظهرت السفن الأسبانية قرب مملكة راجاسليمان حرق راجاسليمان الحصن، وانسحب عابرا نهر باسج إلى مملكة تندو، وبذلك نزل ليجزبي إلى مانيلا وتولى الحكم فيها.

محاولة راجاسليمان استرجاع ملكه :

لم يتنازل راجاسليمان عن مملكته سلميا وبدون قتال، بل قاتل إلى آخر قطرة من دمه بكل شجاعة وبسالة، وقدم روحه في سبيل وطنه، وآثر الموت الشريف على الحياة الذليلة حياة العبودية والتبعية. فبينما كان القائد العام الأسباني مشغولا بإعادة بناء مانيلا والعمل على استقرار حكمه فيها جمع راجاسليمان المحاربين من رجاله في القوارب عند خليج بجوار قرية قريبة من مانيلا تسمى Novatas، واستعان بحكام الأقاليم، فلبى نداءه للحرب دفاعا عن حرية الوطن داتو (ماكابب) حاكم (هاجانوي) وداتو (برانجايس) حاكم (بمبنجا).

وفي يونية سنة ١٥٧١م زحف راجاسليمان بقواته البحرية إلى الشاطئ الشمالي لخليج مانيلا، وتقابل مع القائد الأسباني في اقنال بنكوساي، حيث دارت رحى الحرب الضروس في هذا النهر، وقاتل الأسبان بأسلحتهم الحديثة يعاونهم حلفاؤهم من البسايا حتى كسبوا المعركة، وسقط راجاسليمان شهيدا في ميدان الشرف دفاعا عن حرية وطنه، كما استشهد معه ثلاثمائة جندي وأسر الباقى من رجاله بعد المعركة، وكان من الأسرى ابنه وابنا أخت الملك لاكان دولا..

وباستشهاد راجاسليمان بطل مانيلا المسلم وهزيمته في الموقعة في يونية سنة ١٥٧١م أعلن سقوط المملكة الإسلامية في مانيلا، وفقدت مانيلا حريتها، وصارت المقر الرئيسي للاستعمار

الأسباني، حيث بنى الأسبان فيها كنيسة للقسس وقصرا للحاكم الأسباني ومائة وخمسين منزلا للمستعمرين الأسبان، كما أقيم حصن راجاسليان بانيا، وهكذا أقيمت مدينة أسبانية على حطام المملكة الإسلامية في مانيلا.

وبنهاية هذه الحرب لم يقم للمسلمين قائمة بعد ذلك في أكبر جزيرة في شمال الفلبين وهي جزيره لوزون.

١ ـ محاولة الأسبان القضاء على المسلمين في جنوب الفلبين :

استطاع الأسبان أن يقضوا على المسلمين في شمال الفلبين، ويزيلوا منها المملكة الإسلامية. وبعد سبع سنوات من قضائهم على المسلمين في لوزون واستقرارهم في مانيلا راودهم الأمل في أن يقضوا على سلطان المسلمين في جنوب الفلبين كما قضوا عليه في شمال البلاد، وبذلك يتحقق لهم امتداد استعمارهم إلى جميع جزر الفلبين، وتختفي الراية الإسلامية منها، ولا يرتفع فيها إلا الراية المسيحية، ولذلك تتابعت حملات الأسبان بضراوة وعنف على المسلمين في الجنوب.

ولكن المسلمين قابلوا هذه الحملات بإيمان ثابت وقلب غيور على حماية بلادهم ودينهم وجميع مقدساتهم، واستمرت الحرب الضروس أكثر من ثلاثة قرون مملوءة بالدماء والأشلاء لإرضاء نزعات دينية مسيحية حاقدة على الإسلام والمسلمين وموغلة في التعصب للقضاء على المسلمين وطمس التعاليم الإسلامية.

وقد تتابعت الحملات الأسبانية المجهزة بالأسلحة الحديثة التي وجهوها نحو المسلمين في الجنوب، حيث اعتصم المسلمون بدينهم وتمسكوا بعقيدتهم، وكتبوا بدمائهم الطاهرة الزكية أعظم وأجل صفحات مضيئة في التاريخ الفلبيني، والتي تشهد بحبهم للحرية واستمساكهم بها وإيثارهم الموت على أن تستعمر بلادهم أو يعتدى على عقيدتهم الصحيحة في صدق الدين الإسلامي الحنيف الذي يدينون به.

تتابع الحملات على الجنوب وموقف المسلمين :

أ ـ ففي سنة ١٥٧٨م أرسل القائد الأسباني العام حملة أسبانية تحت قيادة الضابط

(استيبان دي فيجورا) لتهاجم مدينة هولو، فوصلت إليها في يونية سنة ١٥٧٨م، وتولى السلطان (محمد حليم بنحيرن) سلطان سولو قيادة المسلمين للدفاع عن المدينة بحماسة وشجاعة، ومع أن الأسبان استطاعوا أن يستولوا على جزء من المدينة إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء عليها تماما نظرا لما قام به المسلمون من مقاومة عنيدة، وأقسم السلطان على الانتقام من الغزاة فأعلن حربا ساملة ضد الأسبان الذين آثروا الانسحاب من هولو.

ب - وفي سنة ١٥٩٦م حصل الضابط (دي فيجورا) من الحاكم الأسباني العام على حق مطلق لاستعمار جزيرة (منداناو)، وأن يكون الحاكم الأسباني عليها، ومن ثم اتجه من جزيرة (إيلوايلو) في فبراير ١٥٩٦م بحملة حربية كبيرة مكونة من ألف وخمسمائة جندي فلبيني ومائتين وأربعة عشر جنديا أسبانيا واثنين من القسس قاصدا جزيرة (منداناو)، واستطاع أن ينزل الحملة في Riogrande في كوتاباتو، ومن هناك سار إلى Buhayen حيث دارت بين الحملة وبين المسلمين معارك حامية ومناوشات مرة متتالية، فقاد المسلمين فيها داتو (Silanga)، واستطاع (Ubal) أخو القائد المسلم أن يقتل قائد الحملة الأسبانية في إحدى هذه المناوشات. ولكن الحملة الأسبانية عززت بقوة أخرى من مانيلا لتتابع مشروعها الاستعماري في منداناو.

غير أن المسلمين استطاعوا مع حلفائهم أن يقذفوا بالأسبان في البحر، واضطر القائد الأسباني (ronguillo) أن يحرق الاستحكامات والحصون التي أقامها الأسبان قريبا من كوتاباتو، وانسحب إلى (Caldra) قريبا من سمونجا حيث بنى حصنا فيها، وكان بناء هذا الحصن نتيجة الحملة الأولى لاستعمار منداناو وبعد خيبة أملهم في أن يحتلوا مدينة (كوتاباتو).

جـ - تحرك المسلمين للثأر من الأسبان المعتدين :

أثار غزو الأسبان للأرض الإسلامية في كوتاباتو هياج المسلمين في منداناو وسولو، وحرك عداوتهم وحقدهم، وأشعل نار غيظهم ضد المعتدين، فأعلنوا الحرب والجهاد الديني ضد الأسبان، ووضعوا خطة لتخريب كل المدن والقرى الأسبانية المسيحية في جزيرة لوزون وبسايا. وقد تحدث المؤرخون الأسبان بتعصب شديد بعيد عن العدالة والنزاهة عن هذه الحروب بين المسلمين وبين الأسبان.

ففى شهر يوليه سنة ١٥٩٩م جهز اثنان من أمراء المسلمين Silanga Saleh حملة مكونة من ثلاثة آلاف مسلم، أقلعت بهم خمسون سفينة للانتقام من الأسبان في الشمال، حيث تمكنوا من سلب ونهب قرى الشواطئ في جزر (بناي) و (نجروس) و (سيبو)، وأثاروا الرعب في تلك الأماكن، وأحرقوا المنازل والكنائس، وأسروا الرجال والنساء والأطفال، وقتلوا كثيرا من أهلها بقسوة وعنف، وانتهكوا حرمتها جزاء وفاقا لاعتداء الأسبان على بلادهم.

ثم قاموا بحملة أخرى سنة ١٦٠٠م عدتها سبعون سفينة وأربعة آلاف مقاتل للانتقام من الأسبان، ولكن لم يحالفهم النجاح في تلك الحملة مثل ما حالفهم في الحملة الأولى.

د ـ وقد أثارت أخبار تحرك المسلمين بغاراتهم على الجزر السابقة للثأر من الأسبان حفيظة الأسبان وخاصة الحاكم الأسباني العام في مانيلا، فأخذ يرسل الحملة تلو الأخرى للهجوم على أراضي المسلمين في الجنوب، وكانت أولى هذه الحملات بقيادة قائد محنك هو Juan Cablinato وبقوة تعدادها مئتا جندي أسباني وأعداد كثيرة من جنود الفلبين المسيحيين، وقد توجهت تلك الحملة إلى هولو في فبراير سنة ١٦٠٢م، وحاولت أن تحتل المدينة، وضربت حولها الحصار ثلاثة أشهر، ولكن المسلمين صمدوا لتلك الحملة، مما اضطر القائد الأسباني إلى فك الحصار والعودة من حيث أتى.

وقد تتابعت الحملات الأسبانية بعد ذلك على هولو بغية الانتصار على المسلمين فيها وحملهم على اعتناق المسيحية، وقد بلغ عدد تلك الحملات من سنة ١٥٧٨م إلى سنة ١٨٧٦م أكثر من ست عشرة حملة، كلها كانت تبوء بالفشل سوى الحملة الأخيرة التي تمكنت من احتلال هولو. كما وجه الأسبان حملات أخرى إلى منداناو. وقد ساعد الأسبان في قيامهم بتلك الحملات استيلاؤهم على مدينة سمونجا وجعلها مركزا استراتيجيا لهم، فسهل لهم الإغارة منه على المسلمين في هولو ومنداناو.

ومن الحملات التي استطاع الأسبان أن ينتصروا فيها على المسلمين ويحققوا بعض النصر الحملة التي توجهت مرة إلى منداناو ومرة إلى هولو بقيادة القائد الأسباني.

كركورا وقدرات :

في سنة ١٦٣٧م أسند إلى القائد الأسباني كركورا القيام بحملة على المسلمين في لاناو، وفي وسط تقديس القسس وصلوات المسيحيين في مانيلا ترك قائد الحملة الشاطئ بأسطول مجهز تام الاستعداد للقتال، وتوجه إلى منداناو حيث استراح فترة قصيرة في سمونجا، ثم توجه إلى (لاميتن) الحصن الحصين للمسلمين الذي يقع قريبا من بحيرة لاناو، فتصدى له المسلمون تحت قيادة القائد المسلم الشجاع (قدرات)، وبعد معركة عنيفة أضطر (قدرات) إلى التراجع إلى حصن إليهان Ilihan، فتقدم كركورا بجنوده إليه، ورغم قتال وتضحيات المسلمين الأشاوس من الرجال والنساء والأطفال وعظم الخسارة لكل من الفريقين، ومع دفاع المسلمين عن موقعهم دفاع الأسود الضاربة التي اغتيل عرينها، واستشهاد كثير من المسلمين بشجاعة من أجل إيمانهم ووطنهم رغم كل ذلك فقد دارت الدائرة على المسلمين، وعندما ظهرت هزيمة المسلمين استطاع القائد المسلم قدرات بذراعه المصابة برصاص العدو أن يجد طريقه وسط جنود الأسبان ويهرب. أما زوجته الشجاعة فقد حضنت ابنها بقوة، ودفعت بنفسها وسط جنود الأسبان، ثم قذفت بنفسها من ساهق الجبل وأفلتت من الأسر.

حملة كركورا على هولو :

وفي نفس العام أي سنة ١٦٣٧م رجع كركورا القائد الأسباني إلى سمونجا حيث أعد حملة أخرى كبيرة مكونة من ثمانين سفينة عليها ألف جندي فلبيني وستمائة من جنود الأسبان، حيث هاجم هولو في مطلع عام ١٦٣٨م، وتصدى له السلطان (بنجسو) Bungsu مع حلفائه باسيلان وماكاسر (Macassar) بقوة مكونة من أربعة آلاف مقاتل من المسلمين.

وبعد ثلاثة أشهر كاملة من الحرب الضروس والمسلمون يحمون مدينتهم بنجاح ويدافعون عن وطنهم ويقدمون الشهداء من أبنائهم، وبعد قتال دموي شرس سقطت مدينة هولو في أبريل سنة ١٦٣٨م في أيدي الأسبان. ولكن السلطان استطاع أن ينجو من المعركة ويهرب من الأسبان، أما السلطانة فقد أخذت أسيرة وتسمى Tuan Baloca، وقد خسر المسلمون في هذه المعارك مئات الشهداء والأسرى.

وقد حاول قائد الحملة تتبع السلطان والأمراء فى سولو وجزر الأرخبيل ولكن أهل سولو حاولوا أن يغيروا على جزر البسايا انتقاما من الأسبان.

١٠ ـ محاولة المسلمين الاستعانة بهولندا ضد الأسبان :

حاول المسلمون في هولو الاستعانة بهولندا ضد الأسبان استغلالا للعداء بين هولندا وأسبانيا، فذهب بعض علماء المسلمين ومعهم راجامردا سيكالا وارث السلطنة في سولو للاستعانة بهولندا التي كانت تحتل جاوا آنذاك، وطلبوا مساعدة هولندا لهم في طرد الأسبان. وفي سنة ١٦٤٦م ظهرت سفن هولندا أمام هولو وسمونجا، فقرر الأسبان الانسحاب من هولو بعد أن عقدوا معاهدة مع أهل سولو لإقامة سلام دائم بين أهل سولو والأسبان. وبأن يساعد كل منهما الآخر ضد العدو الأجنبي. وفيها اعترف الحاكم الأسباني بسلطة سلطان سولو من جزيرة تاوي تاوى إلى توتب، وأن تصل سلطة أسبانيا إلى تابول وسياسى، وذلك في مقابل جلاء الأسبان عن هولو. وكدليل على الرضا وعد سلطان سولو أن يرسل كل عام إلى سمونجا ثلاث سفن من الأرز، وأن يسمح لقسس الجزويت بأن يأتوا إلى هولو وكذلك تبادل الأسرى والمجرمين، ولكن هذه المعاهدة لم تستمر طويلا، وعادت الحرب ثانيا بين المسلمين وبين الأسبان بشراسة وعنف...

١١ ـ المعاهدات بين المسلمين وبين الأسبان :

عندما عجز الأسبان عن كبت قوى المسلمين وهزيمتهم بدأت القوة الأسبانية تتفاوض مع المسلمين، وقد عقدت عدة معاهدات بينها وبين المسلمين، منها اتفاقية سنة ١٧٢٥م، وبمقتضاها أصبحت التجارة حرة بين المسلمين وبين الأسبان، وتعهد المسلمون بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين..

وفي سنة ١٧٣٧م وقع السلطان علم الدين الأول سلطان سولو مع الحاكم الأسباني العام اتفاقا مكونا من خمس مواد، يقضي بما يأتي:

١ ـ إقامة سلام دائم بين الدولتين، وكل مخالفة أو ظلم أو تعد من القوتين يسوى سلميا.

٢ ـ أن يقدم كل منهما للآخر العون ضد أي عدوان أجنبي، والدول الأوربية مستنناة من هذا النسرط .

٣ ـ حريه التجاره بين الدولتين للتجار الذبن يحملون جواز سفر من الدولة.

٤ ـ أن تكون كل دولة مسئولة عن هتك السلام بين الدولتين بأحد رعاياها.

٥ ـ تبادل الأسرى بين الدولتبن وإعادة تمائيل الكنائس وزخارفها التي استولى عليها أهل سولو.

وهناك معاهدات أخرى أبرمت بن المسلمين وبين أسبانيا في سنة ١٧٤٦م، ١٨٠٥م، ١٨٣٦م، ١٨٥١م، ١٨٧٨م.

وفي اتفاق سنة ١٧٤٦م حضر رسول خاص من مانيلا إلى السلطان علم الدين يحمل رسالة من الملك فيليب الخامس ملك أسبانيا، يرجو فيها أن يسمح للقسس بأن يأتوا إلى هولو ويعظوا بالمسيحية لأهل سولو، وقد أقام السلطان لرسول الملك حفلة تكريم واستعراضا للجيش. وفي مجلس استساري بين السلطان والداتوات وافقوا على أن يعظ القسس في هولو، بل ذهب السلطان إلى أبعد من ذلك بأن سمح للأسبان بأن يقيموا كنيسة في هولو.

وفي مقابل ذلك على أسبانيا أن تساعد السلطان في إقامة اسطول بحري بمبلغ ستة آلاف بيزو، وتمده باثنى عشر مدفعا عيار ١٣٣ رطلا، وكمية من المسامير والحديد، وقد حضر القسس الجزوبت إلى هولو تنفيذا لهذه الاتفاقيه.

ومع رضا السلطان عن هذا الوضع إلا أن الناس قابلوا ذلك باستياء عظيم، وتكون حزب معارض بقيادة الداتو (بانتيلان) الذي قاد حملات منظمة ضد الأسبان أحدثت خرابا في كل مكان، واستطاع أن يدخل الرعب والفزع في كل القرى المسيحية في مندانا وبسايا ولوزون حتى في شوارع مانيلا نفسها، حيث نزل المسلمون إلى ساطئ مانيلا تحت سمع وبصر السفن الحربية الأسبانية، واستطاعوا أن يردوا على الحملات المسعورة التي قادها الأسبان على المسلمين في الجنوب.

وفي سنة ١٨٤٨م بنى حاكم الفلبين الأسباني ثلاث سفن بخارية وسفينتين استكسافيتين وثلاث سفن نقل للجنود، وقد بنت إنجلترا هذه السفن لحاكم الفلبين وهي سفن بخارية تسير أسرع من السفن الشراعية التي يستعملها المسلمون.

كان ظهور هذه السفن في المحيط الهادي بداية لنهاية سيادة المسلمين على البحار، إذ بهذه السفن وبقوة كبيرة من الجنود هاجم الأسبان المسلمبن في هولو، ودمروا استحكاماتهم واستولوا عليها، فاضطر سلطان هولو والأمراء أن بعقدوا معاهدة مع الأسبان فى سنة ١٨٥١م، اتفق فيها على سيادة الأسبان على هولو، وأن يرفع السلطان العلم الأسباني عليها، وألا يعقد اتفاقا مع أية دولة أخرى. وفي مقابل ذلك يقدم الأسبان للسلطان وللأمراء معاشا ينفقون منه، وأن يسمحوا للمسلمين بمزاولة شعائرهم الدينية، ويضمنوا للسلطان أن يرث أبناؤه عرش هولو.

ومع ذلك فإن هذه المعاهدة لم تنه الحرب بين الأسبان وبين المسلمين، إذ بمجرد جفاف حبر هذه المعاهدة عاود المسلمون حربهم ضد الأسبان بعد أن أسسوا بيت الحرب ولموا شعثهم تحت قيادة الأمراء وهزموا الأسبان.

عاود الأسبان الكرة على المسلمين في سنة ١٨٧٦م، حيث هاجموا هولو بقوة كبيرة مكونة من تسعة آلاف جندي أسباني وفلبيني بسفن بخارية حربية مجهزة بمدافعها.

وقد دافع المسلمون عن مدينة هولو دفاع الأبطال، ولكنهم منوا بمذبحة فظيعة من الأسبان. وفي هذه المرة سقطت مدينة هولو سقوطا تاما، واستولى عليها الأسبان، فنقل المسلمون السلطة إلى (ماينبون) في جانب سولو الآخر ووقع السلطان معاهدة سلام مع الأسبان سنة ١٨٧٨م، ولكن ذلك لم يمنع المسلمين الأحرار من أن ينغصوا على الأسبان حياتهم، ويجعلوا إقامتهم في هولو جحيما لا يطاق، ففي سنة ١٨٨٣م ذبح المسلمون كثيرا من جنود الأسبان في شوارع هولو، وقد قدر الذين قتلوا من الجنود المسيحيين بأيدي المسلمين من سنة ١٨٩١م إلى سنة ١٨٩٩م بثلاثمائة جندي مسيحي.

أما في منداناو فقد جرد الأسبان حملة عليها في سنة ١٨٨٦م تمكنت من تخربب بعض استحكامات المسلمين وبيوتهم، ولكنهم فشلوا في احتلال أرض المسلمين، فعاود الأسبان الكرة سنة ١٨٩١م، حيث استطاعوا أن بستولوا على كوتاباتو، ولكن بعد وقت قصير تمكن المسلمون من طردهم منها، وأرغموهم على الرجوع إلى سمونجا. فجرد الأسبان حملة أخرى سنة ١٨٩٥م ضد المسلمينين في لاناو، ولكنها عادت بالفشل.

١٢ ـ هزيمة الأسبان أمام أمريكا :

أخيرا قامت الحرب بين أمريكا (الولايات المتحدة الأمريكية) والأسبان ١٧٩٨م، حيث كان الأسبان والمسلمون يموتون في الغابات لماتصف به الأسبان من اعتداء وتعصب، ولما آمن به المسلمون من دفاع عن أرضهم ووطنهم وحفاظا على دينهم وعقيدتهم. وبعد أكثر من ثلاثة قرون من الغارات المحمومة والحملات المتكررة فشل الأسبان في أن يحتلوا أرض المسلمين في الجنوب، أو يتمكنوا من تنصير المسلمين الشجعان.

وفي مايو سنة ١٨٩٩م احتل الجيش الأمريكي هولو ثم سمونجا من مدن المسلمين، وعاد الجنود الأسبان من ميدان القتال إلى أسبانيا بخفي حنين يحملون الخيبة والفشل.

١٣ ـ موقف أمريكا في الفلبين من المسلمين :

بعد أن انتصرت أمريكا على الأسبان في شمال الفلبين دفعت أمريكا إلى أسبانيا مائتي مليون دولار لتحل محلها في الفلبين، وتحرر بذلك عقد أبرم في باريس في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨م. وقد قاوم المسلمون الغزاة الجدد من أمريكا بدون هوادة، وقدموا الشهداء من أبنائهم وأمرائهم في السنين المتتالية، فقد تقابل المسلمون مع قوى الاحتلال الأمريكي في موقعة قريبة من هولو سنة ١٩٠٦م، حيث استشهد من المسلمين أكثر من ستمائة شهيد من الرجال والنساء والأطفال. وكانت الموقعة الثانية قريبة من هولو أيضا في سنة ١٩١٣م، وقدم فيها المسلمون كثيرا من الشهداء، وثبت خلال هذه المعركة تفوق الأسلحة الأمريكية على أسلحة المسلمين. وغيرت أمريكا بعد هذه الموقعة من سياستها، فاختارت حكاما من المدنيين لتهدئة شعور المسلمين، واستطاع (Mr. frank. W. Carpenter) أول محافظ أمريكي لجزيرة سولو ومنداناو أن يظهر الصداقة لسلطان المسلمين، ويكون سنة ١٩١٤م وزارة خاصة بشئون منداناو وسولو للإشراف على المناطق الإسلامية السبع، وهي: سولو، لاناو، كوتاباتو، سمونجا، داباو، اغوسن، بوكيدنن، وجعل مقر الوزارة في دنسلان بمنطقة لاناو.

واستطاع هذا المحافظ (فرانك كربنتر) أن يعقد معاهدة مع السلطان جمال الكرام سلطان سولو في سنة ١٩١٥م، تنازل فيها السلطان عن سلطاته الدنيوية (أي السياسية)، واعترف

فيها بالنفوذ الأمريكي في بلاده، مقابل إعطائه معاشا سنويا، ثم الاعتراف به كقائد روحي لمسلمي الفلبين.

وبذلك أفل نجم سلاطين المسلمين، ثم حلت الوزارة الخاصة بشئون مندانا وسولو، وضمت إلى مكتب شئون القبائل غير المسيحية سنة ١٩٢٠م.

لقد استطاع (فرانك كربنتر) بحسن إدارته وحكمته وتقديره لشخصية المسلمين أن يحقق في سنين قليلة مالم تستطيع سيوف الأسبان أو مدافع الأمريكيين تحقيقه من نشر السلام والطاعة في أرض المسلمين.

وفي الثلاثينات من القرن العشرين وافقت أمريكا على استقلال الفلبين تدريجيا بإعطاء السكان في الفلبين مدة عشر سنوات كفترة انتقال قبل منحهم الحرية الكاملة مع الإبقاء على المصالح الأمريكية.

واختير أول رئيس للبلاد من العناصر الوطنية المسيحية، وكان يتمتع بكل الصلاحيات، فألغى مكتب شئون غير المسيحيين الذي كان يتبع سلطة حكومة الولايات في الفلبين، وأصبح يتبع وزارة الداخلية الفلبينية. وبذلك صار المسلمون في جنوب الفلبين فلبينيين دون أن يدروا من أمرهم شيئا.

قامت مظاهرات بين المسلمين ضد هذا الإجراء، وأيدهم بعض الشيوخ الأمريكيين في منع ضم منداناو وسولو - ذات الصبغة الإسلامية - إلى الفلبين، ولكن لم يتم ذلك.

استمر الوضع على ذلك إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية، واحتل اليابانيون الفلبين، وهب المسلمون يكافحون الغزاة الجدد، وأعلنوا عصيانهم على الحكومة العميلة، وزج بكثير من المسلمين في السجون ومعكسرات الاعتقال التي أقامها اليابانيون، لأن المسلمين وقفوا ضد الاحتلال الياباني وضد الإبادة الجماعية التي نفذها اليابانيون ضد المسلمين.

وعندما هزم اليابانيون وقامت الحكومة الوطنية الكاتوليكية في الفلبين رفع المسلمون لواء العصيان ضدها وضد العصابات المسيحية التي ظلت تمارس أعمالها الإرهابية حيال الأقليات

الإسلامية في بعض الجزر. ومما أثار المسلمين وأساء اليهم قيام الحكومة الفلبينية بتهجير العديد من المسيحيين إلى المناطق الإسلامية، مما يؤدي إلى جعل المسلمين أقلية في بلادهم.

١٤ ـ تطور المشكلة بعد الاستقلال :

بعد استقلال الفلبين جعلت إدارة شئون المسلمين في يد رئيس الدولة الفلبيني اعتبارا من سنة ١٩٥٠م، وكان كاثوليكيا متعصبا، فأخذ يعمل على تفتيت القوى الإسلامية وحرمانها من الحقوق التي تتناسب مع تعدادها بالنسبة لمجموع سكان الفلبين.

كان ذلك من الأسباب التي أدت إلى تأخر المسلمين لعدم قيام الدولة بأية مشروعات إصلاحية تؤدي إلى تقدم المسلمين، كما أدى هذا الوضع إلى ضياع كثير من أراضيهم. ففي عام ١٩٠٨م كان المسلمون يسيطرون على ٩٢٪ من مجموع مساحة منداناو، ولكنهم الآن نتيجة لسياسة القهر والاضطهاد وإخراج المسلمين من أراضيهم ومنحها للمهاجرين المسيحيين فقد صارت مساحة الأرض التي يعترف بها للمسلمين لا تزيد على ٣٥٪ وإن كانوا يضعون أيديهم فعلا على نحو ٦٥٪ من مجموع مساحة الأراضي كلها(١٢).

والمسلمون لا يتركون أرضهم ويرحلون عنها إلا بعد أن يقدموا كثيرا من أبطالهم شهداء في مقاومة المسيحيين الذين يريدون اغتصاب أرضهم، وقد تكونت جماعات مسيحية لاضطهاد المسلمين وحملهم على ترك أرضهم مثل جماعة (إيلاجا) المسيحية، وهي تنظيم سري، هدفه الاستيلاء على الأرض التي يملكها المسلمون. وقد درب أفراد هذه الجماعة على حرب العصابات، ووجد كثير من المدافع الرشاشة في حوزتها، وهذه الجماعة تعد من أخطر الجماعات الكاثوليكية تعصبا ضد المسلمين، حيث يعملون على إبادة المسلمين والاستيلاء على أرضهم. وتحت ضغط قوتهم المتفوقة على المسلمين في العدد والسلاح يترك المسلمون أرضهم لينضموا إلى معسكرات اللاجئين المسلمين الذين بدأ يتكاثر عددهم من خمسين ألفا إلى قرابة ربع المليون لاجئ.

وقد كشف النواب المسلمون عن وجود تواطؤ بين حكومة ماركوس الفلبينية الحالية وبين تلك العصابة، وساقوا الأدلة الآتية على صحة ما يقولون:

١ ـ إن قوات إيلاجاس أيدت مرشحي الرئيس ماركوس في الانتخابات التي جرت في نوفمبر سنه ١٩٧١م.

٢ ـ عدم تصدي قوات الأمن والجيش الحكومية لقوات إيلاجاس عقب اعتداءاتها في كوتاباتو ولاناو على المسلمين.

٣ ـ لم تحرر الحكومة أي قضية ضد أفراد إيلاجاس الذين قبض عليهم متلبسين بجرائم القتل ضد المسلمين.

٤ ـ اعترف أحد قواد جماعة إيلاجاس أمام لجنه التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ الفلبيني في مارس سنة ١٩٧١م بأنهم يتلقون تدريبات عسكرية، ويستلمون معونات ومؤن من الحكومة.

٥ ـ اعترف الجنرال (كاسترو) قائد الشرطة في الفلبين أن هناك خمسه وثلاثين ألف رجل من عصابات إيلاجاس المسلحه في مناطق المسلمين بجزيرة ميندانـاو.

٦ ـ جاء في تقرير عن القوات المسلحة سنة ١٩٧١م أنها وافقت على صرف مبلغ (واحد وسبعين مليون بيزو) لأعمال الاستخبارات في منطقة منداناو، وقد اتهم المسلمون الحكومة بأن هذه الأموال إنما أعطيت نقدا (لإيلاجاس)، وقد اعترف وزير الدفاع اعترافا غير مباشر بتلك المهمة في مارس سنة ١٩٧٢م، وذكرت جريدة (مانيلا كرونيكل) تلك الحقيقة دون تحفظ أو مداراة.

٧ ـ أثبت قاضي منطقة بولان (جوان الهيبيري) أن قائد جيش برتبة (رائد) هو الذي يقود جماعة (إيلاجاس) من (لاناودل سور) الشمالية، كما أن منظمة (جينا) وهي الجناح العسكري السري لكافة الجمعيات الكاثوليكية الشرعية العلنية تتلقى معونات وإسهامات من الكنيسة الكاثوليكية بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ولديها إمكانيات كبيرة، وعندها أكثر من مخزن للسلاح وميدان للتدريب على القتال النظامي والشعبي(١٣).

ولقد قدم المسلمون كثيرا من الشهداء والجرحى في سبيل محافظتهم على أرضهم التي تحاول جماعة إيلاجاس الاستيلاء عليها، وبلغ عدد خسائر المسلمين فيما بين ديسمبر سنة ١٩٦٩م حتى فبراير سنة ١٩٧٢م حسب تقارير الشرطة والصحف الفلبينية كالآتي:

أ ـ القتلى ١٨٤٥ شهيدا

ب ـ الجرحى	٤٢٠ جريحا .
جـ ـ البيوت المحترقة	٢٥٦١ منزلا .
د ـ عدد المساجد المحترقة	١١ مسجدا .
هـ ـ البلدان المهجورة	١١ قرية تبلغ مساحتها ٥٠٠,٠٠٠ هكتار مربع(١٤).

وقد اتهمت منظمة تحرير مورو الوطنية في عريضتها المرفوعة إلى لجنة حقوق الإنسان الدولية حكومة ماركوس بارتكاب جريمة القتل الجماعي ضد المسلمين، إذ قتلت وجرحت حوالي المائة ألف، وشردت مالا يقل عن نصف المليون، واغتصبت ما يزيد على المليون هكتار من أراضي المسلمين، وحرقت البيوت والمساجد والمدارس، وخربت من الممتلكات الإسلامية ما قيمته مليار دولار أمريكي.

كما جاء في الكتاب الأبيض الذي قدمه المسلمون إلى ماركوس في سنة ١٩٧٥م أن عدد المذابح والحوادث الدامية في جنوب الفلبين قد بلغ ٤١٧ حادثة في الفترة ما بين ١٩٦٩م إلى أول سنة ١٩٧٢م، وهذا غير مئات الحوادث التي لم تسجل ولم تطل يد القانون المتسببين في هذه الحوادث(١٥).

وقد ذكر النائب (دبين كانوي) عضو المعارضة الوحيد عن جزيرة متداناو «أن عدد ضحايا القتال بلغ خمسين ألف نسمة خلال ست سنوات، من بينهم ألف نسمة في العام الماضي وحده»(١٦).

المطالبة باستقلال الجزر الإسلامية :

كاد الرد العملي على هذا الاضطهاد والاستيلاء على أراضي المسلمين هو قيام جماعة تطالب بانفصال المسلمين عن الفلبين ليكونوا دولة إسلامية في جزر المسلمين في الجنوب، وقد ظهر هذا الاتجاه في أواخر سنة ١٩٦٧م، وظهر التكوين العسكري لهذه الحركة في أواخر سنة ١٩٦٩م.

وزعيم هذه الحركة الاستقلالية الإسلامية شيخ ذو حذق سياسي ودراية عسكرية، اكتسبها

خلال مقاومته لليابانيين وخلال عمله السياسي كحاكم لمحافظة كوتاباتو، وهو الداتو أتج متالم الذي يرى أن حل هذه المسكلة هو الاستقلال بالجزر التي يشكل المسلمون فيها أكثرية عددية أو تفوقا في ملكية الأراضي.

وهذان الشرطان يتحققان في جزر ميندناناو وأرخبيل سولو بصورة ظاهره لا مماراة فيها.

وقد أرسل ذلك الزعيم ببرقيات ورسائل إلى الأمم المتحدة وإلى الرئيس الفلبيني (ماركوس) يعلنه فيها أنه يعتبر المسلمين مستقلين ومنفصلين عن حكومة مانيلا التي ترسل إليهم عصابات كاثوليكية لقتل الأبرياء من النساء والأطفال، ويحاول اغتصاب الأرض من أصحابها المسلمين لكي تسلمها لمن تهجرهم إليها من الكاثوليكيين لتجعلهم أغلبية سكانية فيها.

ولأن المسلمين لا يقبلون أي ثمن مهما كان غاليا لبيع أرضهم فالوسيله الوحيدة للاستيلاء عليها هو اغتصابها بغارات جماعية مسلحة في ظل رعاية السلطه وبتدبير وتخطيط منها.

والمسلمون يقاومونهم حسب طاقتهم ، ولكنهم في حاجة إلى مساعدة كل القوى المتحررة في العالم وخاصة القوى الإسلامية.

وبجوار هذه الحركة التي يتزعمها (داتو اتج متالم) وجدت جبهة تحرير بنجسامورو، أي جبهه تحرير أمة المسلمين، وينضوي تحتها كبر من الهيئات والمنظمات، ويرأسها مجلس ثوره يقوده زعيم باسم حركي هو عمر أوفاف.

ولهذه الجماعه جناح عسكري مقاتل، وتدرب شبابها على حرب العصابات لحماية أنفسهم وحماية المسلمين. وقد أدى ظهور هذه القوى المقاتلة إلى تجمع صفوف الجماعات والطوائف الإسلامية وخاصة بعد التحرك العربي الذي أرسل وفدا لتقصي الحقائق في الفلبين سنة ١٩٧١م، فتكونت الإدارة الحدينة، وتضم هذه الإدارة الجمعيات والمنظمات والهيئات التالية:

١ - جمعية أنصار الإسلام : ويرأسها مندوب المؤتمر الدستوري (أحمد دموكاو ألنتو)، وهو عضو سابق في مجلس الشيوخ الفلبيني.

٢ ـ اتحاد القوى والجمعيات الإسلامية بالفلبين برئاسة النائب البرلماني رشيد لقمان، وكانت تسمى من قبل جمعية الشبيبة الإسلاميه، وكانت مجلة دعوة الإسلام لسان حالها.
٣ ـ نقابة المحامين المسلمين برئاسة عضو الشيوخ (مامتال تامانو).
٤ ـ الجمعية الإسلاميه بالفلبين برئاسة النائب البرلماني (ساليباد ابداتون).
٥ ـ مجلس التنسيق الوطني للشئون الإسلامية برئاسة (مكافانتويحيى عباس) الابن.
٦ ـ المجلس الوطني للشباب المسلم برئاسه (مكافانتون عباس) الأبن .
٧ ـ اتحاد الشبان والطلبة المسلمين برئاسة فاروق شريف.
٨ ـ الاتحاد الفيدرالي للجمعيات الإسلامية بالفلبين برئاسة السيدة الحاجه زوبدا تامانو.
٩ ـ صحيفة دعوة الإسلام : رئيس التحرير (عبدالرشاد آساني) .
١٠ ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية برئاسة النائب البرلماني (محمد علي ديمابورو).

كما توجد جمعية إقامة الإسلام، ومهمتها نشر الثقافة والتعليم الإسلامي في المناطق الإسلامية، ولها نشاط ملحوظ في ذلك(١٧).

وقد عرضت مشكلة المسلمين في الفلبين على مؤتمرات وزراء خارجية الدول الإسلامية ابتداء من مؤتمر كوالالمبور الذي انعقد في عام ١٩٧٤م إلى المؤتمر التاسع الذي عقد في داكار سنة ١٩٧٨م.

وقد انتدب المؤتمر لجنة وزارية رباعية مكونه من وزراء خارجية المملكة العربية السعودية وليبيا والصومال والسنغال لتقصي الحقائق في الفلبين، وبعد مساع عديدة تحت إشراف لجنة مؤتمر وزراء الخارجية للدولة الإسلامية دارت مفاوضات بين وفد من حكومة جمهورية الفلبين ووفد جبهة تحرير مورو، أسفرت في النهاية عن اتفاق طرابلس سنة ١٩٧٦م. ومن بين ما تضمنه هذا الاتفاق ما يأتي:

١ ـ منح الحكم الذاتي الداخلي للمسلمين في جنوب الفلبين في إطار احترام السياده الوطنية لجمهورية الفلبين ووحدة أراضيها على أن يشمل ذلك ثلاثة عشر إقليما.
٢ ـ إقامة محاكم شرعية إسلامية للمسلمين، وإشراكهم في المحكمة العليا للبلاد.
٣ ـ تعليم المسلمين في نظام تعليمي خاص بهم .
٤ ـ إعلان وقف إطلاق النار، والعفو العام عن المجاهدين المسلمين، وإطلاق سراح المعتقلين

السياسيين، وعودة اللاجئين إلى ديارهم، وضمان حرية الانتقال وحرية التجمع.

٥ ـ قيام نظام مالي خاص بالمسلمين مع تمثيلهم في الحكومة المركزية، وقيام حكومة انتقالية للحكم الذاتي، ومجالس تسريعية وتنفيذية، وقوات أمن داخلي إقليمية.

٦ ـ تكوين لجنة خاصة لمراقبة اتفاق وفف إطلاق النار مكونة من ممثلين لجبهة تحرير المورو، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وحكومة الفلبين(١٨).

ونتيجة لهذا الاتفاق أعلن عن وقف إطلاق النار احتراما للاتفاقية، ونزولا على رغبة العالم الإسلامي.

إلا أن الخلافات بدأت تظهر اعتبارا من شهر فبراير سنة **١٩٧٧**م حين اجتمعت اللجنة المشتركة المكلفة بحل المسائل العملية المترتبة على اتفاق طرابلس، فقد تحولت حكومة الفلبين عند نقطتين أساسيتين في اتفاق طرابلس، تتعلقان بالأقاليم التي كان مقرراً أن يمارس فيها الحكم الذاتي الداخلي، وإدخال إجراء دستوري غير مقرر ألا وهو الاستفتاء.

وقد أبدت اللجنة الوزارية الرباعيه والأمانة العامة في اجتماع مسترك تحفظاتهما حيال هذا التغيير في موقف حكومة الفلبين، كما لفتا نظرها إلى هذا التغيير، وأعربا عن استعدادهما للمساعدة على إيجاد حل للمشكلة.

وقد كلف المؤتمر الإسلامي الثامن لوزراء الخارجية للدول الإسلامية ـ بعد اطلاعه على الوضع في مجموعه ـ اللجنة الوزارية الرباعية بأن تواصل وساطتها بين الطرفين تطبيقا للقرارات التي سبق اتخاذها في المؤتمرات السابقة لوزراء الخارجية للدول الإسلامية.

وقد وجهت اللجنة رسالة إلى حكومة الفلبين في ١٣ يونية سنة ١٩٦٦م، ذكرت فيها «أنه ينبغى التوصل إلى التفاهم والتعايش السلمي بين كل الأطراف والأديان والعناصر الشقيقة لسعب واحد». وأجابها وزير خارجية الفلبين «بأن بلاده لن تدخر وسعا من أجل التوصل إلى حل سلمي وعادل للمسكلة».

غير أن هذه الرسائل لم تحل المشكلة ، واستؤنفت عمليات العنف والإبادة والتدمير بين الجانبين في جنوب الفلبين، واستمر الوضع في التدهور، مما أدى إلى قتل العشرات من الضباط

والجنود الفلبينيين، وقيام الحكومة بعمليات جوية وبرية وبحرية ضد المسلمين في الجنوب، قتل فيها كثير من المسلمين ودمرت منازلهم وشردوا من ديارهم وقراهم.

ونتيجة لذلك اجتمعت اللجنة الوزارية الرباعية في الخامس من نوفمبر سنة ١٩٧٧م، ووجهت إلى الرئيس ماركوس وإلى رئيس جبهة تحرير مورو. دعتهما فيه إلى وقف كافة العمليات العسكرية والعودة إلى مائدة المفاوضات.

كما كتبت إلى حكومات ماليزيا وأندونيسيا وتايلاند تطالبهم ببذل مساعيهم الحميدة في هذا الاتجاه، كما أهابت بمجلس الأمن ولجنة حقوق الإنسان والدول الإسلامية بالتدخل لإيقاف المجازر الوحشية وانتهاكات حقوق الإنسان، وبينت أن استئناف الحرب سيهدد الأمن والاستقرار الدوليين.

وقد دعا الرئيس ماركوس السيد/ نورمسواري رئيس جبهة تحرير مورو إلى التوجه إلى الفلبين للتفاوض معه، وأجابه السيد نورمسواري بأنه مستعد لاستئناف المفاوضات في دولة محايدة، وتحت رعاية منظمة المؤتمر الإسلامي، وفي إطار احترام اتفاق طرابلس.

غير أن تجدد العنف في جنوب الفلبين جعل الرئيس ماركوس يعلن عن طريق سفيره في جده أنه يتشكك في جدية وإخلاص جبهة مورو تجاه الحكم الذاتي الداخلي للمسلمين في الفلبين، وأنه يعلم ـ وفقا للوثائق التي تم الاستيلاء عليها ـ أن السيد نورمسواري يعمل من أجل الانفصال. ولكن رئيس جبهة تحرير مورو نفى هذا الاتهام.

وفي ١٨ فبراير ١٩٧٨م اجتمعت اللجنة الوزارية لمدة ثلاثة أيام، وأجرت بحثا مستفيضا للوضع، واستمعت إلى السيد نورمسواري، واتخذت مجموعة من الإجراءات لم يذكر عنها تقرير داكار شيئا.

وفي ٥ مارس ١٩٧٨م بعث الأمين العام لمؤتمر وزراء الخارجية برسالة إلى الرئيس ماركوس، دعاه فيها مرة أخرى وباسم اللجنة الرباعية إلى إيقاف كافة العمليات العسكرية ضد المسلمين في جنوب الفلبين، وقد أعرب السيد نورمسواري لرئيس دولة الفلبين عن استعداداته الطيبة.

وفي أول أبريل ١٩٧٨م بعث الرئيس ماركوس برد إلى أمين عام منظمة تحرير مورو وضمن رسالته مؤاخذاته ضد رئيس جبهة تحرير مورو، وأعرب عن حسن نوايا حكومته، غير أنه أشار إلى الاختلاف الدائر في صفوف الجبهة، وذكر أن الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر قد قدم له هاشم سلامه على أنه الزعيم الجديد، وأخيرا ذكر الرئيس ماركوس «أن الحيطة تتطلب منه أن يتابع التطورات»(١٩).

وقد ألقى الرئيس ماركوس خطابا في ١٩٧٨/٩/٢١م «وعد فيه بتخصيص منطقة تتمتع بنسبه حكم ذاتي ٢٫٥ مليون من سكان الأقاليم الجنوبية في ميندناو وسولو وتاوي تاوي وباسيلان، وأضاف قائلا: لا داعي للقلق بشأن الموقف في جنوبي الأرخبيل، اللهم إلا إذا تلقى الثوار أعضاء الجبهة الوطنية للتحرير - مورو - مساعدات من الخارج(٢٠).

وهي وعود كما رأينا سبق تكرارها دون أن يكون لها أثر واقعي يقر الأمن والسلام، ويطمئن المسلمين على دمائهم وأرواحهم وأرضهم.

الانشقاق في جبهة تحرير مورو:

إن الشقاق والاختلاف في جبهات المطالبين بحقهم هو الداء الوبيل الذي يؤدي إلى ضعف تلك الجبهات وتخاذلها، ويقف حاجزا سميكا دون الوصول إلى أهدافها وتحقيق مطالبها، وللأسف قد حدث ذلك في جبهة تحرير مورو.

فقد ظهرت حركة منشقة ادعت عزل رئيس جبهة تحرير مورو، وضاعفت هذه الحركة من اتصالاتها بالسفارات في جده وبالأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

وقد ذكرت هذه الحركة المنشقة بعض الأسباب لعزل رئيس جبهة تحرير مورو السيد نورمسواري منها:

١ - أن القيادة تحت رئاسة السيد نورمسواري تتنافى مع التوجيهات الإسلامية في تحركاتها وأساليبها وأهدافها، ونحت نحو الماركسية الماوية.

٢ - أن القيادة تحت رئيس الجبهة السيد نورمسواري لم تقم على أساس المشاورة والقيادة الجماعية المستجيبة، بل قامت على مبدأ ديكتاتوري فردي وانعزالي خفي وغامض، مما

أدى إلى سوء تدبير جميع شئون الجبهة، وخاصة فيا يخص الشئون الإدارية والاستراتيجية والمالية.

٣ - نتج عن قيادة السيد نورمسواري المحوطة بالسرية الكثير من الاضطراب والتسكك وخيبة الأمل بين الأعضاء والمجاهدين في الميادين، وأدى ذلك إلى كثير من الخسائر في صفوف المقاتلين، وأدى ذلك إلى التفتت والتفرق والاختلاف بين المسلمين وخاصة المجاهدن، فضعفت قوتهم المعنوية، مما أدى ببعضهم إلى الاستسلام والتوقف عن عملية الجهاد، بالإضافة إلى التفرق بين المنظمات والمؤسسات الإسلامية.

ولذلك فقد أسندت هذه الحركة المنشقة قيادة الجبهة إلى السيد سلامة هاشم عضو اللجنة المركزية لجبهة تحرير مورو الوطنية ورئيس شئون خارجيتها اعتبارا من ١٣ محرم سنة ١٣٩٨ هـ ، وقد وزعت منشورات عليها توقيع ٧٦ شخصا من المؤيدين لهذا الانشقاق(٢١).

ولاشك أن هذا الانشقاق يعطي للحكومة الفلبينية فرصة ذهبية لتقف من مطالب المسلمين موقف التسويف، تم المعارضة لهذه المطالب حتي تتمكن من القضاء عليهم، خاصة والمسلمون يمكنونها من ذلك بإشاعة الفرقة والاختلاف بين صفوفهم.

ومن هنا نرى أن المسئولية الكبرى لحل هذه القضية يقع على كاهل المسلمن في الفلبين أولا، وذلك بتوحيد صفوفهم، ووأد أي نزاع أو شقاق يقوم بينهم حتى يصيروا صفا واحدا يقف في وجه المعتدين عليهم، ويحقق لهم قول الله تعالى:

(إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ) (الصف: ٤)

كما تقع مسئولية كبرى على الدول الإسلامية وخاصة المجاورة للفلبين (أندونيسيا وماليزيا) بإظهار التضامن مع المسلمين في الفلبين، ولو أدى ذلك إلى فرض عقوبات اقتصادية وسياسية ضد حكومة الفلبين نظرا لماطلتها في تحقيق اتفاق طرابلس وتحديها لقرارات مؤتمرات وزراء الخارجية للدول الإسلامية.

ثم على الدول الإسلامية تعضيد قضية المسلمين في الفلبين عند عرضها في مجلس الأمن ولجنة حقوق الإنسان وهيئة غوث اللاجئين الدولية.

وعليها تقديم المساعدات المادية والمعنوية للمسلمين في الفلبين حتى يتمكنوا من مواصلة جهادهم وحصولهم على حقهم في المحافظة على أرواحهم وعقيدتهم وأرضهم.

ولي في النهاية أن أقول: إن المسلمين إذا طالبوا بالاستقلال التام والعودة إلى وضعهم السابق الذي كانوا عليه خلال الاحتلال الأسباني فإن لهم سندا قانونيا هو هذه المعاهدات المتعددة التي وقعت بينهم وبين الأسبان، حيث تظهر شخصيتهم الاعتبارية كدولة مستقلة لها كيانها الخاص.

ثم إنهم أثناء الاحتلال الأمريكي كان لهم وضعهم الخاص الذي يكفل لهم المحافظة على أرضهم وعلى دينهم وعلى خصائصهم الحضارية المترتبة على اعتناقهم لدينهم الإسلامي الذي لا يفصل بين الدين والدنيا، والذي يوجه الحياة الإنسانية في كل مظاهرها الفردية والاجتماعية.

ومع ذلك فإن الدين الإسلامي لا يمنع أن يعيش أتباعه مع أصحاب الأديان الأخرى، ولكن بشرط أن تحفظ لهم حقوقهم ويعيشوا مع غيرهم على قدم المساواة في الحقوق والواجبات.

أما أن يهجر المسيحيون من الشمال إلى الجنوب لكي يكونوا أكثرية بين المسلمين، ثم تعطى لهم أراضي المسلمين، ويطرد المسلمون منها، ويصلبوا وتحرق ديارهم وتهدم مساجدهم ومدارسهم، فإذا ثار المسلمون للحفاظ على كرامتهم والاحتفاظ بحقوقهم وأرضهم قالت الحكومة الفلبينية عنهم: إنهم عصابات، وإنهم سفاكون... وإنهم... وإنهم... فذلك مالا يرضاه إنسان.

وإذا كان هذا هو ما حدث بعد الاستقلال بالنسبة للمسلمين فإنني أقول: إن ذلك ليس استقلالا، وإنما هو استعمار آخر من ساكني الشمال لساكني الجنوب، أو من المسيحيين للمسلمين بعد أن عجز الأسبان عن احتلال أراضي المسلمين في الجنوب، وبعد أن اعترف الأمريكان أثناء احتلالهم للفلبين بالشخصية المتميزة للمسلمين، وحافظوا لهم على أرضهم وعلى دينهم وعلى مقومات حياتهم المادية والمعنوية.

ولاشك أن الأمر للمسلمين ساكني الجنوب الفلبيني في حرية الاختيار للوضع الذي يرضونه من الاستقلال التام أو الاندماج بوضع خاص.

إلا أن الضمير الإنساني والأخوة الإسلامية تحتم على من يهتم بالمشاكل الإنسانية، ويحرص على الأخوة الإسلامية أن يكون عونا دائما للحق والعدل الذي يطمئن الإنسان على حاضره وعلى مستقبله حتى تسير الحياة سيرا طبيعيا آمنا ومستقرا.

* * *

الحواشـــى

(١) انظر : Philippin. Political and cultural History, Volume 2. by Gregorio. F. Zaide

(٢) انظر : عذراء ماليزيا (الفلبين) للدكتور مصطفى مؤمن الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ صـ ٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٤١ .

(٤) انظر : Philippin. op. Cit. p. 41

(٥) انظر. The History of Sulu by Nageeb. m. Saleeby pay 42, 43 manile 1963.

● مانكابن : منطقة غنية ومتقدمة في وسط سومطرة، وقدم منها كثير من الأسر الملايوية .

●● راجا : اللقب العادي لملوك الملايا .

(٦) موجز النظرية أن انتشار الإسلام جاء كرد فعل لقدوم المسيحيين إلى تلك المنطقة.

(٧) انظر: كتاب الإسلام في السرق الأقصى وصوله وانتشاره وواقعه: تأليف دكتور فيصر أديب مخول، تعريب دكتور نبيل صبحي، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

(٨) ملاحظة : أثناء إقامتي في الفلبين مبعوثا للأزهر لنشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الفترة من ٦٢ ـ ١٩٦٥م زرت في شهر فبراير ١٩٦٥م بصحبة الحاج عبدالعزيز عمر مؤسس كلية مسلمي الفلبين فى هولو قبر المبشر الاسلامى مخدوم أمين الله فى قمة جبل (أغد) (ومعناه الجبل التابع) ويرتفع حوالى ٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر وهو قريب من مدينة هولو ومازال هناك إلى الآن خادم يعتنى بقبره ويوقد عليه البخور كما يضع الناس عليه دائما قماشا أبيض وحول القبر كثير من القبور الأخرى التى يقولون عنها إنها لاتباعه ولا توجد كتابه على هذه القبور. أما فى جبل (داتو) الذى يجاور الجبل السابق ويرتفع حوالى ١٨٠٠ قدم فيوجد قبر كتب عليه باللغة العربية «من مات غريبا مات شهيدا هذا قبر الشهيد تهار وأنه توفى فى شهر رجب المعظم ٧١٠ هـ أى منذ سبعة قرون»..

وهذا يدل على أن الإسلام قد وصل إلى الفلبين وانتشر هناك قبل قيام المملكة الإسلامية فى سولو على يد راجابجند وأبوبكر من بعده..

(٩) عذراء ماليزيا الفلبين ، دكتور مصطفى مؤمن ، ص ١١ .

(١٠) انظر. Philipin. op. cit. p. 306.

(١١) History of Sulu by najeeb . .. Saleeby pp. 49-54.

(١٢) عذراء ماليزيا (الفلبين) د. مصطفى مؤمن ، ص ٤٢ .

(١٣) انظر عذراء ماليزيا (الفلبين) ، دكتور مصطفى مؤمن ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٤) انظر المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(١٥) نقلا عن مجلة الدعوة الهندية، العدد الثامن عشر ، السنة الثانية ٢١ ربيع الأول سنة ١٣٩٨ هـ مارس سنة ١٩٧٨م.

(١٦) صحيفة الجزيرة الصادرة في المملكة العربية السعودية في ٢٥/١٠/١٣٩٨ هـ ـ ٢٧/٩/١٩٧٨م.

(١٧) انظر عذراء ماليزيا (الفلبين)، د. مصطفى مؤمن ، ص ٧١، ٧٢ .

(١٨) انظر

(أ) تمرير عن قضية المسلمين في جنوب الفلبين مقدم إلى المؤتمر التاسع لوزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد في داكار سنة ١٩٧٨م..

(ب) مقال النضال الإسلامي في الفلبين، مجلة الدعوة الهدية، العدد الثامن عشر، مارس سنة ١٩٧٨م.

(١٩) انظر: التقرير المقدم عن قضية المسلمين في جنوب الفلبين إلى المؤتمر التاسع لوزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد في داكار، أبريل سنة ١٩٧٨م.

(٢٠) صحيفة الجزيرة التي تصدر في المملكة العربية السعودية العدد ٢٢٧٢ في ٢٢/٩/١٩٧٨م.

(٢١) انظر : منشورات جبهه تحرير مورو الوطنيه، اللجنة المركزية، وثيقة تولية الرئاسة.

* * *

المصادر

١ ـ الإسلام في السرق الأقصى : وصوله وانتشاره وواقعه. للدكتور قيصر أديب مخول، تعريب الدكتور نبيل صبحي، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

٢ ـ حاضر العالم الإسلامي : تأليف لونروب ستودارد الأمريكي، ترجمة عجاج نويهض، وفيه فصول وتعليقات للأمير شكيب أرسلان، جـ ١، ٢، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٧٣م.

٣ ـ عذراء ماليزيا (الفلبين)· : للدكتور مصطفى مؤمن، الناشر دار التراث العربى ليبيا، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٢م.

٤ ـ المسلمون في جزر الفلبين : جهادهم ومطالبهم. للدكتور رءوف شلبي، الناشر مكتبة الأزهر، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٦م.

٥ ـ تاريخ الإسلام في الفلبين : للشيخ أحمد بشير أحد، مؤسس جمعية إقامة الإسلام بمدينة مراوي فلبين، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٤م.

٦ ـ في جزر الفلبين : دراسات ومشاهدات وذكريات للدكتور عبدالرحمن حسين، بحث لم يطبع بعد.

٧ ـ رحلة ابن بطوطة : المساة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، سنة ١٩٦٧م .

٨ ـ مجلة الأزهر سنة ١٩٦٦م ١٩٦٧م مجموعة مقالات تحت عنوان: «عائد من الفلبين» للباحث الدكتور محمد محمد شتازيتون

٩ ـ صحيفة الأهرام القاهرية.

١٠ ـ صحيفة الجزيرة السعودية .

١١ ـ مجلة الدعوة الهندية العدد الثامن عشر : مقال عن الفلبين يتضمن الخطاب الذي ألقاه الأستاذ يحيى عباس في أول ندوة إسلامية أقامها معهد شئون الأقليات المسلمة بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة في ٢٥ شوال سنة ١٣٩٧ هـ ، ترجمة السيد/ جميل إسماعيل يحيى (نشرة معهد شئون الأقليات المسلمة).

١٢ ـ التقرير المقدم إلى المؤتمر التاسع لوزراء خارجية الدول الإسلامية في دكار سنة ١٩٧٨م.

١٣ ـ نشرات جبهة تحرير مورو الوطنية اللجنة المركزية.

1 - Moro Problens .

تقرير لجنة البرلمان الخاصة بمشاكل المورو (المسلمين في الفلبين) المقدم إلى برلمان الفلبين سنة ١٩٥٤م برئاسة السناتور أحمد ألنتو.

2 - Philippin Political and Cultural History, Volumes, By Gregoria. F. Zaide.

3 - The History of Sulu by Nageeb Saleeby manila 1963.

* * *

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
IMAM MUHAMMAD
IBN SAUD ISLAMIC UNIVERSITY

RESEARCH CENTRE

PROCEEDINGS OF THE FIRST ISLAMIC GEOGRAPHICAL CONFERENCE

VOLUME IV

Published Under The Supervision of The
Department of Culture and Publications

1404 AH - 1984 AD

Bibliotheca Alexandrina
0253359

(٢١) يقصد بنفس الأحرف الأمهرية .

(٢٢) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، مرجع سبق ذكره ص ١٧٦ .

(٢٣) انظر البحث ص (٥) .

(٢٤) انظر البحث ص)٤(.

(٢٥) انظر البحث ص (٥) .

(٢٦) انظر البحث ص (٧) .

(٢٧) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٠ .

(٢٨) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٢ .

(٢٩) انظر البحث من ص ٨ ـ ١٢ .

(٣٠) يسكل المسيحيون في مدينة أسمرا ٧٥٪ من السكان .

(٣١) خوفا على قاعده إنيوستيشن للاستخبارات من الدمار .

(٣٢) المقصود هنا بانحسار دور المسلمين هو انحسار دور الشباب المسلم، لأن معظم القيادات رفعت الشعارات الاستراكية والماركسية، وهي محسوبة على المسلمين.

(٣٣) سأ أخيرا ضمن صفوف المجلس الثوري حزب ماركسي الاتجاه، يسمى بحزب العمل الأريتري (بدأ في النمو منذ الستينات).

(٣٤) تدعو قوات التحرير التعبية إلى التزاوج الثقافي العربي ـ التجريني في أريتريا، بينما يرفض تنظيم آسياس أفورقي هذا الاتجاه، ويدعو إلى تجزئه أريتريا.

(٣٥) تخفف أثيوبيا الضغط على المناطق التي تسيطر عليها الجبهة السعبيه.

(٣٦) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢م، الفقرات: ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٧، صفحة ١٥٥ ـ ١٦١، بغداد ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م.

(٣٧) تنص المادة (٢) من المعاهدة على: «أن الحكومة الإمبراطورية الأثيوبية تمنح الولايات المتحده حق ممارسة جميع الحقوق والصلاحيات والسلطات الضرورية لإنشاء وإدارة وتسيير المنشآت للغايات العسكرية، ولا يدخل في هذه الحقوق حق أو سلطة أو صلاحية تحويل هذه المنشآت أو جزء منها تحت تصرف دولة أو حكومة أو قوة عسكرية ثالثة».

(٣٨) كان ذلك أثناء مناقشة المشاريع المقدمة بسأن مستقبل أريتريا (١٩٥٠م) في معرض رده على المندوب البريطاني الذي نادى بعدم استقلال أريتريا.

(٣٩) يقصد حرب الحبسة مع إيطاليا .

(٤٠) تمثلت في المعاملة الحسنة من قبل القيادات المسلمة لأبناء وطنهم من المسيحيين غير مبالين بالحساسيات القديمة التي نشأت في الأربعينات. كما أن قيام القياده العامة (وبدافع إقليمي طائفي) ببعض الإعدامات ضد أبناء الهضبة المسيحية مما دفع آسياس أفورقي إلى الانفصال بتنظيم ظاهره ماركسي بينما جوهره طائفي.

المصادر

المصادر العربية :

- أدولف روسي : أريتريا اليوم (روما ١٨٩٤م) ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية.
- وثائق الأمم المتحده حول أريتريا : (تقرير اللجنة الرباعية ١٩٤٨م ـ تقرير بعثة الأمم المتحدة في أريتريا ١٩٥٠م ـ التقرير النهائي لمندوب الأمم المتحدة ١٩٥٢م) ترجمة جبهة التحرير الأريترية، بغداد ١٩٧٧م.
- وثائق الخارجيه الإيطالية حول أريتريا : ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية، دمشق ١٩٧٧م.
- جبهة التحرير الأريترية : جهودنا من أجل الوحدة، (وثائق صادرة عن قوات التحرير الشعبية)، مكتب الإعلام.
- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٠٣م.
- عثمان صالح سبي : تاريخ أريتريا ، دمشق ١٩٧٧ م .
- فرديناندو مارتيني : أريتريا في أفريقيا الإيطالية ، ترجمة جبهة التحرير الأريترية، بيروت ١٩٧٦م.
- سيد أحمد خليفة : عارنا في أريتريا ، بيروت ١٩٧٤ م .
- رينيه باسيه : النقوش الكتابية في جزيرة دهلك ، ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية، دمشق ١٩٧٧م.
- محمد سيد محمد : العلاقات بين السودان والحبشة في أواخر القرن التاسع عشر ـ مجلة جامعة الملك عبدالعزيز، العدد الأول، صفحة ٢٠٧ ـ ٢٣٢، مكة المكرمة ١٩٧٥م.

المصادر الأجنبية :

—Abul—Haggag, Y. A Contribution to the physiography of Northern Ethiopia, London, 1961.

- Shoff, W. H.: Periplus of the Erythrean Sea, New York, 1912.
- Ulendorff, E,: The Ethiopians-Introduction to people and country, London 1955.

مشكلة مسلمى الفلبين
منذ الاحتلال الاسبانى
حتى الوقت الحاضر

دكتور / محمد شتا

المقدمة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبدالله المبعوث رحمة للعالمين، وبعد.

فإن مشكلة المسلمين الذين يعيشون في الفلبين اليوم لا ترجع إلى هذا القرن الذي نعيش فيه بعد أن حصلت الفلبين على استقلالها، وإنما ترجع إلى خمسة قرون سابقة، عندما طرق الاستعمار الأسباني أرض الفلبين، فاستعمر أجزاء منها، ونشر المسيحية فيها، وحاول أن يبسط سلطاته وسيادته ودينه على الجزر والأراضي التي يقيم فيها المسلمون، فبدأ الصراع بينه وبين المسلمين، واستمر طيلة وجود الاستعمار الأسباني الذي استطاع أن ينشر المسيحية في الأماكن التي احتلها، ونجح في أن يجعل الفلبينيين المسيحيين يرثون روح العداوة والحقد التي يكنها الاستعمار الأسباني للمسلمين الذين تمسكوا بدينهم، ودافعوا عن أرضهم ووطنهم، ولم يعتنقوا دين الأسبان المسيحي، بل ظلوا يقاتلون الأسبان أثناء استعمارهم للفلبين، ثم استمر القتال فترة وجود الأمريكان، وإن كان قد هدأ فترة سادها الحذر، ثم اشتد الصراع بعد الاستقلال إلى أن وصل إلى الوضع الحالي الذي يعاني منه المسلمون اليوم من أجل الاحتفاظ بدينهم وبأرضهم وقيمهم.

ومن هنا نرى أن مشكلة المسلمين في الفلبين إنما هي بقية من بقايا الاستعمار الأسباني في الفلبين، وذيل من ذيوله التي خلفها بعد أن رحل عنها. وحل هذه القضية أو المشكلة إنما هو حل لقضية استعمارية قد طال عليها الزمن حتى بعد رحيل الاستعمار الأسباني بثمانين عاما.

وسوف تكون دراستنا لهذه المشكلة في إطار الحديث عن موقع الفلبين وأهم جزرها ـ السكان وديانتهم ـ علاقات العرب بالفلبين ـ دخول الإسلام إلى الفلبين ـ وصول الأسبان إلى الفلبين وبداية مقاومة المسلمين لهم ـ تتابع حملات الأسبان لاحتلال الفلبين ـ أسباب الحرب بين الأسبان وبين المسلمين ـ تمكن الأسبان من القضاء على المسلمين في شمال الفلبين ـ محاولتهم القضاء على المسلمين في الجنوب ـ صمود المسلمين في القتال ضد

الأسبان ـ محاولة المسلمين الاستعانة بقوى أجنبية أخرى ضد الأسبان ـ المعاهدات بين المسلمين وبين الأسبان ـ هزيمة الأسبان أمام الأمريكان ـ موقف الأمريكيين من المسلمين في الفلبين ـ ثم تطور المشكلة بعد الاستقلال.

المشكلة بعد الاستقلال.

١ ـ موقع الفلبين وأهم جزرها :

تقع الفلبين في جنوب شرقي آسيا بين خطي عرض ٥°، ١٨° شمال خط الاستواء، وبين خطي طول ١٢٠°، ١٢٧° شرقي خط جرينتش، وتظهر الفلبين كأرخبيل يمتد في جنوب شرقي قارة آسيا. وأول جزيرة فيها من الشمال هي جزيرة (بامي) Yami التي تبعد عن فرموزا ٧٨ ميلا، وآخر جزيرة فيها من الجنوب هي جزيرة (سالوج) Saluog التي تبعد عن برنيو ٣٤ ميلا. ومجموع جزر الفلبين ٧١٠٠ جزيرة بشكل تقريبي لمثلث متساوي الساقين، طوله من الشمال إلى الجنوب ١١٥٢ ميلا، ومن الشرق إلى الغرب ٦٨٨ ميلا، وعدد الجزر التي لها أسماء ٢٧٨٢ جزيرة، والباقي من الجزر ليس لها أسماء بعد.

وأكبر الجزر هي جزيرة (لوزون) التي فيها عاصمة الفلبين (مانيلا) ومساحتها ٤٠٨١٤ ميلا مربعا، وتليها جزيرة (منداناو) ومساحتها ٣٦٩٠٦ ميلا مربعا، والثالثة جزيرة (سمر) ومساحتها ٥١٢٤ ميلا مربعا.

ومن الجزر الكبيرة جزيرة (نجرو) ومساحتها ٤٩٠٣ ميلا مربعا، وجزيرة (بلاون) ومساحتها ٤٥٠٠ ميلا مربعا، وجزيرة (باناي) ومساحتها ٤٤٤٨ ميلا مربعا، وجزيرة (مندور) ومساحتها ٣٧٩٤ ميلا مربعا، وجزيرة (ليبات) ومساحتها ٢٧٩٩ ميلا مربعا.

ومجموع مساحة الفلبين ١١٥٦٠٠ ميلا مربعا، وهذه المساحة تعادل مساحة إيطاليا، كما تعادل مساحة اليابان، وحوالى ثلثي مساحة أسبانيا.

٢ ـ السكان وديانتهم :

يتكون السكان في الفلبين من أجناس مختلفة من الزنوج والملايا والأندونيسيين والهنود والصينيين واليابانيين والعرب والأوربيين والأمريكان.

وقد قدر الأستاذ H. otley Beyer ـ أستاذ السلالات ـ نسبة الدم الذي يجري في عروق الفلبينيين بما يأتي:

الزنوج	٪١٠
أندونيسيا	٪٣٠
الملايا	٪٤٠
الصينيين	٪١٠
الهنود	٪ ٥
الأوربيين والأمريكان	٪ ٣
العرب	٪ ٢

وقد بلغ تعداد السكان في سنة ١٩٣٩م (٣٠٣٫٠٠٠٫١٦) مليون نسمة، وفي سنة ١٩٤٨م (١٨٢٫٢٣٤٫١٩) مليون نسمة(١).

وفى سنة ١٩٦٠م بلغ تعداد السكان (٦٨٥٫٠٨٦٫٢٧) مليون نسمة. وفى سنة ١٩٧٠م بلغ تعداد السكان (٠٠٠٫١٥٨٫٣٧) مليون نسمة(٢).

ويوزع السكان حسب معتقداتهم في الإحصاء الأخير سنة ١٩٧٠م كالآتي:

الطوائف الدينية	العدد الكلي	النسبة المئوية
الكاثوليك	٢٧٫٨٦٨٫٥٠٠	٪٧٥
المسلمون	٤٫٤٥٨٫٩٦٠	٪١٢
الأجليباان	٢٫٦٠١٫٠٦٠	٪ ٧
الوثنيون	١٫٦٣٤٫٩٥٢	٪ ٤٫٤
البروتستانت	٣٨١٫٥٨٠	٪ ١
البوذيون	١١١٫٤٧٤	٪ ٠٫٣
الشينتو	٧٤٫٣١٦	٪ ٠٫٢
طوائف أخرى	٣٧٫١٥٨	٪ ٠٫١
المجموع... ...	٣٧٫١٥٨٫٠٠٠	٪١٠٠(٣)

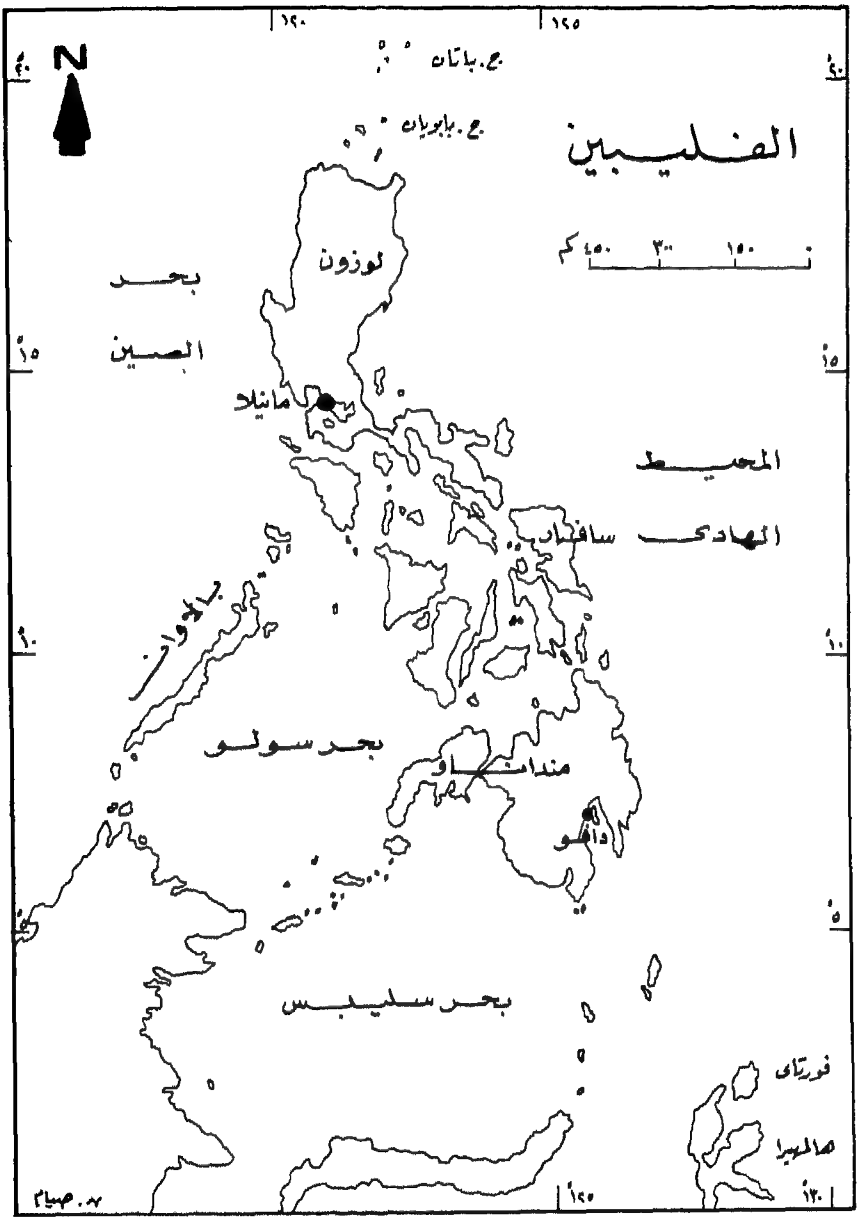
الفلـيبين
N
١٢٠
١٢٥
٢٠
١٥
١٠
٥
ج. باتان
ج. بابويان
٤٥٠ كم ٣٠٠ ١٥٠ ٠
لوزون
بحـر الصـين
مانيلا
المحيـط الهادى
سافار
بالاوان
بحر سولـو
منداناو
داڤو
بحر سليبس
فورتاى
هالمهيرا
١٢٥
١٣٠
٨٠. صيام

٣ ـ علاقات العرب القديمة بالفلبين :

لقد أقام العرب علاقات مع الشرق الأقصى خلال الحكم السبئي في جنوب الجزيرة العربية، حينما كانت سفن العرب التجارية تمخر عباب بحر الملايا ذاهبة إلى الصين في القرن الأول الميلادي، وفي القرن الثالث كان للعرب جالية تجارية تقيم في كانتون Canton، وفي القرن التاسع الميلادي زارت سفن العرب Kedahفي شبه الجزيرة الملايوية. ويقول RAYMUDO Geler : إن العرب السبئيين وصلوا بتجارتهم إلى الصين، وزاروا أماكن مختلفة في الفلبين مثل بلاوان، براجوا، منداناو، وكالامينتن، بسايا، مندورو، ولوزون⁽٤⁾.

٤ ـ وصول الإسلام إلى الفلبين :

يذكر مؤلف التاريخ السياسي والثقافي للفلبين أن المسلمين الذين وصلوا إلى جنوب شرق آسيا، وحملوا الدين الإسلامي معهم، كانوا من سلالة السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يبين أنه بمصاهرة الأسر الوطنية الحاكمة وبالحيل السياسية استطاعوا أن يستولوا على حكم الملايو ويوحدوا حكومتها في حكومة واحدة، وأخذوا ينشرون العقيدة الإسلامية بهمة ونشاط ملحوظين. حتى إذا كانت سنة ١٢٧٦م وجدنا الإسلام قد أصل جذوره في «ملقا» Malacca، هذه المدينة التي صارت قلعة للمسلمين، وعاصمة فيما بعد لامبراطورية «ماجاباهت الهندية».

ثم يستمر في حديثه فيقول : ولكن كتب المؤرخين المسلمين في الفلبين moro Chronicles تذكر أن الداعية العربي مخدوم أمين الله المنتصر في «ملقا» وصل إلى ساحل سولو أحد جزر الفلبين الجنوبية في سنة ١٣٨٠م، وبدأ ينشر الدين الإسلامي في الفلبين. وبعد عدة أعوام وفي سنة ١٣٩٠م قاد «راجابجندا» أمير منانكا بن سومطرة Mononkaben Sumatra جيشا من المسلمين فتح به «سولو» واستطاع بسهولة أن يستولي عليها، لأن جنوده كانوا يستعملون البنادق التي كانت تستعمل لأول مرة في الفلبين.

وفي سنة ١٤٥٠ م وصل إلى سولو أبوبكر المسلم القائد من Palembong Sumatra وتزوج Poramisuli بنت «راجابجندا»، بعد وفاة راجابجندا تولى أبوبكر الحكم، وأقام سلطنة سولو، وأعلن نفسه سلطانا عليها. وقد شكل السلطنة على نظام السلطنة العربية معطيا لنفسه كل

اختصاصات الخليفة، وكان نظام حكمه مستمدا من القرآن الكريم والتعاليم الإسلامية، وبذلك استطاع أن ينشر بين المواطنين عادات وتقاليد جديدة مستمدة من آداب الإسلام وتعاليمه. وقد توفي أبوبكر سنة ١٤٨٠م بعد أن حكم ثلاثين عاما حكما ناجحا، سعد المحكومون في ظله بتعاليم الإسلام السمحة.

أما جزيرة (منداناو) ثاني الجزر الكبيرة في الفلبين والتي يوجد فيها الآن أربع محافظات يقطنها المسلمون فقد وصل الإسلام إليها عن طريق الشريف المسلم كابنسون Kabungsuwon قائد Gohor. ففي سنة ١٤٧٥م استطاع كابنسون مع الجنود (السمل) الذين يسكنون فى جزيرة قريبة من منداناو أن ينزل إلى شاطئ محافظة (كوتاباتو)، وأن ينتصر على القبائل المستوطنة هناك التى كانت قد استعدت لحربه. وقد بدأت القبائل الأصلية تعتنق الدين الإسلامي بعد انتصاره عليهم، كما تزوج الشريف كابنسون أميرة من أهل البلاد تسمى Putntunina وصار الأمير كابنسون أول سلطان مسلم في منداناو.

بينما يذكر الأستاذ نجيب صليبي في كتابه «تاريخ سولو» ما ينفي استخدام القوة في دخول الإسلام إلى الفلبين، وأن انتشار التعاليم الإسلامية واعتناق السكان الأصليين لها قد سبق قيام الحكم الإسلامي، فيقول(٥): «وقد أثر في الفترة من سنة ١٣٨٠م إلى سنة ١٤٥٠م ـ أي في الدعوة إلى الإسلام ـ رجلان مشهوران، هما مخدوم وراجابجندا. ومخدوم كان قاضيا عربيا وأستاذ وصل إلى «ملقا» في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، حيث استطاع أن يجعل سلطان «ملقا» محمد شاه يعتنق الإسلام، ويقيم تعاليمه في أنحاء مملكة ملقا، واستمر تأثير مخدوم مشرقا إلى أن وصل سولو ومندانا وفي سنة ١٣٨٠ هـ، حيث زار جزر الأرخبيل، وجعل كثيرا من الناس يعتنقون الإسلام في كثير من الأماكن. وتدعى جزيرة «سيبوتو» أن بها قبره، ولكن الأماكن التي كان نجاحه فيها باهرا هي «بونسا»، حيث تمكن بمساعدة رؤساء القرى الذين اتبعوه أن يقيم بها مسجدا.

وقد نجح مخدوم في الوعظ والتبشير بالدين الجديد بين الناس الذين اشتهروا بالاستقلال في آرائهم، والعناد في ممارسة دينهم وعقائدهم وعاداتهم، كما هو معروف ومشهور عن أهل سولو، وقد ألقى نجاحه في التبشير بالإسلام في تلك البقاع ضوءا جديدا على تاريخ الإسلام في الفلبين، حيث غير الرأي السائد بأن الإسلام دخل الفلبين بالسيف، كما كان لتعاليمه تأثير

كبير على أهل سولو الذين يصعب التأثير عليهم لتمسكهم بحريتهم وشجاعتهم المنقطعة النظير، ولقد لقيت تعاليم الإسلام في أهل سولو تربة صالحة لها.

ويستمر مؤلف «تاريخ سولو» فيقول: إنه بعد عهد مخدوم هناك قدم إلى سولو أمير من مانتكابن* يسمى راجابجندا**، وقال: إنه وصل إلى سمونجا وباسيلان قبل وصوله إلى سولو، وإنه تابع الأصول الشمالية التي تقود من (برنيو) إلى (كاجيان سولو)، (وبانوتارن)، سمونجا). وعندما وصل إلى بونسا خرج أهل سولو ليقاتلوه كما هو متوقع عادة، ولكن سلسلة النسب تستمر لتوضح أنه كان مسلما، لذلك كفوا عن القتال ودعوه ليقيم معهم، كما أكرموا استقباله. وقد كان راجابجندا مصحوبا بوزرائه، ولاشك أنه قدم إلى بونسا ليقيم ويحكم، وكان مجيئه نوعا من الغارات الطبيعية التي وضح نجاحها. كما ذكرت (ترسيلا) Trsila مندانا وأن الشريف (كابنسون) قد وصل إلى مندانا وبسلام، كما وصل راجابجندا إلى سولو. وبذلك اتفق المؤرخون الوطنيون في سولو ومندانا على أن إقامة الحكم الإسلامي في سولو على يد «راجابجندا» وفي مندانا وعلى يد الشريف «كابنسون» كان بطريق سلمي، ولم يستخدم السيف أو القهر والقوة».

هذا ما يذكره مؤلف «تاريخ سولو» الأستاذ نجيب صليبي وما يذكره مؤلف التاريخ السياسي والثقافي للفلبين عن دخول الإسلام إلى الفلبين. بينما يذكر الدكتور قيصر أديب مخول في كتابه القيم عن «الإسلام في الشرق الأقصى» عدة نظريات عن دخول الإسلام إلى الفلبين، منها: النظرية التجارية لانتشار الإسلام (ص ٤٢ ـ ٤٦)، والنظرية التبشيرية (ص ٦٦ ـ ٧٥)، ثم دور الحركة الصوفية في انتشار الإسلام (ص ٧٨ ـ ٩٠)، والنظرية السياسية مع ذكر أثر العامل الاقتصادي فيها (ص ٩٨ ـ ١١٤)، ثم يتحدث عن النظرية العقائدية والنظرية الصليبية(٦) لدخول الإسلام إلى الفلبين (ص ١٢٢ ـ ١٤٩).

وهو محق عندما يقول في نهاية بحثه الجاد عن دخول الإسلام إلى الفلبين: إن كل نظرية بمفردها غير كاملة إلا أنها تكمل بعضها بعضا(٧).

ومن هنا نرى أن عمل التجار المسلمين والمبشرين والدعاة ـ كما هو ثابت على القبر الموجود في جبل داتو القريب من سولوَ والذي توفى صاحبه سنة ٧١٠ هـ الموافق ١٣١٠م قد

سبق إقامة الحكم الإسلامي، ومهد له الطريق منذ مطلع القرن الرابع عشر أو قبل ذلك إلى حين وصول راجابجندا سنة ١٣٨٠م، حيث وجد شعبا مسلما في حاجة إلى قائد، فكان هو القائد المنتظر الذي أقام حكما إسلاميا دون أن تراق فيه دماء، وإنما هو إقامة لحكم إسلامي بين قوم مسلمين.

ومن سولو ومنداناو انتشر نور الإسلام، وعمت تعاليمه بين البسايا وغيرها من جزر الفلبين، كما تأصل في جزر مندور وباتنجس، وقامت إمارات وممالك في وسط وشمال الفلبين. ففي سنة ١٥٧١م كانت مانيلا عاصمة الفلبين الآن يوجد فيها مملكة إسلامية تحت قيادة راجا سليمان ـ ملك فلبيني مسلم ـ كما كانت في لوزون عند نهر Pasing River Tondo مملكة إسلامية أخرى تحت حكم الملك المسلم(٨).

٥ ـ وصول الأسبان إلى الفلبين وبداية مقاومة المسلمين لهم :

لقد بدأ وصول الأسبان إلى الفلبين في ١٧ مارس ١٥٢١م حين وضع (ماجلان) قدمه على أول أرض في الفلبين، وكان ذلك في جزيرة غير مسكونة جنوب جزيرة سمر تسمى Homomhon وقد حضر إلى الجزيرة بعض الفلبينيين، فأعطاهم ماجلان بعض الهدايا، وأعطاه الفلبينيون بعض الأطعمة، وفي ٢٥ مارس أبحر ماجلان نحو الجنوب الغربي، فوصل إلى جزيرة ليماساوا في ٢٨ مارس، حيث وجد مملكة تحت حكم راجا Kolombo، واستطاع ماجلان أن يتحادث مع الملك بواسطة عبدله مترجم اسمه Enrigue من الملايا، وقد أعلن كلاهما صداقته للآخر. وفي نفس اليوم أعلنا اتفاقا دمويا بينهما، وهذا أول اتفاق فلبيني أسباني في التاريخ.

وبهذه المناسبة أقام الأب Pedro de Valderroma حفلة على شاطئ جزيرة Limasawa حضرها ملك Kolombo وماجلان ورجاله لكي يعلنوا هذه الحادثة التاريخية، وهي وصول الأوربيين إلى الفلبين، وقد زرع ماجلان شجرا على الجبل وأقام صليبا وانحنى له، وكذلك فعل الملك، وقد ساعد جنود الأسبان رجال الملك في حصاد أرزه، وبعد ذلك صاحب الملك الحملة إلى جزيرة سيبو. وفي ٧ أبريل ١٥٢١م وصل ماجلان إلى شاطئ جزيرة سيبو، واستعد لخوض معركة حربية، فأطلق مدافعه التي سببت ذعرا وخوفا شديدا للناس، وأرسل ابنه مع

المترجم Enrigue يقول لملك سيبو الذى كان رئيسا لثمانية قبائل (٢٠٠٠) مقاتل بالرماح: إن سيده قائد لأكبر ملك في الدنيا، وأنه حضر لكي يكتشف Mulucha ويريد أن يزوره لما سمعه عنه من سيرة طيبة، وليشتري طعاما من التجار. فأظهر الملك رغبته في استقباله، ولكن بشرط أن يدفع ماجلان الضريبة التي تدفعها سفن التجار الذين يدخلون الميناء، وبعض هذه السفن لدول أجنبية مثل سيام.

ولكن ماجلان رفض أن يدفع الضريبة، وتدخل (راجاكولامبو) ونصح ملك سيبو، وبين له الرغبة الطيبة للأسبان، فتنازل الملك عن طلب الضريبة، وترك ماجلان ينزل إلى شاطئ «سيبو» وفي ذلك اليوم احتفل أهل سيبو وماجلان ببداية الصداقة بينهما، وكانت سيبو في ذلك الوقت مدينة اقتصادية لها صلات تجارية مع الجزر الأخرى ومع شرق الهند وسيام والصين، كما كان أهلها يرتدون الملابس والحلي ولهم منازل ويحكمهم قانون، ولهم صناعة وتجارة وميزان وقياس، ويستخدمون كثيرا من آلات الموسيقى والطرب مما يدل على تقدمهم الحضاري...

وقد بذل ماجلان جهدا كبيرا لكي ينشر المسيحية بينهم، وبين لهم مزاياها، وبسرعة اعتنق ملك سيبو وأتباعه المسيحية، وتنصر في ١٤ أبريل سنة ١٥٢١ حوالي خمسمائة شخص من أهل سيبو، وكان من بينهم الملك وأسرته وكذلك راجا Kalambo. وقد أقيم صليب كبير على الشاطئ، فبلغ عدد المتنصرين ثمانمائة شخص من رجال ونساء. وبعد عدة أيام طلب ماجلان من أهل سيبو أن يحرقوا أصنامهم كما وعدوا عندما تنصروا، ولكنهم رفضوا ذلك لأنهم مازالوا يقدمون القرابين لأجل أن يشفي الصنم أخا الملك الذي يعد الرجل الشجاع الحكيم في الجزيرة والذي كان قد شعر بمرض خطير منذ أربعة أيام. ولكي يحمي ماجلان عقيدة المسيحيين الجدد ذهب إلى الرجل المريض ونصره وأسرته وعالجه، وبعد خمسة أيام من العلاج شفي الرجل المريض، ففقد الناس ثقتهم في الأصنام وأشعلوا فيها النار.

لابولابو يقاوم الأسبان ويتحداهم :

وبوحي من النجاح الأولي الذي لقيه ماجلان في سيبو أمر كل القبائل في سيبو والجزر المجاورة أن يعترفوا بملك سيبو Homaban كملك لهم، ويقبلوا يده علامة على الطاعة، ولكن حاكما فلبينيا مسلما شجاعا وهو لابولابو ملك Macten- وهي جزيرة صغيرة بجوار سيبو - رفض

بإباء أن يفعل ذلك، وقاوم الأسبان، فأرسل ماجلان رجاله، وأحرقوا القرى هناك، ولكن ذلك لم يخف لابولابو أو يحمله على التسليم والخضوع. وفي ٢٦ أبريل سنة ١٥٢١م جاء ابن الملك Zula وهو ملك آخر في جزيرة Macten إلى سيبو بهدايا وبرسالة يطلب فيها المساعدة ضد لابولابو، فوعده ماجلان بالمساعدة. وفي فجر يوم ٢٧ أبريل سنة ١٥٢١م هاجم ماجلان جزيرة (مكتن) بقوة مكونة من ستين فارسا أسبانيا في ثلاث سفن وألف مقاتل من حلفائه من أهل سيبو نقلهم في ثلاثين سفينة محلية، وأحب ماجلان أن يظهر شجاعة جنوده للملك وأهل سيبو، فقال لهم: امكثوا في سفنكم وانظروا كيف يحارب الأوربيون. وقبل أن يبدأ الحرب أرسل رسالة إلى لابولابو ليعطيه فرصة أخيرة للسلام، وطلب منه الاعتراف بسيادة الأسبان ودفع الجزية، فأجاب لابولابو بجرأة: إنه لا يخضع لأي ملك، ولا يدفع الجزية لأي قوة. وإذا كان العدو يملك رماحا فنحن نملك رماحا أيضا وشعلا نارية.

وقد أخذ ماجلان من رجاله تسعة وأربعين رجلا، وترك أحد عشر رجلا يحرسون السفن. وعندما وصل الغزاة إلى الشاطئ رأوا لابولابو مع جنوده ينتظرون عدوهم وقد اصطفوا ثلاثة صفوف، فأطلق جنود ماجلان نيرانهم أولا، ولكن بنادقهم لم تظهر تأثيرا في أهل (مكتن) الذين هبوا مسرعين ليحموا حريتهم ووطنهم، وصاحوا صيحة الحرب، وأشرعوا رماحهم وسهامهم النارية.

موت ماجلان :

وقد أمر ماجلان بعض رجاله بحرق بيوت أهل (مكتن) ليخيفهم فيذعنوا له، ولكن ذلك أتى بنتيجة عكسية، لأنهم عندما رأوا منازلهم تحرق ضاعفوا شجاعتهم، وهاجموا المغيرين بجرأة وبسالة أدت إلى رجحان كفتهم فلما رأى ماجلان أن النجاح ليس في صفه أمر رجاله بالانسحاب، وأحس بالهزيمة عندما اشتد الهجوم من كل جانب، فوقف ماجلان على الشاطئ، وحارب بشجاعة ليحمي رجاله في عملية الانسحاب إلى السفن، ولكن سهما مسموما جرحه في فخذه اليمنى، وطارت قبعته من على رأسه، وجاءت حربة فأصابته في وجهه، فحاول أن يأخذ سيفه فعجز عن ذلك لأن حربة أخرى جرحته في ذراعه اليمنى، وجاء رجل من مكتن وقطع رجله اليسرى فسقط على الأرض، وانقض عليه آخر وقتله بحربته وسيفه. وبذلك قتل

(ماجلان) كما قتل معه ثمانية من الأسبان وأربعة من أهل سيبو، وكانت خسائر أهل مكتن خمسة عشر رجلا.

لابولابو هازم ماجلان :

وظهر يوم المعركة أرسل ملك سيبو إلى أهل مكتن رسالة عارضا عليهم أي ثمن لكي يسلموا إليه جسد ماجلان، فأجاب أهل مكتن أنهم سوف لا يسلمون إليه ماجلان ولو دفع كل ثمين في العالم، ولكنهم سوف يبقون جسده للذكرى. وحتى الآن لا أحد يعرف أين جسد ماجلان، وإن كان يوجد الآن متحف لذكرى مقتل ماجلان قريبا من المكان الذي قتل فيه. وقريبا من هذا المتحف يوجد متحف آخر في قرية Opon Mactan يحمل ذكرى لابولابو البطل الشجاع المسلم هازم ماجلان.

إن انتصار لابولابو في مكتن كان صدمه وكارثة للأوربيين، فهذا أول نجاح للدفاع عن استقلال الفلبين ضد الاستعمار الغربي، وأول نصر سجلته قوة المقاومة الفلبينية المسلمة على قوى الغرب بفضل لابولابو أول بطل يسطع في التاريخ الملايوي، ويهزم ماجلان هازم البحار.

وبعد موت ماجلان اختار رجاله اثنين خلفا له. أما ملك سيبو وسكانها فقد فقدوا ثقتهم في الشجاعة النادرة التي كانوا يرونها للرجل الأبيض، وحتى الأسبان أنفسهم الذين يفاخرون بشجاعتهم قد تخلوا عن هذا الفخر الكاذب.

٦ ـ تتابع حملات الأسبان لاحتلال الفلبين :

بعد موت ماجلان سنة ١٥٢١م آثر الأسبان الانسحاب والعودة إلى بلادهم مكللين بذل الهزيمة والخزي، ولكنهم حاولوا العودة لاحتلال الفلبين عدة مرات في سنة ١٥٢٥م وفي سنة ١٥٢٧م وفي سنة ١٥٤٢م(٩)، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك إلى أن وصل القائد الأسباني «ليجزبي كانونا» في مارس ١٥٦٥م على رأس الحملة الحربية الرابعة، وكانت مجهزة بالمدافع المحمولة على عجلات، واستطاع أن يخضع ملكي جزيرة بهول Gala, Katuon، ويوضح لهما أنه ليس كالبرتغاليين، وأنه إنما جاء قاصدا السلام ولا يبغي سلبا أو نهبا أو إفسادا في الأرض. وبذلك نجح فى خداعهما، وتمكن من أن يعلن معاهدة صداقة معهما.

هزيمة سيبو وإقامة الأسبان فيها:

وقد أراد القائد الأسباني Legazpi أن يتخير مكانا صالحا لإقامة مستعمرة تكون مقرا مأمونا للحملة الأسبانية، فأرسل بعثة استكشافية إلى جزيرة سيبو، وبعد دراسة الأوضاع فيها عادت البعثة وأعلنت صلاحية المكان ليكون مقرا للحملة، لتوفر الطعام فيها ولما يتمتع به من ميناء طبيعي.

فتحركت الحملة من جزيرة بهول قاصدة سيبو، فوصلتها في ٢٧ أبريل سنة ١٥٦٥م، حيث كان أهل سيبو بقيادة ملكهم ـ Topas ابن الملك Homaban الذي كان ملكا أثناء حملة ماجلان ـ قد اجتمعوا على الشاطئ في ملابس الحرب ليقاوموا الغزاة البيض. وقد ذهب الأب Urdoneta تحت علم الهدنة والسلام إلى الشاطئ ليتفاوض مع الملك Topas، ولكن الملك رفض أي محادثة، وأصر على الدفاع عن وطنه ضد الغزاة. فنزل جنود الأسبان إلى الشاطئ، واشتبكوا في معركة حامية مع أهل سيبو، تغلب الأسبان عليهم فيها، فانسحب أهل سيبو إلى الجبل تاركين مملكتهم وبيوتهم تأكلها النار.

وفي ٤ يونية سنة ١٥٦٥م استطاع القائد الأسباني أن يعقد معاهدة صداقة مع أهل سيبو اعترفوا له فيها بسيادة أسبانيا عليهم، وبدفع ضريبة للأسبان مقابل حمايتهم من أعدائهم، وبإقامة علاقة تجارية بينهم وبين أسبانيا.

وبذلك تفرغ القائد الأسباني لبناء مستعمرة أسبانية في سيبو لتكون حصنا منيعا للأسبان، كما حفر بئرا تزودهم بالماء النقي، وأقام كنيسة للقسس، وبيوتا للجنود الأسبان وسمى هذه المدينة (المدينة المقدسة)، وتسمى هذه الكنيسة التي بناها كنيسة أغسطين، وقد قامت بعد ذلك حروب طاحنة بين الأسبان وبين المسلمين في الفلبين استمرت عدة قرون.

٧ ـ أسباب الحرب بين الأسبان وبين المسلمين (المورو) :

إن الحرب الطاحنة التي وقعت بين الأسبان وبين مسلمي الفلبين تعد من الحروب البشعة الشنيعة، ومما أدى إلى شناعتها أنها كانت حربا دينية استعمارية بين الهلال والصليب كما يقولون. حتى إن الأسبان حملوامسيحيي الفلبين على قتال إخوانهم مسلمي الفلبين، كما كانت

كل قوى الأسبان هناك معدة لقتال المسلمين الذين صمدوا يحاربون فى منداناو وسولو أكثر من ثلاثة قرون، والمسلمون يحاولون خلال هذه الحروب أن يحموا أنفسهم، ويحققوا الحرية لدينهم وثقافتهم من أن يعتدي عليها الأسبان، أو يتمكنوا من استعمار بلادهم، فهي حرب صليبية وتعتبر امتدادا للحرب التي سنها الأسبان المسيحيون على المسلمين في أسبانيا (الأندلس) حتى أخرجوهم منها.

وقد أطلق الأسبان على المسلمين في الفلبين كلمة مورو Moro بمعنى المسلمين من الكلمة اللاتينية Mourus، ويطلقها الأسبان قديما على المسلمين في أسبانيا وشمال إفريقيا. وأخيرا أطلقوها على المسلمين في الفلبين. والمورو أو المسلمون هم الذين يسكنون جنوب الفلبين، ويقسمون إلى:

(١) **ماجداناو** : الذين يسكنون كوتاباتو.
(٢) **سمال** : الذين يسكنون على شاطئ سمونجا والجزر القريبة سمال سمونجا وتاوي تاوي.
(٣) **مرناو** : الذين يسكنون حول بحيرة لاناو .
(٤) **سانجل** : (Sangils) الذين يسكنون خليج داباو .
(٥) **يكن** : (Yakans) الذين يسكنون باسيلان .
(٦) **هلوانو** : (Tausugs) الذين يسكنون سولو .

ويمكن أن نرجع أسباب الحرب بين الأسبان وبين المسلمين إلى ما يأتي:

١ - الخصومة التي يراها المسيحيون بين المسيحية وبين الإسلام، ومن هنا اتصلت الحرب واستمرت عندما حضر الأسبان بصليبهم إلى سكان الفلبين الذين لا يدينون بالصليب.

٢ - دفاع المسلمين عن أرضهم عندما جاءت حملات الأسبان إليها ليحموا أرضهم ويحافظوا على حريتهم المحبوبة لهم، ولذلك دافعوا بدون خوف إلى الآن عنها.

٣ - حب مسلمي الفلبين للمغامرات الجريئة وممارسة الحرب منذ فجر التاريخ، وهم يحبون الحرب بحثا عن المجد خلف أفق البحار(١٠).
ولاشك أن فى ذلك مبالغة في حبهم للحرب ..

ولعل مما يوضح ذلك ويضيف إليه أسبابا أخرى ذلك الكتاب الذى أرسله الحاكم الأسباني للفلبين (دكتور فرانسيسكودي ساندي) إلى قائد الحملة الأولى على سولو الضابط

(استيبان رود ريجوزفيجورا) سنة ١٥٧٨م، ويقول فيه: «إنك ستتوجه بهذه الحملة إلى برنيو وسولو لتتمكن من إخضاع الناس ورئيسهم في سولو لطاعة الملك ـ أي ملك أسبانيا ـ وعليك أن تساومهم في مقدار الضرائب التي يدفعونها على أن يكون المدفوع باللؤلؤ مثل ما يؤدون هذه الضرائب لملك برنيو ـ كما عليهم أن يقصروا التجارة علينا ولا يبيعوا أو يبتاعوا من غيرنا. وتجارنا سيذهبون إليهم بما يحتاجون من التجارة الخارجية، وعليهم أن يبينوا ما يحتاجون إليه منها.

فإذا لم يطيعوا أوامرك فعاقبهم ، وبين لهم أن واجبهم هو زراعة الأرض وإظهار ما تنتجه، كما تأمرهم بألا يسمحوا لوعاظ المسلمين بتعليمهم لأن الدين المحمدي شر ومزيف، والمسيحية فقط هي الدين الصحيح، وعليك أن تبين لهم أن غرضنا هو تنصيرهم.

ولذلك عليهم أن يسمحو لنا بالتبشير بالدين المسيحي. وعليك أن تقبض على العلماء المسلمين وتحضرهم إلي، وأن تحرق المساجد والمدارس التي يعلم فيها العلماء، وأن تحرم بناءها ثانيا.

كما تأمرهم بألا يخرجوا من جزيرتهم للتجارة، وأن تقبض على سفنهم وتصادر ما تحمل من تجارة وذخيرة.

وأنذرهم إذا لم يتعاونوا معنا من الآن فإنك ستقضي عليهم. فإن فروا إلى الجبال فعليك بحرق منازلهم وتقطيع شجرهم.

ومن هنا ندرك أن الحاكم ساندي يريد :

١ ـ أن يكون أهل سولو تابعين للأسبان وتحت وصايتهم .
٢ ـ أن يحصل منهم ضريبة يدفعونها باللؤلؤ .
٣ ـ أن تكون تجارة سولو محتكرة للأسبان .
٤ ـ أن يعاقب سلطان سولو لأنه عاون سلطان برنيو .
٥ ـ أن يستولي على الآلات الحربية التي لدى المسلمين وعلى سفن النقل ماعدا سفن الصيد.
٦ ـ أن يصير أهل سولو مسالمين مزارعين للأرض .

٧ ـ أن يتنصلوا من العقيده الإسلامية وأن يصيروا مسيحيين.

وقد وجه الملك وفيليب الثاني ملك أسبانيا إلى الحاكم الأسباني للفلبين خطابا يوضح فيه مقصد الأسبان من هذه الحرب، ويوضح هدف الأسبان منها، ويقول فيه: «لقد سمحنا لك بأن تستعبد المسلمين، وأن تستولي على ممتلكاتهم وتصادرها، ويمكنك أن تجعلهم عبيدا لكم، خاصة إذا أرادوا أن يبشروا بدينهم المحمدي (الإسلامي)، أو يحاربوك أو يحاربوا الهنود رعايانا».. وقد أجابه الحاكم بخطاب يطلب فيه المدد لأجل القضاء على الدين المحمدي الإسلامي(١١).

ومن هنا يتضح لنا أن الحرب التي شنها الأسبان على المسلمين في الفلبين كانت حربا صليبية يبغون بها القضاء على الإسلام هناك، ثم استعمار البلاد واستغلال ثرواتها ونهب خيراتها. وقد شجع الأسبان على مواصلة الحرب ما خدعوا به أنفسهم من اتصافهم بالشجاعة، كما غرهم انتصارهم السريع على سكان البسايا ولوزون في الشمال الذين لم يكونوا على درجة كبيرة من النظام بخلاف المسلمين الذين كانوا يقطنون الجنوب في سولو ومنداناو، حيث هب المسلمون في سولو ومنداناو ليدافعوا عن دينهم وعن حريتهم الوطنية التي لا يجدون أغلى منها، ويبذلون في سبيلها دماءهم ويسترخصون أرواحهم حفاظا عليها ودفاعا عنها، وأن يقدموا في سبيل ذلك كل ما يملكون..

بداية الحرب :

بعد أن استقر الأسبان في سيبو بدأوا يوسعون نفوذهم الاستعماري المسيحي فيها، فقامت معركة في سنة ١٥٦٩م قريبا من سيبو بين الأسبان وبين المسلمين من هولو وبرنيو، كما قامت معركة أخرى في ١٥٧٠م بين الأسبان وحلفائهم من البسايا وبين المسلمين في جزيرة مندورو، وقد تمكن الأسبان في هذه المعركة من التغلب على المسلمين وحرق قراهم والاستيلاء على كثير من متاعهم وحليهم وذهبهم.

٨ ـ القضاء على المملكة الإسلامية في مانيلا بجزيرة لوزون :

لقد شجع هذا الانتصار القائد الأسباني ليجزبي على أن يستمر في توسيع نفوذه نحو

الشمال في جزيرة لوزون حيث تقع مملكة مانيلا الإسلامية ومملكة تندو الإسلامية، وهما يعدان من أقوى الممالك الإسلامية في الشمال، وكان يحكم الأولى الملك «راجاسليمان»، كما كان يحكم الثانية عم راجاسليمان الملك «راجالاكان دولا».

وقد وجه القائد الأسباني إلى هاتين المملكتين حملة من ستمائة جندي من البسايا الفلبينيين ومائة وعشرين جنديا من جنود الأسبان، حيث توجهت من جزيرة بناي إلى مانيلا في مايو سنة ١٥٧٠م.

وكما هي عادة الاستعمار في خداعه ومكره نزل قائد الحملة جايتي Gaiti إلى الشاطئ لكي يتفاوض مع الملك راجاسليمان وعمه، زاعما لهما أنه جاء لصداقتهما، وبدأوا في عقد اتفاقية بينهم، غير أن راجاسليمان رفض أن تتم الاتفاقية عندما تبين له أن الصداقة مع الأسبان تعني دفع الضريبة والعبودية لأسبانيا.

ولذلك ثار الملك راجاسليمان معلنا أنه سيقاتل بدلا من أن يدفع الضريبة ويقبل الحماية الأسبانية.

وقد اشتعلت نار الحرب عندما أطلق القائد الأسباني نيران مدافعه على سفينة لكي يدعوها إليه، فظن الملك راجاسليمان أن المملكة قد احترقت فبدأت الحرب بشراسة ووحشية، ولكن تغلب الأسبان المجهزون بأسلحتهم ومعهم جنود البسايا على جنود راجاسليمان، واضطر راجاسليمان إلى الانسحاب تاركا منازله تشتعل فيها النار بعد أن استشهد من رجاله مائة شهيد وأسر ثمانون منهم بعض الصينيين واليابانيين، كما غنم الأسبان حلي راجاسليمان الشهيرة وبعض المدافع والسفن الحربية، ولكن رئيس الحملة لم يستقر في مانيلا طويلا خوفا من هبوب العواصف مع احتمال رجوع راجاسليمان لكي يسترد مملكته، فرجع إلى جزيرة بناي فخورا بهذا الانتصار العظيم والغنيمة الثمينة.

انتقال القيادة الأسبانية من سيبو إلى مانيلا :

سر القائد العام للحملة الأسبانية بالانتصار على راجاسليمان، ولذلك قرر نقل مقر القيادة من سيبو إلى مانيلا.

وفي أبريل سنة ١٥٧١م تحركت الحملة الثانية بقيادة القائد العام (ليجزبي) مبحرة من جزيرة بناي بأسطول مكون من سبع عشرة سفينة عليها مئتان وثمانون جنديا أسبانيا وعدة مئات من جنود البسايا بالإضافة إلى قوات الحملة السابقة، واتجهت كل هذه القوة إلى خليج مانيلا حيث قابل (لاكان دولا) ـ حاكم مملكة تندو وعم راجاسليمان ـ الحاكم العام الأسباني في سفينة شراعية ورحب به، فقابله الحاكم الأسباني بلطف، ووعده أنه سوف يعفو عن راجاسليمان لمقاومته للقائد الأسباني في العام السابق. ولكن شخصا خائنا يدعى «ديهندول» ذهب إلى القائد الأسباني وأخبره أن راجاسليمان يستعد للحرب. فاتجه ليجزبي إلى مانيلا وعندما ظهرت السفن الأسبانية قرب مملكة راجاسليمان حرق راجاسليمان الحصن، وانسحب عابرا نهر باسج إلى مملكة تندو، وبذلك نزل ليجزبي إلى مانيلا وتولى الحكم فيها.

محاولة راجاسليمان استرجاع ملكه :

لم يتنازل راجاسليمان عن مملكته سلميا وبدون قتال، بل قاتل إلى آخر قطرة من دمه بكل شجاعة وبسالة، وقدم روحه في سبيل وطنه، وآثر الموت الشريف على الحياة الذليلة حياة العبودية والتبعية. فبينما كان القائد العام الأسباني مشغولا بإعادة بناء مانيلا والعمل على استقرار حكمه فيها جمع راجاسليمان المحاربين من رجاله في القوارب عند خليج بجوار قرية قريبة من مانيلا تسمى Novatas، واستعان بحكام الأقاليم، فلبى نداءه للحرب دفاعا عن حرية الوطن داتو (ماكابب) حاكم (هاجانوي) وداتو (برانجايس) حاكم (بمبنجا).

وفي يونية سنة ١٥٧١م زحف راجاسليمان بقواته البحرية إلى الشاطئ الشمالي لخليج مانيلا، وتقابل مع القائد الأسباني في أقتال بنكوساي، حيث دارت رحى الحرب الضروس في هذا النهر، وقاتل الأسبان بأسلحتهم الحديثة يعاونهم حلفاؤهم من البسايا حتى كسبوا المعركة، وسقط راجاسليمان شهيدا في ميدان الشرف دفاعا عن حرية وطنه، كما استشهد معه ثلاثمائة جندي وأسر الباقى من رجاله بعد المعركة، وكان من الأسرى ابنه وابنا أخت الملك لاكان دولا..

وباستشهاد راجاسليمان بطل مانيلا المسلم وهزيمته في الموقعة في يونية سنة ١٥٧١م أعلن سقوط المملكة الإسلامية في مانيلا، وفقدت مانيلا حريتها، وصارت المقر الرئيسي للاستعمار

الأسباني، حيث بنى الأسبان فيها كنيسة للقسس وقصرا للحاكم الأسباني ومائة وخمسين منزلا للمستعمرين الأسبان، كما أقيم حصن راجاسليمان ثانيا، وهكذا أقيمت مدينة أسبانية على حطام المملكة الإسلامية في مانيلا.

وبنهاية هذه الحرب لم تقم للمسلمين قائمة بعد ذلك في أكبر جزيرة في شمال الفلبين وهي جزيره لوزون.

١ ـ محاولة الأسبان القضاء على المسلمين في جنوب الفلبين :

استطاع الأسبان أن يقضوا على المسلمين في شمال الفلبين، ويزيلوا منها المملكة الإسلامية. وبعد سبع سنوات من قضائهم على المسلمين في لوزون واستقرارهم في مانيلا راودهم الأمل في أن يقضوا على سلطان المسلمين في جنوب الفلبين كما قضوا عليه في شمال البلاد، وبذلك يتحقق لهم امتداد استعمارهم إلى جميع جزر الفلبين، وتختفى الراية الإسلامية منها، ولا يرتفع فيها إلا الراية المسيحية، ولذلك تتابعت حملات الأسبان بضراوة وعنف على المسلمين في الجنوب.

ولكن المسلمين قابلوا هذه الحملات بإيمان ثابت وقلب غيور على حماية بلادهم ودينهم وجميع مقدساتهم، واستمرت الحرب الضروس أكثر من ثلاثة قرون مملوءة بالدماء والأشلاء لإرضاء نزعات دينية مسيحية حاقدة على الإسلام والمسلمين وموغلة في التعصب للقضاء على المسلمين وطمس التعاليم الإسلامية.

وقد تتابعت الحملات الأسبانية المجهزة بالأسلحة الحديثة التي وجهوها نحو المسلمين في الجنوب، حيث اعتصم المسلمون بدينهم وتمسكوا بعقيدتهم، وكتبوا بدمائهم الطاهرة الزكية أعظم وأجل صفحات مضيئة في التاريخ الفلبيني، والتي تشهد بحبهم للحرية واستمساكهم بها وإيثارهم الموت على أن تستعمر بلادهم أو يعتدى على عقيدتهم الصحيحة في صدق الدين الإسلامي الحنيف الذي يدينون به.

تتابع الحملات على الجنوب وموقف المسلمين :

أ ـ ففي سنة ١٥٧٨م أرسل القائد الأسباني العام حملة أسبانية تحت قيادة الضابط

(استيبان دي فيجورا) لتهاجم مدينة هولو، فوصلت إليها في يونية سنة ١٥٧٨م، وتولى السلطان (محمد حليم بنحيرن) سلطان سولو قيادة المسلمين للدفاع عن المدينة بحماسة وشجاعة، ومع أن الأسبان استطاعوا أن يستولوا على جزء من المدينة إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء عليها تماما نظرا لما قام به المسلمون من مقاومة عنيدة، وأقسم السلطان على الانتقام من الغزاة فأعلن حربا شاملة ضد الأسبان الذين آثروا الانسحاب من هولو.

ب - وفي سنة ١٥٩٦م حصل الضابط (دي فيجورا) من الحاكم الأسباني العام على حق مطلق لاستعمار جزيرة (منداناو)، وأن يكون الحاكم الأسباني عليها، ومن ثم اتجه من جزيرة (إيلوايلو) في فبراير ١٥٩٦م بحملة حربية كبيرة مكونة من ألف وخمسمائة جندي فلبيني ومائتين وأربعة عشر جنديا أسبانيا واثنين من القسس قاصدا جزيرة (منداناو)، واستطاع أن ينزل الحملة في Riogrande في كوتاباتو، ومن هناك سار إلى Buhayen حيث دارت بين الحملة وبين المسلمين معارك حامية ومناوشات مرة متتالية، فقاد المسلمين فيها داتو (Silanga)، واستطاع (Ubal) أخو القائد المسلم أن يقتل قائد الحملة الأسبانية في إحدى هذه المناوشات. ولكن الحملة الأسبانية عززت بقوة أخرى من مانيلا لتتابع مشروعها الاستعماري في منداناو.

غير أن المسلمين استطاعوا مع حلفائهم أن يقذفوا بالأسبان في البحر، واضطر القائد الأسباني (ronguillo) أن يحرق الاستحكامات والحصون التي أقامها الأسبان قريبا من كوتاباتو، وانسحب إلى (Caldra) قريبا من سمونجا حيث بنى حصنا فيها، وكان بناء هذا الحصن نتيجة الحملة الأولى لاستعمار منداناو وبعد خيبة أملهم في أن يحتلوا مدينة (كوتاباتو).

جـ - تحرك المسلمين للثأر من الأسبان المعتدين :

أثار غزو الأسبان للأرض الإسلامية في كوتاباتو هياج المسلمين في منداناو وسولو، وحرك عداوتهم وحقدهم، وأشعل نار غيظهم ضد المعتدين، فأعلنوا الحرب والجهاد الديني ضد الأسبان، ووضعوا خطة لتخريب كل المدن والقرى الأسبانية المسيحية في جزيرة لوزون وبسايا. وقد تحدث المؤرخون الأسبان بتعصب شديد بعيد عن العدالة والنزاهة عن هذه الحروب بين المسلمين وبين الأسبان.

ففي سهر يوليه سنة ١٥٩٩م جهز اثنان من أمراء المسلمين Silanga Saleh حمله مكونة من ثلاثة آلاف مسلم، أقلعت بهم خمسون سفينة للانتقام من الأسبان في الشمال، حيث تمكنوا من سلب ونهب قرى السواطئ في جزر (بناي) و (نجروس) و (سيبو)، وأثاروا الرعب في تلك الأماكن، وأحرقوا المنازل والكنائس، وأسروا الرجال والنساء والأطفال، وقتلوا كثيرا من أهلها بقسوة وعنف، وانتهكوا حرمتها جزاء وفاقا لاعتداء الأسبان على بلادهم.

ثم قاموا بحملة أخرى سنة ١٦٠٠م عدتها سبعون سفينة وأربعة آلاف مقاتل للانتقام من الأسبان، ولكن لم يحالفهم النجاح في تلك الحملة مثل ما حالفهم في الحملة الأولى.

د ـ وقد أثارت أخبار تحرك المسلمين بغاراتهم على الجزر السابقة للثأر من الأسبان حفيظة الأسبان وخاصة الحاكم الأسباني العام في مانيلا، فأخذ يرسل الحملة تلو الأخرى للهجوم على أراضي المسلمين في الجنوب، وكانت أولى هذه الحملات بقيادة قائد محنك هو Juan Cablinato وبقوة تعدادها مئتا جندي أسباني وأعداد كثيرة من جنود الفلبين المسيحيين، وقد توجهت تلك الحملة إلى هولو في فبراير سنة ١٦٠٢م، وحاولت أن تحتل المدينة، وضربت حولها الحصار ثلاثة أشهر، ولكن المسلمين صمدوا لتلك الحمله، مما اضطر القائد الأسباني إلى فك الحصار والعودة من حيث أتى.

وقد تتابعت الحملات الأسبانية بعد ذلك على هولو بغية الانتصار على المسلمين فيها وحملهم على اعتناق المسيحية، وقد بلغ عدد تلك الحملات من سنة ١٥٧٨م إلى سنة ١٨٧٦م أكثر من ست عشرة حملة، كلها كانت تبوء بالفشل سوى الحملة الأخيرة التي تمكنت من احتلال هولو. كما وجه الأسبان حملات أخرى إلى منداناو. وقد ساعد الأسبان في قيامهم بتلك الحملات استيلاؤهم على مدينة سمونجا وجعلها مركزا استراتيجيا لهم، فسهل لهم الإغارة منه على المسلمين في هولو ومنداناو.

ومن الحملات التي استطاع الأسبان أن ينتصروا فيها على المسلمين ويحققوا بعض النصر الحملة التي توجهت مرة إلى منداناو ومرة إلى هولو بقيادة القائد الأسباني.

كركورا وقدرات :

في سنة ١٦٣٧م أسند إلى القائد الأسباني كركورا القيام بحملة على المسلمين في لاناو، وفي وسط تقديس القسس وصلوات المسيحيين في مانيلا ترك قائد الحملة الشاطئ بأسطول مجهز تام الاستعداد للقتال، وتوجه إلى منداناو حيث استراح فترة قصيرة في سمونجا، ثم توجه إلى (لاميتن) الحصن الحصين للمسلمين الذي يقع قريبا من بحيرة لاناو، فتصدى له المسلمون تحت قيادة القائد المسلم الشجاع (قدرات)، وبعد معركة عنيفة أضطر (قدرات) إلى التراجع إلى حصن إليهان Ilihan، فتقدم كركورا بجنوده إليه، ورغم قتال وتضحيات المسلمين الأشاوس من الرجال والنساء والأطفال وعظم الخسارة لكل من الفريقين، ومع دفاع المسلمين عن موقعهم دفاع الأسود الضاربة التي اغتيل عربنها، واستشهاد كثير من المسلمين بشجاعة من أجل إيمانهم ووطنهم رغم كل ذلك فقد دارت الدائرة على المسلمين، وعندما ظهرت هزيمة المسلمين استطاع القائد المسلم قدرات بذراعه المصابة برصاص العدو أن يجد طريقه وسط جنود الأسبان ويهرب. أما زوجته الشجاعة فقد حضنت ابنها بقوة، ودفعت بنفسها وسط جنود الأسبان، ثم قذفت بنفسها من ساهق الجبل وأفلتت من الأسر.

حملة كركورا على هولو :

وفي نفس العام أي سنة ١٦٣٧م رجع كركورا القائد الأسباني إلى سمونجا حيث أعد حملة أخرى كبيرة مكونة من ثمانين سفينة عليها ألف جندي فلبيني وستمائة من جنود الأسبان، حيث هاجم هولو في مطلع عام ١٦٣٨م، وتصدى له السلطان (بنجسو) Bungsu مع حلفائه باسيلان وماكاسر (Macassar) بقوة مكونة من أربعة آلاف مقاتل من المسلمين.

وبعد ثلاثة أشهر كاملة من الحرب الضروس والمسلمون يحمون مدينتهم بنجاح ويدافعون عن وطنهم ويقدمون الشهداء من أبنائهم، وبعد قتال دموي شرس سقطت مدينة هولو في أبريل سنة ١٦٣٨م في أيدي الأسبان. ولكن السلطان استطاع أن ينجو من المعركة ويهرب من الأسبان، أما السلطانة فقد أخذت أسيرة وتسمى Tuan Baloca، وقد خسر المسلمون في هذه المعارك مئات الشهداء والأسرى.

وقد حاول قائد الحملة تتبع السلطان والأمراء فى سولو وجزر الأرخبيل ولكن أهل سولو حاولوا أن يغيروا على جزر البسايا انتقاما من الأسبان.

١٠ ـ محاولة المسلمين الاستعانة بهولندا ضد الأسبان :

حاول المسلمون في هولو الاستعانة بهولندا ضد الأسبان استغلالا للعداء بين هولندا وأسبانيا، فذهب بعض علماء المسلمين ومعهم راجامردا سيكالا وارث السلطنة في سولو للاستعانة بهولندا التي كانت تحتل جاوا آنذاك، وطلبوا مساعدة هولندا لهم في طرد الأسبان. وفي سنة ١٦٤٦م ظهرت سفن هولندا أمام هولو وسمونجا، فقرر الأسبان الانسحاب من هولو بعد أن عقدوا معاهدة مع أهل سولو لإقامة سلام دائم بين أهل سولو والأسبان. وبأن يساعد كل منهما الآخر ضد العدو الأجنبي. وفيها اعترف الحاكم الأسباني بسلطة سلطان سولو من جزيرة تاوي تاوى إلى توتب، وأن تصل سلطة أسبانيا إلى تابول وسياسى، وذلك في مقابل جلاء الأسبان عن هولو. وكدليل على الرضا وعد سلطان سولو أن يرسل كل عام إلى سمونجا ثلاث سفن من الأرز، وأن يسمح لقسس الجزويت بأن يأتوا إلى هولو وكذلك تبادل الأسرى والمجرمين، ولكن هذه المعاهدة لم تستمر طويلا، وعادت الحرب ثانيا بين المسلمين وبين الأسبان بشراسة وعنف...

١١ ـ المعاهدات بين المسلمين وبين الأسبان :

عندما عجز الأسبان عن كبت قوى المسلمين وهزيمتهم بدأت القوة الأسبانية تتفاوض مع المسلمين، وقد عقدت عدة معاهدات بينها وبين المسلمين، منها اتفاقية سنة ١٧٢٥م، وبمقتضاها أصبحت التجارة حرة بين المسلمين وبين الأسبان، وتعهد المسلمون بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين..

وفي سنة ١٧٣٧م وقع السلطان علم الدين الأول سلطان سولو مع الحاكم الأسباني العام اتفاقا مكونا من خمس مواد، يقضي بما يأتي:

١ ـ إقامة سلام دائم بين الدولتين، وكل مخالفة أو ظلم أو تعد من القوتين يسوى سلميا.

٢ ـ أن يقدم كل منهما للآخر العون ضد أي عدوان أجنبي، والدول الأوربية مستثناة من هذا النسرط.

٣ ـ حرية التجارة بين الدولتين للتجار الذبن يحملون جواز سفر من الدولة.

٤ ـ أن تكون كل دولة مسئولة عن هتك السلام بين الدولتين بأحد رعاياها.

٥ ـ تبادل الأسرى بين الدولتين وإعادة تماثيل الكنائس وزخارفها التي استولى عليها أهل سولو.

وهناك معاهدات أخرى أبرمت بن المسلمين وبين أسبانيا في سنة ١٧٤٦م، ١٨٠٥م، ١٨٣٦م، ١٨٥١م، ١٨٧٨م.

وفي اتفاق سنة ١٧٤٦م حضر رسول خاص من مانيلا إلى السلطان علم الدين يحمل رسالة من الملك فيليب الخامس ملك أسبانيا، يرجو فيها أن يسمح للقسس بأن يأتوا إلى هولو ويعظوا بالمسيحية لأهل سولو، وقد أقام السلطان لرسول الملك حفلة تكريم واستعراضا للجيش. وفي مجلس استساري بين السلطان والداتوات وافقوا على أن يعظ القسس في هولو، بل ذهب السلطان إلى أبعد من ذلك بأن سمح للأسبان بأن يقيموا كنيسة في هولو.

وفي مقابل ذلك على أسبانيا أن تساعد السلطان في إقامة اسطول بحري بمبلغ ستة آلاف بيزو، وتمده باثني عشر مدفعا عيار ١٣٣ رطلا، وكمية من المسامير والحديد، وقد حضر القسس الجزوت إلى هولو تنفيذا لهذه الاتفاقية.

ومع رضا السلطان عن هذا الوضع إلا أن الناس قابلوا ذلك باستياء عظيم، وتكون حزب معارض بقيادة الداتو (بانتيلان) الذي قاد حملات منظمة ضد الأسبان أحدثت خرابا في كل مكان، واستطاع أن يدخل الرعب والفزع في كل القرى المسيحية في مندانا وبسايا ولوزون حتى في شوارع مانيلا نفسها، حيث نزل المسلمون إلى ساطئ مانيلا تحت سمع وبصر السفن الحربية الأسبانية، واستطاعوا أن يردوا على الحملات المسعورة التي قادها الأسبان على المسلمين في الجنوب.

وفي سنة ١٨٤٨م بنى حاكم الفلبين الأسباني ثلاث سفن بخارية وسفينتين استكسافيتين وثلاث سفن نقل للجنود، وقد بنت إنجلترا هذه السفن لحاكم الفلبين وهي سفن بخارية تسير أسرع من السفن الشراعية التي يستعملها المسلمون.

كان ظهور هذه السفن في المحيط الهادي بداية لنهاية سيادة المسلمين على البحار، إذ بهذه السفن وبقوة كبيرة من الجنود هاجم الأسبان المسلمين في هولو، ودمروا استحكاماتهم واستولوا عليها، فاضطر سلطان هولو والأمراء أن يعقدوا معاهدة مع الأسبان في سنة ١٨٥١م، اتفق فيها على سيادة الأسبان على هولو، وأن يرفع السلطان العلم الأسباني عليها، وألا يعقد اتفاقا مع أية دولة أخرى. وفي مقابل ذلك يقدم الأسبان للسلطان وللأمراء معاسا ينفقون منه، وأن يسمحوا للمسلمين بمزاولة شعائرهم الدينية، ويضمنوا للسلطان أن يرث أبناؤه عرش هولو.

ومع ذلك فإن هذه المعاهدة لم تنه الحرب بين الأسبان وبين المسلمين، إذ بمجرد جفاف حبر هذه المعاهدة عاود المسلمون حربهم ضد الأسبان بعد أن أسسوا بيت الحرب ولموا شعثهم تحت قيادة الأمراء وهزموا الأسبان.

عاود الأسبان الكرة على المسلمين في سنة ١٨٧٦م، حيث هاجموا هولو بقوة كبيرة مكونة من تسعة آلاف جندي أسباني وفلبيني بسفن بخارية حربية مجهزة بمدافعها.

وقد دافع المسلمون عن مدينة هولو دفاع الأبطال، ولكنهم منوا بمذبحة فظيعة من الأسبان. وفي هذه المرة سقطت مدينة هولو سقوطا تاما، واستولى عليها الأسبان، فنقل المسلمون السلطة إلى (ماينبون) في جانب سولو الآخر ووقع السلطان معاهدة سلام مع الأسبان سنة ١٨٧٨م، ولكن ذلك لم يمنع المسلمين الأحرار من أن ينغصوا على الأسبان حياتهم، ويجعلوا إقامتهم في هولو جحيما لا يطاق، ففي سنة ١٨٨٣م ذبح المسلمون كثيرا من جنود الأسبان في شوارع هولو، وقد قدر الذين قتلوا من الجنود المسيحيين بأيدي المسلمين من سنة ١٨٩١م إلى سنة ١٨٩٩م بثلاثمائة جندي مسيحي.

أما في مندناو فقد جرد الأسبان حملة عليها في سنة ١٨٨٦م تمكنت من تخريب بعض استحكامات المسلمين وبيوتهم، ولكنهم فشلوا في احتلال أرض المسلمين، فعاود الأسبان الكرة سنة ١٨٩١م، حيث استطاعوا أن يستولوا على كوتاباتو، ولكن بعد وقت قصير تمكن المسلمون من طردهم منها، وأرغموهم على الرجوع إلى سمونجا. فجرد الأسبان حملة أخرى سنة ١٨٩٥م ضد المسلمينين في لاناو، ولكنها عادت بالفشل.

١٢ ـ هزيمة الأسبان أمام أمريكا :

أخيرا قامت الحرب بين أمريكا (الولايات المتحدة الأمريكية) والأسبان ١٧٩٨م، حيث كان الأسبان والمسلمون يموتون في الغابات لما اتصف به الأسبان من اعتداء وتعصب، ولما آمن به المسلمون من دفاع عن أرضهم ووطنهم وحفاظا على دينهم وعقيدتهم. وبعد أكثر من ثلاثة قرون من الغارات المحمومة والحملات المتكررة فسل الأسبان في أن يحتلوا أرض المسلمين في الجنوب، أو يتمكنوا من تنصير المسلمين الشجعان.

وفي مايو سنة ١٨٩٩م احتل الجيش الأمريكي هولو تم سمونجا من مدن المسلمين، وعاد الجنود الأسبان من ميدان القتال إلى أسبانيا بخفي حنين يحملون الخيبة والفشل.

١٣ ـ موقف أمريكا في الفلبين من المسلمين :

بعد أن انتصرت أمريكا على الأسبان في شمال الفلبين دفعت أمريكا إلى أسبانيا مائتي مليون دولار لتحل محلها في الفلبين، وتحرر بذلك عقد أبرم في باريس في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨م. وقد قاوم المسلمون الغزاة الجدد من أمريكا بدون هوادة، وقدموا الشهداء من أبنائهم وأمرائهم في السنين المتتالية، فقد تقابل المسلمون مع قوى الاحتلال الأمريكي في موقعة قريبة من هولو سنة ١٩٠٦م، حيث استشهد من المسلمين أكثر من ستمائة شهيد من الرجال والنساء والأطفال. وكانت الموقعة الثانية قريبة من هولو أيضا في سنة ١٩١٣م، وقدم فيها المسلمون كثيرا من الشهداء، وثبت خلال هذه المعركة تفوق الأسلحة الأمريكية على أسلحة المسلمين. وغيرت أمريكا بعد هذه الموقعة من سياستها، فاختارت حكاما من المدنيين لتهدئة شعور المسلمين. واستطاع (Mr. frank. W. Carpenter) أول محافظ أمريكي لجزيرة سولو ومنداناو أن يظهر الصداقة لسلطان المسلمين، ويكون سنة ١٩١٤م وزارة خاصة بشئون منداناو وسولو للإشراف على المناطق الإسلامية السبع، وهي: سولو، لاناو، كوتاباتو، سمونجا، داباو، اغوسن، بوكيدنن، وجعل مقر الوزارة في دنسلان بمنطقة لاناو.

واستطاع هذا المحافظ (فرانك كربنتر) أن يعقد معاهدة مع السلطان جمال الكرام سلطان سولو في سنة ١٩١٥م، تنازل فيها السلطان عن سلطاته الدنيوية (أي السياسية)، واعترف

فيها بالنفوذ الأمريكي في بلاده، مقابل إعطائه معاشا سنويا، ثم الاعتراف به كقائد روحي لمسلمي الفلبين.

وبذلك أفل نجم سلاطين المسلمين، ثم حلت الوزارة الخاصة بشئون مندانا وسولو، وضمت إلى مكتب شئون القبائل غير المسيحية سنة ١٩٢٠م.

لقد استطاع (فرانك كربنتر) بحسن إدارته وحكمته وتقديره لشخصية المسلمين أن يحقق في سنين قليلة مالم تستطيع سيوف الأسبان أو مدافع الأمريكيين تحقيقه من نشر السلام والطاعة في أرض المسلمين.

وفي الثلاثينات من القرن العشرين وافقت أمريكا على استقلال الفلبين تدريجيا بإعطاء السكان في الفلبين مدة عشر سنوات كفترة انتقال قبل منحهم الحرية الكاملة مع الإبقاء على المصالح الأمريكية.

واختير أول رئيس للبلاد من العناصر الوطنية المسيحية، وكان يتمتع بكل الصلاحيات، فألغى مكتب شئون غير المسيحيين الذي كان يتبع سلطة حكومة الولايات في الفلبين، وأصبح يتبع وزارة الداخلية الفلبينية. وبذلك صار المسلمون في جنوب الفلبين فلبينيين دون أن يدروا من أمرهم شيئا.

قامت مظاهرات بين المسلمين ضد هذا الإجراء، وأيدهم بعض الشيوخ الأمريكيين في منع ضم منداناو وسولو ـ ذات الصبغة الإسلامية ـ إلى الفلبين، ولكن لم يتم ذلك.

استمر الوضع على ذلك إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية، واحتل اليابانيون الفلبين، وهب المسلمون يكافحون الغزاة الجدد، وأعلنوا عصيانهم على الحكومة العميلة، وزج بكثير من المسلمين في السجون ومعكسرات الاعتقال التي أقامها اليابانيون، لأن المسلمين وقفوا ضد الاحتلال الياباني وضد الإبادة الجماعية التي نفذها اليابانيون ضد المسلمين.

وعندما هزم اليابانيون وقامت الحكومة الوطنية الكاثوليكية في الفلبين رفع المسلمون لواء العصيان ضدها وضد العصابات المسيحية التي ظلت تمارس أعمالها الإرهابية حيال الأقليات

الإسلامية في بعض الجزر، ومما أثار المسلمين وأساء اليهم قيام الحكومة الفلبينية بتهجير العديد من المسيحيين إلى المناطق الإسلامية، مما يؤدي إلى جعل المسلمين أقلية في بلادهم.

١٤ ـ تطور المشكلة بعد الاستقلال :

بعد استقلال الفلبين جعلت إدارة شئون المسلمين في يد رئيس الدولة الفلبيني اعتبارا من سنة ١٩٥٠م، وكان كاثوليكيا متعصبا، فأخذ يعمل على تفتيت القوى الإسلامية وحرمانها من الحقوق التي تتناسب مع تعدادها بالنسبة لمجموع سكان الفلبين.

كان ذلك من الأسباب التي أدت إلى تأخر المسلمين لعدم قيام الدولة بأية مشروعات إصلاحية تؤدي إلى تقدم المسلمين، كما أدى هذا الوضع إلى ضياع كثير من أراضيهم. ففي عام ١٩٠٨م كان المسلمون يسيطرون على ٩٢٪ من مجموع مساحة منداناو، ولكنهم الآن نتيجة لسياسة القهر والاضطهاد وإخراج المسلمين من أراضيهم ومنحها للمهاجرين المسيحيين فقد صارت مساحة الأرض التي يعترف بها للمسلمين لا تزيد على ٣٥٪ وإن كانوا يضعون أيديهم فعلا على نحو ٦٥٪ من مجموع مساحة الأراضي كلها(١٢).

والمسلمون لا يتركون أرضهم ويرحلون عنها إلا بعد أن يقدموا كثيرا من أبطالهم شهداء في مقاومة المسيحيين الذين يريدون اغتصاب أرضهم، وقد تكونت جماعات مسيحية لاضطهاد المسلمين وحملهم على ترك أرضهم مثل جماعة (إيلاجا) المسيحية، وهي تنظيم سري، هدفه الاستيلاء على الأرض التي يملكها المسلمون. وقد درب أفراد هذه الجماعة على حرب العصابات، ووجد كثير من المدافع الرشاشة في حوزتها، وهذه الجماعة تعد من أخطر الجماعات الكاثوليكية تعصبا ضد المسلمين، حيث يعملون على إبادة المسلمين والاستيلاء على أرضهم. وتحت ضغط قوتهم المتفوقة على المسلمين في العدد والسلاح يترك المسلمون أرضهم لينضموا إلى معسكرات اللاجئين المسلمين الذين بدأ يتكاثر عددهم من خمسين ألفا إلى قرابة ربع المليون لاجئ.

وقد كشف النواب المسلمون عن وجود تواطؤ بين حكومة ماركوس الفلبينية الحالية وبين تلك العصابة، وساقوا الأدلة الآتية على صحة ما يقولون:

١ ـ إن قوات إبلاجاس أيدت مرشحي الرئيس ماركوس في الانتخابات التي جرت في نوفمبر سنه ١٩٧١م.

٢ ـ عدم تصدي قوات الأمن والجيش الحكومية لقوات إبلاجاس عقب اعتداءاتها في كوتاباتو ولاناو على المسلمين.

٣ ـ لم تحرر الحكومة أي قضية ضد أفراد إبلاجاس الذين قبض عليهم متلبسين بجرائم القتل ضد المسلمين.

٤ ـ اعترف أحد قواد جماعة إيلاجاس أمام لجنه التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ الفلبيني في مارس سنة ١٩٧١م بأنهم يتلقون تدريبات عسكرية، ويستلمون معونات ومؤن من الحكومة.

٥ ـ اعترف الجنرال (كاسترو) قائد الشرطة في الفلبين أن هناك خمسه وثلاثين ألف رجل من عصابات إبلاجاس المسلحه في مناطق المسلمين بجزيرة مينداناو.

٦ ـ جاء في تقرير عن القوات المسلحة سنة ١٩٧١م أنها وافقت على صرف مبلغ (واحد وسبعين مليون بيزو) لأعمال الاستخبارات في منطقة منداناو، وقد اتهم المسلمون الحكومة بأن هذه الأموال إنما أعطيت نقدا (لإبلاجاس)، وقد اعترف وزير الدفاع اعترافا غير مباشر بتلك المهمة في مارس سنة ١٩٧٢م، وذكرت جريدة (مانيلا كرونيكل) تلك الحقيقة دون تحفظ أو مداراة.

٧ ـ أثبت قاضي منطقة بولان (جوان الهيبيري) أن قائد جيش برتبة (رائد) هو الذي يقود جماعة (إيلاجاس) من (لاناودل سور) الشمالية، كما أن منظمة (جينا) وهي الجناح العسكري السري لكافة الجمعيات الكاثوليكية الشرعية العلنية تتلقى معونات وإسهامات من الكنيسة الكاثوليكية بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ولديها إمكانيات كبيرة، وعندها أكثر من مخزن للسلاح وميدان للتدريب على القتال النظامي والشعبي(١٣).

ولقد قدم المسلمون كثيرا من الشهداء والجرحى في سبيل محافظتهم على أرضهم التي تحاول جماعة إيلاجاس الاستيلاء عليها، وبلغ عدد خسائر المسلمين فيما بين ديسمبر سنة ١٩٦٩م حتى فبراير سنة ١٩٧٢م حسب تقارير الشرطة والصحف الفلبينية كالآتي:

أ ـ القتلى ١٨٤٥ شهيدا

ب ـ الجرحى	٤٢٠ جريحا .
جـ ـ البيوت المحترقة	٢٥٦١ منزلا .
د ـ عدد المساجد المحترقة	١١ مسجدا .
هـ ـ البلدان المهجورة	١١ قرية تبلغ مساحتها ٥٠٠ر٠٠٠ هكتار مربع(١٤).

وقد اتهمت منظمة تحرير مورو الوطنية في عريضتها المرفوعة إلى لجنة حقوق الإنسان الدولية حكومة ماركوس بارتكاب جريمة القتل الجماعي ضد المسلمين، إذ قتلت وجرحت حوالي المائة ألف، وشردت مالا يقل عن نصف المليون، واغتصبت ما يزيد على المليون هكتار من أراضي المسلمين، وحرقت البيوت والمساجد والمدارس، وخربت من الممتلكات الإسلامية ما قيمته مليار دولار أمريكي.

كما جاء في الكتاب الأبيض الذي قدمه المسلمون إلى ماركوس في سنة ١٩٧٥م أن عدد المذابح والحوادث الدامية في جنوب الفلبين قد بلغ ٤١٧ حادثة في الفترة ما بين ١٩٦٩م إلى أول سنة ١٩٧٢م، وهذا غير مئات الحوادث التي لم تسجل ولم تطل يد القانون المتسببين في هذه الحوادث(١٥).

وقد ذكر النائب (دبين كانوي) عضو المعارضة الوحيد عن جزيرة متداناو «أن عدد ضحايا القتال بلغ خمسين ألف نسمة خلال ست سنوات، من بينهم ألف نسمة في العام الماضي وحده»(١٦).

المطالبة باستقلال الجزر الإسلامية :

كاد الرد العملي على هذا الاضطهاد والاستيلاء على أراضي المسلمين هو قيام جماعة تطالب بانفصال المسلمين عن الفلبين ليكونوا دولة إسلامية في جزر المسلمين في الجنوب، وقد ظهر هذا الاتجاه في أواخر سنة ١٩٦٧م، وظهر التكوين العسكري لهذه الحركة في أواخر سنة ١٩٦٩م.

وزعيم هذه الحركة الاستقلالية الإسلامية شيخ ذو حذق سياسي ودراية عسكرية، اكتسبها

خلال مقاومته لليابانيين وخلال عمله السياسي كحاكم لمحافظة كوتاباتو، وهو الداتو أتج متالم الذي يرى أن حل هذه المسكلة هو الاستقلال بالجزر التي بنشكل المسلمون فيها أكثرية عددية أو تفوقا في ملكية الأراضي.

وهذان الشرطان يتحققان في جزر مينداناو وأرخبيل سولو بصورة ظاهره لا مماراة فيها.

وقد أرسل ذلك الزعيم ببرقيات ورسائل إلى الأمم المتحدة وإلى الرئيس الفلبيني (ماركوس) يعلنه فيها أنه يعتبر المسلمين مستقلين ومنفصلين عن حكومة مانيلا التي ترسل إليهم عصابات كاثوليكية لقتل الأبرياء من النساء والأطفال، وتحاول اغتصاب الأرض من أصحابها المسلمين لكي تسلمها لمن تهجرهم إليها من الكاثوليكيين لتجعلهم أغلبية سكانية فيها.

ولأن المسلمين لا يقبلون أي ثمن مهما كان غاليا لبيع أرضهم فالوسيله الوحيدة للاستيلاء عليها هو اغتصابها بغارات جماعية مسلحة في ظل رعاية السلطه وبتدبير وتخطيط منها.

والمسلمون يقاومونهم حسب طاقتهم ، ولكنهم في حاجة إلى مساعدة كل القوى المتحررة في العالم وخاصة القوى الإسلامية.

وبجوار هذه الحركة التي يتزعمها (داتو اتج متالم) وجدت جبهة تحرير بنجسامورو، أي جبهه تحرير أمة المسلمين، وينضوي تحتها كبر من الهيئات والمنظمات، ويرأسها مجلس سوره يقوده زعيم باسم حركي هو عمر أوفاف.

ولهذه الجماعه جناح عسكري مقاتل، وتدرب شبابها على حرب العصابات لحماية أنفسهم وحماية المسلمين. وقد أدى ظهور هذه القوى المقاتلة إلى تجمع صفوف الجماعات والطوائف الإسلامية وخاصة بعد التحرك العربي الذي أرسل وفدا لتقصي الحقائق في الفلبين سنة ١٩٧١م، فتكونت الإدارة الحدينة، وتضم هذه الإدارة الجمعيات والمنظمات والهيئات التالية:

١ - جمعية أنصار الإسلام : ويرأسها مندوب المؤتمر الدستوري (أحمد دموكاو ألنتو)، وهو عضو سابق في مجلس الشيوخ الفلبيني.

٢ ـ اتحاد القوى والجمعيات الإسلامية بالفلبين برئاسة النائب البرلماني رشيد لقمان، وكانت تسمى من قبل جمعية الشبيبة الإسلاميه، وكانت مجلة دعوة الإسلام لسان حالها.

٣ ـ نقابة المحامين المسلمين برئاسة عضو الشيوخ (مامتال تامانو).

٤ ـ الجمعية الإسلاميه بالفلبين برئاسة النائب البرلماني (ساليباد ابداتون).

٥ ـ مجلس التنسيق الوطني للشئون الإسلامية برئاسة (مكافانتويحيى عباس) الابن.

٦ ـ المجلس الوطني للشباب المسلم برئاسه (مكافانتون عباس) الأبن .

٧ ـ اتحاد الشبان والطلبة المسلمين برئاسة فاروق شريف.

٨ ـ الاتحاد الفيدرالي للجمعيات الإسلامية بالفلبين برئاسة السيدة الحاجه زوبدا تامانو.

٩ ـ صحيفة دعوة الإسلام : رئيس التحرير (عبدالرشاد آساني) .

١٠ ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية برئاسة النائب البرلماني (محمد علي ديمابورو).

كما توجد جمعية إقامة الإسلام، ومهمتها نشر الثقافة والتعليم الإسلامي في المناطق الإسلامية، ولها نشاط ملحوظ في ذلك(١٧).

وقد عرضت مشكلة المسلمين في الفلبين على مؤتمرات وزراء خارجية الدول الإسلامية ابتداء من مؤتمر كوالالمبور الذي انعقد في عام ١٩٧٤م إلى المؤتمر التاسع الذي عقد في داكار سنة ١٩٧٨م.

وقد انتدب المؤتمر لجنة وزارية رباعية مكونه من وزراء خارجية المملكة العربية السعودية وليبيا والصومال والسنغال لتقصي الحقائق في الفلبين، وبعد مساع عديدة تحت إشراف لجنة مؤتمر وزراء الخارجية للدولة الإسلامية دارت مفاوضات بين وفد من حكومة جمهورية الفلبين ووفد جبهة تحرير مورو، أسفرت في النهاية عن اتفاق طرابلس سنة ١٩٧٦م. ومن بين ما تضمنه هذا الاتفاق ما يأتي:

١ ـ منح الحكم الذاتي الداخلي للمسلمين في جنوب الفلبين في إطار احترام السياده الوطنية لجمهورية الفلبين ووحدة أراضيها على أن يشمل ذلك ثلاثة عشر إقليما.

٢ ـ إقامة محاكم شرعية إسلامية للمسلمين، وإشراكهم في المحكمة العليا للبلاد.

٣ ـ تعليم المسلمين في نظام تعليمي خاص بهم .

٤ ـ إعلان وقف إطلاق النار، والعفو العام عن المجاهدين المسلمين، وإطلاق سراح المعتقلين

السياسيين، وعودة اللاجئين إلى ديارهم، وضمان حرية الانتقال وحرية التجمع.

٥ ـ قيام نظام مالي خاص بالمسلمين مع تمثيلهم في الحكومة المركزية، وقيام حكومة انتقالية للحكم الذاتي، ومجالس تسريعية وتنفيذية، وقوات أمن داخلي إقليمية.

٦ ـ تكوين لجنة خاصة لمراقبة اتفاق وقف إطلاق النار مكونة من ممثلين لجبهة تحرير المورو، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وحكومة الفلبين(١٨).

ونتيجة لهذا الاتفاق أعلن عن وقف إطلاق النار احتراما للاتفاقية، ونزولا على رغبة العالم الإسلامي.

إلا أن الخلافات بدأت تظهر اعتبارا من شهر فبراير سنة **١٩٧٧**م حين اجتمعت اللجنة المشتركة المكلفة بحل المسائل العملية المترتبة على اتفاق طرابلس، فقد تحولت حكومة الفلبين عند نقطتين أساسيتين في اتفاق طرابلس، تتعلقان بالأقاليم التي كان مقرراً أن يمارس فيها الحكم الذاتي الداخلي، وإدخال إجراء دستوري غير مقرر ألا وهو الاستفتاء.

وقد أبدت اللجنة الوزارية الرباعيه والأمانة العامة في اجتماع مشترك تحفظاتها حيال هذا التغيير في موقف حكومة الفلبين، كما لفتا نظرها إلى هذا التغيير، وأعربا عن استعدادهما للمساعدة على إيجاد حل للمشكلة.

وقد كلف المؤتمر الإسلامي الثامن لوزراء الخارجية للدول الإسلامية ـ بعد اطلاعه على الوضع في مجموعه ـ اللجنة الوزارية الرباعية بأن تواصل وساطتها بين الطرفين تطبيقا للقرارات التي سبق اتخاذها في المؤتمرات السابقة لوزراء الخارجية للدول الإسلامية.

وقد وجهت اللجنة رسالة إلى حكومة الفلبين في ١٣ يونية سنة ١٩٦٦م، ذكرت فيها «أنه ينبغي التوصل إلى التفاهم والتعايش السلمي بين كل الأطراف والأديان والعناصر الشقيقة لشعب واحد». وأجابها وزير خارجية الفلبين «بأن بلاده لن تدخر وسعا من أجل التوصل إلى حل سلمي وعادل للمشكلة».

غير أن هذه الرسائل لم تحل المشكلة ، واستؤنفت عمليات العنف والإبادة والتدمير بين الجانبين في جنوب الفلبين، واستمر الوضع في التدهور، مما أدى إلى قتل العشرات من الضباط

والجنود الفلبينيين، وقيام الحكومة بعمليات جوية وبرية وبحرية ضد المسلمين في الجنوب، قتل فيها كثير من المسلمين ودمرت منازلهم وشردوا من ديارهم وقراهم.

ونتيجة لذلك اجتمعت اللجنة الوزارية الرباعية في الخامس من نوفمبر سنة ١٩٧٧م، ووجهت إلى الرئيس ماركوس وإلى رئيس جبهة تحرير مورو. دعتهما فيه إلى وقف كافة العمليات العسكرية والعودة إلى مائدة المفاوضات.

كما كتبت إلى حكومات ماليزيا وأندونيسيا وتايلاند تطالبهم ببذل مساعيهم الحميدة في هذا الاتجاه، كما أهابت بمجلس الأمن ولجنة حقوق الإنسان والدول الإسلامية بالتدخل لإيقاف المجازر الوحشية وانتهاكات حقوق الإنسان، وبينت أن استئناف الحرب سيهدد الأمن والاستقرار الدوليين.

وقد دعا الرئيس ماركوس السيد/ نورمسواري رئيس جبهة تحرير مورو إلى التوجه إلى الفلبين للتفاوض معه، وأجابه السيد نور مسواري بأنه مستعد لاستئناف المفاوضات في دولة محايدة، وتحت رعاية منظمة المؤتمر الإسلامي، وفي إطار احترام اتفاق طرابلس.

غير أن تجدد العنف في جنوب الفلبين جعل الرئيس ماركوس يعلن عن طريق سفيره في جده أنه يتشكك في جدية وإخلاص جبهة مورو تجاه الحكم الذاتي الداخلي للمسلمين في الفلبين، وأنه يعلم ـ وفقا للوثائق التي تم الاستيلاء عليها ـ أن السيد نورمسواري يعمل من أجل الانفصال. ولكن رئيس جبهة تحرير مورو نفى هذا الاتهام.

وفي ١٨ فبراير ١٩٧٨م اجتمعت اللجنة الوزارية لمدة ثلاثة أيام، وأجرت بحثا مستفيضا للوضع، واستمعت إلى السيد نورمسواري، واتخذت مجموعة من الإجراءات لم يذكر عنها تقرير داكار شيئا.

وفي ٥ مارس ١٩٧٨م بعث الأمين العام لمؤتمر وزراء الخارجية برسالة إلى الرئيس ماركوس، دعاه فيها مرة أخرى وباسم اللجنة الرباعية إلى إيقاف كافة العمليات العسكرية ضد المسلمين في جنوب الفلبين، وقد أعرب السيد نورمسواري لرئيس دولة الفلبين عن استعداداته الطيبة.

وفي أول أبريل ١٩٧٨م بعث الرئيس ماركوس برد إلى أمين عام منظمة تحرير مورو وضمن رسالته مؤاخذاته ضد رئيس جبهة تحرير مورو، وأعرب عن حسن نوايا حكومته، غير أنه أشار إلى الاختلاف الدائر في صفوف الجبهة، وذكر أن الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر قد قدم له هاشم سلامه على أنه الزعيم الجديد، وأخيرا ذكر الرئيس ماركوس «أن الحيطة تتطلب منه أن يتابع التطورات»⁽١٩⁾.

وقد ألقى الرئيس ماركوس خطابا في ١٩٧٨/٩/٢١م «وعد فيه بتخصيص منطقة تتمتع بنسبه حكم ذاتي ٥ر٢ مليون من سكان الأقاليم الجنوبية في ميندناو وسولو وتاوي تاوي وباسيلان، وأضاف قائلا: لا داعي للقلق بشأن الموقف في جنوبي الأرخبيل، اللهم إلا إذا تلقى الثوار أعضاء الجبهة الوطنية للتحرير - مورو - مساعدات من الخارج⁽٢٠⁾.

وهي وعود كما رأينا سبق تكرارها دون أن يكون لها أثر واقعي يقر الأمن والسلام، ويطمئن المسلمين على دمائهم وأرواحهم وأرضهم.

الانشقاق في جبهة تحرير مورو:

إن الشقاق والاختلاف في جبهات المطالبين بحقهم هو الداء الوبيل الذي يؤدي إلى ضعف تلك الجبهات وتخاذلها، ويقف حاجزا سميكا دون الوصول إلى أهدافها وتحقيق مطالبها، وللأسف قد حدث ذلك في جبهة تحرير مورو.

فقد ظهرت حركة منشقة ادعت عزل رئيس جبهة تحرير مورو، وضاعفت هذه الحركة من اتصالاتها بالسفارات في جده وبالأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

وقد ذكرت هذه الحركة المنشقة بعض الأسباب لعزل رئيس جبهة تحرير مورو السيد نورمسواري منها:

١ - أن القيادة تحت رئاسة السيد نورمسواري تتنافى مع التوجيهات الإسلامية في تحركاتها وأساليبها وأهدافها، ونحت نحو الماركسية الماوية.

٢ - أن القيادة تحت رئيس الجبهة السيد نورمسواري لم تقم على أساس المشاورة والقيادة الجماعية المستجيبة، بل قامت على مبدأ ديكتاتوري فردي وانعزالي خفي وغامض، مما

أدى إلى سوء تدبير جميع شئون الجبهة، وخاصة فيما يخص الشئون الإدارية والاستراتيجية والمالية.

٣ - نتج عن قيادة السيد نورمسواري المحوطة بالسرية الكثير من الاضطراب والتسكك وخيبة الأمل بين الأعضاء والمجاهدين في الميادين، وأدى ذلك إلى كثير من الخسائر في صفوف المقاتلين، وأدى ذلك إلى التفتت والتفرق والاختلاف بين المسلمين وخاصة المجاهدن، فضعفت قوتهم المعنوية، مما أدى ببعضهم إلى الاستسلام والتوقف عن عملية الجهاد، بالإضافة إلى التفرق بين المنظمات والمؤسسات الإسلامية.

ولذلك فقد أسندت هذه الحركة المنشقة قيادة الجبهة إلى السيد سلامة هاشم عضو اللجنة المركزية لجبهة تحرير مورو الوطنية ورئيس شئون خارجيتها اعتبارا من ١٣ محرم سنة ١٣٩٨ هـ ، وقد وزعت منشورات عليها توقيع ٧٦ شخصا من المؤيدين لهذا الانشقاق(٢١).

ولاشك أن هذا الانشقاق يعطي للحكومة الفلبينية فرصة ذهبية لتقف من مطالب المسلمين موقف التسويف، ثم المعارضة لهذه المطالب حتى تتمكن من القضاء عليهم، خاصة والمسلمون يمكنونها من ذلك بإشاعة الفرقة والاختلاف بين صفوفهم.

ومن هنا نرى أن المسئولية الكبرى لحل هذه القضية يقع على كاهل المسلمن في الفلبين أولا، وذلك بتوحيد صفوفهم، ووأد أي نزاع أو شقاق يقوم بينهم حتى يصيروا صفا واحدا يقف في وجه المعتدين عليهم، ويحقق لهم قول الله تعالى:

(إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ) (الصف: ٤)

كما تقع مسئولية كبرى على الدول الإسلامية وخاصة المجاورة للفلبين (أندونيسيا وماليزيا) بإظهار التضامن مع المسلمين في الفلبين، ولو أدى ذلك إلى فرض عقوبات اقتصادية وسياسية ضد حكومة الفلبين نظرا لمماطلتها في تحقيق اتفاق طرابلس وتحديها لقرارات مؤتمرات وزراء الخارجية للدول الإسلامية.

ثم على الدول الإسلامية تعضيد قضية المسلمين في الفلبين عند عرضها في مجلس الأمن ولجنة حقوق الإنسان وهيئة غوث اللاجئين الدولية.

وعليها تقديم المساعدات المادية والمعنوية للمسلمين في الفلبين حتى يتمكنوا من مواصلة جهادهم وحصولهم على حقهم في المحافظة على أرواحهم وعقيدتهم وأرضهم.

ولي في النهاية أن أقول: إن المسلمين إذا طالبوا بالاستقلال التام والعودة إلى وضعهم السابق الذي كانوا عليه خلال الاحتلال الأسباني فإن لهم سندا قانونيا هو هذه المعاهدات المتعددة التي وقعت بينهم وبين الأسبان، حيث تظهر شخصيتهم الاعتبارية كدولة مستقلة لها كيانها الخاص.

ثم إنهم أثناء الاحتلال الأمريكي كان لهم وضعهم الخاص الذي يكفل لهم المحافظة على أرضهم وعلى دينهم وعلى خصائصهم الحضارية المترتبة على اعتناقهم لدينهم الإسلامي الذي لا يفصل بين الدين والدنيا، والذي يوجه الحياة الإنسانية في كل مظاهرها الفردية والاجتماعية.

ومع ذلك فإن الدين الإسلامي لا يمنع أن يعيش أتباعه مع أصحاب الأديان الأخرى، ولكن بشرط أن تحفظ لهم حقوقهم ويعيشوا مع غيرهم على قدم المساواة في الحقوق والواجبات.

أما أن يهجر المسيحيون من الشمال إلى الجنوب لكي يكونوا أكثرية بين المسلمين، ثم تعطى لهم أراضي المسلمين، ويطرد المسلمون منها، ويصلبوا وتحرق ديارهم وتهدم مساجدهم ومدارسهم، فإذا ثار المسلمون للحفاظ على كرامتهم والاحتفاظ بحقوقهم وأرضهم قالت الحكومة الفلبينية عنهم: إنهم عصابات ، وإنهم سفاكون... وإنهم... وإنهم... فذلك مالا يرضاه إنسان.

وإذا كان هذا هو ما حدث بعد الاستقلال بالنسبة للمسلمين فإنني أقول: إن ذلك ليس استقلالا، وإنما هو استعمار آخر من ساكني الشمال لساكني الجنوب، أو من المسيحيين للمسلمين بعد أن عجز الأسبان عن احتلال أراضي المسلمين في الجنوب، وبعد أن اعترف الأمريكان أثناء احتلالهم للفلبين بالشخصية المتميزة للمسلمين، وحافظوا لهم على أرضهم وعلى دينهم وعلى مقومات حياتهم المادية والمعنوية.

ولاشك أن الأمر للمسلمين ساكني الجنوب الفلبيني في حرية الاختيار للوضع الذي يرضونه من الاستقلال التام أو الاندماج بوضع خاص.

إلا أن الضمير الإنساني والأخوة الإسلامية تحتم على من يهتم بالمشاكل الإنسانية، ويحرص على الأخوة الإسلامية أن يكون عونا دائما للحق والعدل الذي يطمئن الإنسان على حاضره وعلى مستقبله حتى تسير الحياة سيرا طبيعيا آمنا ومستقرا.

* * *

الحواشـــى

(١) انظر : Philippin. Political and cultural History, Volume 2. by Gregorio. F. Zaide

(٢) انظر : عذراء ماليزيا (الفلبين) للدكتور مصطفى مؤمن الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ صـ ٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٤١ .

(٤) انظر : Philippin. op. Cit. p. 41

(٥) انظر. The History of Sulu by Nageeb. m. Saleeby pay 42, 43 manile 1963

* مانتكابن : منطقة غنية ومتقدمة في وسط سومطرة، وقدم منها كثير من الأسر الملايوية .

** راجا : اللقب العادي لملوك الملايا .

(٦) موجز النظرية-أن انتشار الإسلام جاء كرد فعل لقدوم المسيحيين إلى تلك المنطقة.

(٧) انظر: كتاب الإسلام في السرق الأقصى وصوله وانتشاره وواقعه: تأليف دكتور فيصر أديب مخول، تعريب دكتور نبيل صبحي، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

(٨) ملاحظة : أثناء إقامتي في الفلبين مبعوثا للأزهر لنشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الفترة من ٦٢ ـ ١٩٦٥م زرت في شهر فبراير ١٩٦٥م بصحبة الحاج عبدالعزيز عمر مؤسس كلية مسلمي الفلبين فى هولو قبر المبشر الاسلامى مخدوم أمين الله فى قمة جبل (أغد) (ومعناه الجبل التابع) ويرتفع حوالى ٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر وهو قريب من مدينة هولو ومازال هناك إلى الآن خادم يعتنى بقبره ويوقد عليه البخور كما يضع الناس عليه دائما قماشا أبيض وحول القبر كثير من القبور الأخرى التى يقولون عنها إنها لاتباعه ولا توجد كتابه على هذه القبور. أما فى جبل (داتو) الذى يجاور الجبل السابق ويرتفع حوالى ١٨٠٠ قدم فيوجد قبر كتب عليه باللغة العربية «من مات غريبا مات شهيدا هذا قبر الشهيد تمهار وأنه توفى فى شهر رجب المعظم ٧١٠ هـ أى منذ سبعة قرون»..

وهذا يدل على أن الإسلام قد وصل إلى الفلبين وانتشر هناك قبل قيام المملكة الإسلامية فى سولو على يد راجابجند وأبوبكر من بعده..

(٩) عذراء ماليزيا الفلبين ، دكتور مصطفى مؤمن ، ص ١١ .

(١٠) انظر: Philipin. op. cit. p. 306.

(١١) History of Sulu by najeeb . . . Saleeby pp. 49-54.

(١٢) عذراء ماليزيا (الفلبين) د. مصطفى مؤمن ، ص ٤٢ .

(١٣) انظر عذراء ماليزيا (الفلبين) ، دكتور مصطفى مؤمن ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٤) انظر المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(١٥) نقلا عن مجلة الدعوة الهندية، العدد الثامن عشر ، السنة الثانية ٢١ ربيع الأول سنة ١٣٩٨ هـ مارس سنة ١٩٧٨م.

(١٦) صحيفة الجزيرة الصادرة في المملكة العربية السعودية في ١٣٩٨/١٠/٢٥ هـ ـ ١٩٧٨/٩/٢٧م.

(١٧) انظر عذراء ماليزيا (الفلبين)، د. مصطفى مؤمن ، ص ٧١، ٧٢ .

(١٨) انظر

(أ) تقرير عن قضية المسلمين في جنوب الفلبين مقدم إلى المؤتمر التاسع لوزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد في داكار سنة ١٩٧٨م..

(ب) مقال النضال الإسلامي في الفلبين، مجلة الدعوة الهدية، العدد الثامن عشر، مارس سنة ١٩٧٨م.

(١٩) انظر: التقرير المقدم عن قضية المسلمين في جنوب الفلبين إلى المؤتمر التاسع لوزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد في داكار، أبريل سنة ١٩٧٨م.

(٢٠) صحيفة الجزيرة التي تصدر في المملكة العربية السعودية العدد ٢٢٧٢ في ١٩٧٨/٩/٢٢م.

(٢١) انظر : منشورات جبهه تحرير مورو الوطنيه، اللجنة المركزية، وثيقة تولية الرئاسة.

* * *

المصادر

١ ـ الإسلام في السرق الأقصى : وصوله وانتشاره وواقعه. للدكتور قيصر أديب مخول، تعريب الدكتور نبيل صبحي، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

٢ ـ حاضر العالم الإسلامي : تأليف لونروب ستودارد الأمريكي، ترجمة عجاج نويهض، وفيه فصول وتعليقات للأمير شكيب أرسلان، جـ ١، ٢، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٧٣م.

٣ ـ عذراء ماليزيا (الفلبين) : للدكتور مصطفى مؤمن، الناشر دار التراث العربى ليبيا، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٢م.

٤ ـ المسلمون في جزر الفلبين : جهادهم ومطالبهم. للدكتور رءوف شلبي، الناشر مكتبة الأزهر، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٦م.

٥ ـ تاريخ الإسلام في الفلبين : للشيخ أحمد بشير أحمد، مؤسس جمعية إقامة الإسلام بمدينة مراوي فلبين، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٤م.

٦ ـ في جزر الفلبين : دراسات ومشاهدات وذكريات للدكتور عبدالرحمن حسين، بحث لم يطبع بعد.

٧ ـ رحلة ابن بطوطة : المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، سنة ١٩٦٧م .

٨ ـ مجلة الأزهر سنة ١٩٦٦م ١٩٦٧م مجموعة مقالات تحت عنوان: «عائد من الفلبين» للباحث الدكتور محمد محمد شتازيتون

٩ ـ صحيفة الأهرام القاهرية.

١٠ ـ صحيفة الجزيرة السعودية .

١١ ـ مجلة الدعوة الهندية العدد الثامن عشر : مقال عن الفلبين يتضمن الخطاب الذي ألقاه الأستاذ يحيى عباس في أول ندوة إسلامية أقامها معهد شئون الأقليات المسلمة بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة في ٢٥ شوال سنة ١٣٩٧ هـ ، ترجمة السيد/ جميل إسماعيل يحيى (نشرة معهد شئون الأقليات المسلمة).

١٢ ـ التقرير المقدم إلى المؤتمر التاسع لوزراء خارجية الدول الإسلامية في دكار سنة ١٩٧٨م.

١٣ ـ نشرات جبهة تحرير مورو الوطنية اللجنة المركزية.

1 - Moro Problens .

تقرير لجنة البرلمان الخاصة بمشاكل المورو (المسلمين في الفلبين) المقدم إلى برلمان الفلبين سنة ١٩٥٤م برئاسة السناتور أحمد ألنتو.

2 - Philippin Political and Cultural History, Volumes, By Gregoria. F. Zaide.

3 - The History of Sulu by Nageeb Saleeby manila 1963.

* * *

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
IMAM MUHAMMAD
IBN SAUD ISLAMIC UNIVERSITY

RESEARCH CENTRE

PROCEEDINGS OF THE FIRST ISLAMIC GEOGRAPHICAL CONFERENCE

VOLUME IV

Published Under The Supervision of The
Department of Culture and Publications

1404 AH - 1984 AD

Bibliotheca Alexandrina
0253339

Imam University Press